نغم بالألوان

إسم الـــكتاب :نغم بالألوان

إسم الكـاتــب :د/فاتن عبدالحميد

تصميم الغــلاف :عبدالله عباس

تدقيق لـــغــوي :فاطمة هاشم

رقـــم إيـــداع : 2021-21000

تــرقيم دولـــي :978-977-6925-31-1

writer operation

شارك سطورك مع العالم

نغم بالألوان

د/فاتن عبدالحميد

The Writer Operation
شارك سطورك مع العالم

الفصل الأول

الليلُ يسْدِلُ ستائرَ الرّاحةِ، ولكنّها لا تعرف طعم الراحة أبدًا، كل محاولاتها للنوم باءت بالفشل. جلست في فراشها تتابع صفحات «السوشيال ميديا» على هاتفها، ولكنْ لا جديدَ يفيد. أصبح الليْلُ عدوّها اللدود، سكونه ينزع سكينتها ويوقظ أوجاعها، تمر أيامها كأنّها فيلم سينمائيٌّ حزينٌ أمام عينيها؛ فتنهمر الدموع الغالية حزنًا على سنوات عمر غالٍ ضاعت هباءً. وقفت أمام مرآتها تتأمل ملامحها الجميلة بتركيز بالغ وتمعن شديد. عيونها السوداء الواسعة، أنفها المستقيم الأنيق، شفتيها شديدتي الحمرةِ، ورد خديها، ورغم كل هذا الجمال شعرت أنّ جمالها يذبل يومًا بعد يوم..! عيونها السوداء الواسعة الجميلة أرهقتها الدموع وانطفأ بريقها، ابتسامتها نورها خافت كاذب، ابتسامة شفتين لا مكان لها في القلب. يرى الناس هذا الجمال الطاغي.. يرون القوام الممشوق، والوجه ذا الملامح الفاتنة، والشعر الطويل الذي يحاكي الليل في سواده، والحرير في نعومته، ولا يرون الحزن الذي يسكن عينيها وقلبها..!

عادت إلى فراشها وأمسكت هاتفها من جديد. لاحظت رسالة صوتية على الهاتف.... استمعت إلى الرسالة:

ـ مساء الخير يا فريدة، ازيك.. عاملة إيه؟

إنّها رسالة من زوجها المقيم في الخليج. فردت عليه برسالة صوتية:

ـ وليد، انت هترجع مصر امتى؟!

- تاني يا فريدة! خلاص هانت إن شاء الله.

ـ أربع سنين جواز شفتك فيهم أربع شهور.. تفتكر دي حياة؟ تفتكر احنا كدا متجوزين فعلًا؟ أنا خلاص زهقت وتعبت ومش قادرة أكمل في الحياة دي.. تعال مصر طلقني أو ابعتلي ورقتي أسهل وأوفر..!

أغلقت الهاتف وبكت بحرقة. نعم الوحدة قتلت أنوثتها، وسرقت أيامها، فتساءلت باستياء ونفور: مَن هذا الرجل؟! رغم أنّه زوجها منذ أربع سنوات، لكنّها تشعر أنّه رجل غريب عنها، بعيد عن حياتها، بعيد عن روحها، هل هذا عيب الزواج الذي لم يبنَ على حب وولع؟!

لم تكن تعرفه قبل الزواج، كان زواجًا تقليديًّا وعقلانيًّا...

منذ أربع سنوات أنهت العام الثالث في كلية التجارة، فتقدم وليد لخطبتها، وهو ابن إحدى زميلات والدتها في العمل. ما كانت تفكر في الزواج قط في ذلك الحين. فوجئت بشاب لا تعرفه يتقدم لخطبتها... في بادئ الأمر رفضت مجرد التفكير في الزواج، ولكن مع إلحاح والدتها وافقت.. وافقت لأنّ والدتها كانت مقتنعة به وراضية عن هذا الزواج، أقنعتها أنّ هذا الشاب فرصة جيدة، من أسرة غنية ومحترمة، وأنّه شاب مثقف ووسيم، طبيب صيدلي يعمل في الخليج، ماذا تريد أكثر من ذلك؟!

وافقت بعقلها، وأطاعت والدتها حبًّا لها وثقة في رأيها، وربما لأنّها لا تريد أن تغضب والدتها التي تحملت مسئولية تربيتها هي وأختها بعد وفاة الأب. أب رحل شابًّا في الأربعين من عمره، وتحملت الأم المسئولية منفردة، رغم أن الوالد ترك لأسرته من الأموال ما يكفي، إلا أنّ الأرملة ضحت بما لا يقدر بمال، ضحت بأحلى أيام شبابها من أجل ابنتيها، لا يمكن أن تتناسى أبدًا تضحيات «شريفة». جلست تقلب في صندوق ذكرياتها ودفتر أيامها، وتستعيد حكايتها مع زوجها «وليد». تذكرت تلك الجلسة الأولى التي جمعتها به.. حقًّا هو شاب وسيم طويل القامة، عيونه خضراء، وشعره بنيٌّ لامع، أنيق في مظهره، لبق في حديثه، كان يحاصرها بنظرات الإعجاب، ويبدو منبهرًا بها، بينما هي تجلس أمامه في قمة الخجل. وافقت على الخِطبة التي لم تستمر إلا شهرين، ثم تبعها الزواج، وبعد أقل من شهر سافر لانتهاء إجازته. عاد إلى عمله وبقيت هي في مصر، تقيم مع والدتها طوال العام وتعود إلى عش الزوجية أيام إجازته في مصر، التي كانت ـ دائمًا ـ شهرًا واحدًا فقط..!

مرَّت الأيامُ، وأنهت دراستها وما زالت كما هي؛ زوجة مع إيقاف التنفيذ، لم يحاول أنْ يعوّضها شهور الغياب الطويلة، ولو بكلمات حانية ومشاعر حلوة في أي حوار بينهما، كل ما بينهما مكالمات قصيرة

أو محادثات على الواتس من كلمات معدودة كأنّه يؤدي واجبًا يوميًا بأن يسأل عنها سؤالًا عاديًا لا ينم عن أيّ شغفٍ ولا حبٍّ ولا اشتياق... لا يقول أبدًا «أحبك»، ربما يكون حقًّا لا يحبها، وعندها طلَّ سؤال مزعج وسط زحام أفكارها: هل هي تحبه؟ هل رغبتها أن يبقى إلى جوارها وأنْ يقيمَ معها في مصر أو أن يصطحبها معه إلى الخليج تنبع عن حب وشوق، أم أنّها ترغب في خلق ظروف تسمح لمشاعر الحب أن تولد؟

إنّها الحقيقة الصارخة التي لن تستطيع أن تخفيها. هي لا تحبه ولم تأتِ الفرصة بعد لكي تحبه، وهو أيضًا لا يحبها، لكنّهما في النهاية زوجان، ارتبط مصير كلٍّ منهما بالآخر، كلّ منهما وجد في الآخر ما يدفعه للارتباط، ولكن الحب شيء آخر لن يحسب بهذه الطريقة العملية.

حاولت كثيرًا أنْ تقنعه بأنْ يصطحبَها معه، خاصة بعد أن أتمت دراستها الجامعية ولكنه لا يوافق أبَدًا؛ فحاولت أنْ تقنعه بالعودة إلى الوطن، وبالطبع هذا الاقتراح يثير اشمئزازه.. كيف يضحي بعمله في الخليج وفرصة تأمين المستقبل؟! إنّه إنسانٌ عقلانيٌّ ذو مشاعر خامدة لا تعرف الثوران أبدًا، دائمًا يرى الأمان في المال، ويراها صغيرة لا تجيد التفكير أو التخطيط؛ ربما لأنّه لم يتخطَ قطُّ فرق السن بينهما إذ إنّه يكبرها بعشرة أعوام. طوال سنوات الزواج يراها الصغيرة الحالمة، ويحدثها كأنه هو النضج والرشد الذي عليها أنْ تسعى للوصول إليه. اعتاد الغربة وألفها ومهما طالت سنوات الغربة لن يملَّها، ولا يبدو أنّ لطموحه فيها نهاية! اعتاد البعد إلى أنْ غاب عنها الاحتمال والصبر، وأصبحت لا تطيق هذه الحياة..!

ما زالت تموج بين أفكارها المتطاحنة.. ما زالت الوحدة سجنًا كبيرًا لا تدري كيف تتخلص منه. ما زال الليل بحرًا من الألم تغرق فيه كلَّ ليلةٍ ولا ترى لهذا الألم نهاية. أرهقها التفكير، أرهقتها الوحدة إلى أن استسلمت للنوم قبيل شروق الشمس بقليل.

بعد ساعات استيقظت فريدة على صوت والدتها تعبث بحجرتها كأنّها تبحث عن شيء ما هام ضائع منها، وتقول باستياء:

ـ يا بنتي، اصحي الساعة ١٢ الظهر.. إيه الدلع دا؟!

فردت «فريدة» بضيق:

ـ يا ماما الساعة تكون زي ما تكون.. أنا ورايا إيه يعني؟! سيبيني براحتي.

ـ هو حرام تقومي تساعديني شوية؟! وبعدين انتِ هتشتغلي الشهر الجاي في البنك ولازم تتعودي على الصحيان بدري.

ـ حاضر يا ماما.. حاضر، وبعدين مانزلتيش شغلك ليه يا ماما؟

ـ قلت أقعد أرتب الشقة النهاردا.. أخدت إجازة من المدرسة.

ـ طب نامي يا حبيبتي.. صاحية ليه بدري؟!

ـ دا اللي ربنا قدرك عليه؟! نامي.. مافيش فايدة!

اضطرت «فريدة» إلى النهوض من فراشها، وخرجت من حجرتها وتوجهت إلى المطبخ لإعداد الغداء. تبعتها والدتها، وقالت:

ـ على فكرة.. أنا حضرت كل حاجة والغدا شبه جاهز.

ـ طيب كنتِ سيبتيني أنام يا ماما.. أنا مش نايمة كويس.

ـ مالك صاحية مش طايقة نفسك.. انتِ اتخانقتِ مع وليد تاني ولا إيه؟!

ـ خلاص مفيش خناقات تاني.. أنا طلبت الطلاق.

ألقت فريدة كلمةً كادت أنْ تكون أشبه بالقنبلة في وجه والدتها وتركتها مسرعة عائدةً إلى غرفتها.

أسرعت خلفها والدتها، وقالت بقلق:

ـ طلاق إيه يا فريدة.. انتِ اتجننتِ؟!

ـ بالعكس.. أنا عقلت، ومصممة على الطلاق.

ـ لا، دا جنان رسمي.. صبرني يا رب.

كثيرًا ما وصفت «فريدة» لوالدتها معاناتها، لكن لم تقتنع الأم قطُّ بكلِّ ما تقول ابنتها، لا أحد يتفهم وحدتها ولا يتخيل معاناتها، لا أحد يسمع صراخ مشاعرها وأنين أنوثتها..!

عادت لتجلس في غرفتها من جديد، لن تبقى قريبة من والدتها التي إن لم توبخها بالكلام ستظل ترمقها بنظرات أكثر إيلامًا من الكلمات؛ فلتختبئ في غرفتها وتحتمي بوحدتها من الجميع.

دق جرس الباب، فتحت الأم الباب ورحبت بابنتها الصغرى «علياء»، إنها الجميلة التي تشبه والدتها في الملامح، ذات القوام الرشيق، والشعر البني القصير والعيون العسلية. دخلت علياء بخطى متباطئة ويبدو على وجهها الجميل مسحة حزن لا تخفيها ابتسامتها الباهتة؛ فنظرت إليها والدتها بتمعن وسألت باهتمام:

ـ مالك يا علياء، انتِ مش لسه عندك محاضرات ولا إيه؟!

-لا يا حبيبتي.. المحاضرة اتلغت.

-أنا هروح أحضر الغدا ونتغدا مع بعض، روحي اقعدي مع فريدة يمكن تعقليها.

دخلت علياء غرفة أختها، فوجدتها تجلس في فراشها تبكي، فسألتها بقلق:

-في إيه يا فريدة؟!

-أنا عايزة أطلق، أنا مش مرتاحة، ليه ماحدش فاهمني؟!

صمتت علياء قليلا وتنهدت، ثم قالت:

-أنا حاسة بيكِ يا فريدة، لكن الطلاق خطوة جبارة، وماما زي أي أم بتترعب من فكرة الطلاق، حبيبتي يا ريت تهدي وتستني لما وليد ينزل الإجازة اللي جاية، يا ريت تركزي في شغلك الجديد وإن شاء الله ربنا يكتبلك الخير.

-هحاول.

-امسحي دموعك ويلا نستعد للغدا.

-علياء، انتِ مالك؟ شكلك مش مريحني خالص!

-محسن اتغير قوي من ساعة ما اشتغل في الشركة الجديدة دي، أنا مش عارفة ماله، أنا حاسة إن في واحدة في حياته.

-انتِ بتشكي فيه يا علياء؟! محسن دا بيحبك موت، انتي بتفكري في إيه؟ انتِ بس بتغيري عليه بزيادة، بلاش جنان يا علياء، ركزي في مذاكرتك دي آخر سنة يا حبيبتي.

تعالت نداءات الأم لبنتيها لتناول الغداء، وبعد الغداء دخلت علياء إلى غرفتها للمذاكرة؛ فلابد أنْ تستعد لامتحانات آخر العام. ألقت بشكوكها بعيدًا لتهتم بدراستها، آخر عام في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية، ولا بد أن تحافظ على تفوقها لتحجز مكانها ضمن هيئة التدريس، لا يجب أنْ تترك مخاوفها تهدم أحلامها وما سعت إليه طويلًا.

انقضى اليوم، ودخلت الأم إلى غرفتها تستريح من عناء اليوم، ولكن قلبها مهموم بمشاكل ابنتيها، توتر علاقة فريدة بزوجها يزعجها كثيرًا، هل أخطأت عندما أقنعت فريدة بالزواج من وليد؟

ما كانت تريد إلا مصلحتها، لقد رأت فيه عريسًا مثاليًّا من وجهة نظرها، وما زالت ترى «وليد» زوجًا مناسبًا، ولكن فريدة رومانسية؛ تريد زوجًا بجوارها يدللها ويسمعها كلام الحب وأغاني الغرام، ما زالت ترى الحياة بعين المراهقة ولا تعرف أنّ الحياة صعبة والحب لا يصمد طويلًا أمام ظروف الحياة الاقتصادية الصعبة... كلما نظرت إليها ورأت حزن عينيها تتألم، ولكن ما زال هناك أمل أنْ يستطيع وليد أنْ يقدم لها الحب الذي تبحث عنه، لا بد أنْ تقنعَه أن يصحبها معه بعد ذلك، نعم هذا هو أفضل حل، رغم أنّ هذا الحل سيمزقها شوقًا، ولكن يكفيها أنْ تسعد فريدة، فريدة وعلياء هما عالمها الجميل، وكل دنياها، وستضحي مَنْ أجلِ سعادتهما طول العمر لأنهما كل العمر، حتى علياء يبدو عليها أنّها على خلاف مع محسن، ولكن هذا أمر عادي بين أيّ اثنين في فترة الخطوبة، أليست فترة تعارف! ستتم علياء دراستها وتتزوج ويعود وليد ليصالح زوجته، وبذلك تكون أتمت الأم مهمتها على

أكملِ وجه. ظلت الأفكار تأخذ «شريفة» بين أمواجها إلى أنْ أرهقت ونامت على أمل أنْ يأتي الغد بالراحة والاستقرار.

....

تمضي الأيام وعلياء أنهت امتحانات العام النهائي، ولم يتبقَ إلا أن تأتي النتيجة التي تنتظرها وهي التفوق والتعيين في الكلية. انتهت أيام المذاكرة التي كانت تشغلها لبعض الوقت عن التفكير في محسن وتغير معاملته معها عن شعور بداخلها يؤكد لها أنّه تغيّر منذ عمله في شركة الإنشاءات الجديدة دائما يتحجج بانشغاله في المشروعات، وضرورة أن يثبت نفسه، ولكنّها متأكدة أنّ هناك شيئًا تغير بينهما، ما كانت تمنعه مسئولياته سابقًا عن الحديث معها هاتفيًا وزيارتها في المنزل والتحايل على والدتها كثيرًا كي تسمح له بالخروج معها. طوال الفترة الماضية كان يقول لها إنّه يمنحها فرصة للمذاكرة حتى تحقق حلمها وحلم والدتها، لهذا لم يزرْها منذ شهرين، فقط يهاتفها دقائق معدودة. إنه ليس «محسن» الذي أحبته، ليس خطيبها الذي كان شوقه ينطق في كلِّ نظرة وكل همسة! لماذا تغير؟! عاد السؤال يلح عليها من جديد وبداخلها يقين أنّ في هذا الأمر سرًّا. إنّ قلبها يحدثها بشيء تخاف أن تصدقه، ولكن عليها أن تنتظر ربما تكون مخطئة، ويا ليتها تكون مخطئة..!

تمر الأيام، وكلما مرّ يوم جديد يثبت لفريدة أنّها على حق، وأنّ عّلاقتّها بزوجها علاقة على ورق، تنقصها ورقة أخيرة لتتحرر من القيود ومن زوج بلا وجود، لم يهتم بمصالحتها منذ أن طلبت منه الطلاق، لم يعد يرسل بكلماته القليلة التي كان يرسلها من قبل. لا تعرف هل هو غاضب أم أنه هو أيضا يريد أن ينهي العلاقة مثلها تماما. لم يهنئها على استلام عملها الجديد وبداية حياتها العملية. ماذا تبقى لإقناع نفسها أنّه زوجها وأنّه يغترب من أجله وأجلها؟ كلا، بل يغترب من أجل نفسه، ومن أجل مستقبله. لن تقبل أن تصبح واجهة اجتماعية ووعاء رغباته وشهواته في مصر، لن يستمر هذا الوضع أبدًا.. لن يستمر هذا الزواج.

كانت «شريفة» تلاحظ تعقد علاقة ابنتها مع زوجها، وأدركت أنّ الأمرَ يسير في طريق متعثر عندما لاحظت أنّ ابنتها خلعت خاتم الزواج ولم تعد تلبسه إطلاقا... ماذا تفعل؟ هل ستظل تشاهد من بعيد؟ الأمر غريب، وكيف يسمح وليد أنْ يصلَ خلافهما إلى هذا الحد؟! لماذا لم يحاول أن يسترضيها؟! إنّها تعرف ابنتها جيّدًا، لو كان حاول إرضاءها ببعض الكلمات الرقيقة والمشاعر الطيبة كانت سترضى.

هناك سر لا بد أنْ تعرفه! اتصلت بزوج ابنتها وبدأت معه الحوار بكل حنان ورفق، قائلة:

ـ ازيك يا وليد.. عامل إيه؟

ـ الحمد لله يا طنط.

- وليد، انتَ عارف إنّك زي ابني، وأنا حاسة كده إن العلاقة بينك وبين فريدة مش ولا بد.

ـ هي قالتلك إيه؟

ـ أنا متصلة بيك أسمع منك.

ـ أنا معنديش حاجة أقولها.. أنا هكمل هنا مستقبلي، وفي كمان حاجة يا ريت تبلغيها لفريدة، أنا مش نازل إجازة السنة دي؛ ظروف شغلي كدا.

ـ ابعتلها تعيش معاك يا وليد، هي مش هتقول لا، إنما تفضل قاعد هناك مبسوط أربعة وعشرين قيراط وهي هنا مقهورة دا ميرضيش ربنا.

ـ أنا ممكن أبعتلها تيجي تعيش معايا، لكن.....

ـ لكن إيه؟!

ـ طنط أنا بحترمك جدًّا، وهقولك الحقيقة بصراحة.. أنا اتجوزت خليجية هنا من سنتين، الحقيقة هي اللي ساعدتي إني أثبت نفسي هنا وأنا مقدرش أطلقها وهي معندهاش مانع إن فريدة تيجي تعيش معانا.. أنا ماعملتش حاجة حرام.. أتمنى فريدة تقبل إننا نكمل حياتنا مع بعض.

صمتت الأم وكأنّها تحاول أنْ تستوعب ما سمعت، ماذا يقول هذا الرجل؟! الأمر فاق كلَّ ما توقعت وكل ما ظنت، يلقي بالخبر ببرود منقطع النظير كأنّه يلقي نكتة! وماذا ينتظر منها؟ هل ينتظر أن تبارك له على هذا الزواج أم ماذا؟

صمتت وفي عقلها ألفُ فكرةٍ، وفي قلبها ألف ألم من صدمة غير متوقعة، كان وليد ينتظر ردها، ولما طال سكوتها قال:

ـ ألو ألو..

ـ زي ما دخلنا بالمعروف نطلع بالمعروف.

ـ يا طنط، أنا مش أول واحد يعمل كدا.. أنا كان ممكن ما أقولش وماكنتوش هتعرفوا، لكن أنا صريح وصادق.. يا ريت تفكروا بعقل.. جوازي دا كان مصلحة لكن فريدة هي الحب.

ـ خليك مع مصلحتك ونفضّها سيرة بهدوء.

أنهت الأم المكالمة وهي على يقين أنّه هو أيضًا يريد أن ينهي الأمر. جلست تفكر ماذا تفعل، وكيف تخبر ابنتها بهذه الأخبار. نزلت دموعها وصرخ بداخلها صوت غاضب يلومها، هي من أصرت على زواج ابنتها من هذا الوغد، لكن هذا هو القدر وعليها أن تقف بجوار ابنتها إلى أن تتخطى هذا الموقف العسير.

عادت فريدة من عملها، وظلّت تنادي على والدتها التي كانت تجلس في غرفتها في وجوم شديد. دخلت فريدة الغرفة ورأت الحزن على وجه والدتها. انزعجت بشدة وسألت باهتمام:

ـ مالك يا ماما.. في حاجة؟ انتِ تعبانة؟!

ـ لا أبدًا.. أنا هقوم أحضر لك الغدا حالًا.

ـ غدا إيه وعشا إيه؟ في أسرار عليّ ولا إيه؟ مين زعلك يا حبيبتي؟!

نظرت لها الأم بحزن بالغ، ثم ابتلع الصمت كلامها. هل تخبرها الآن أم تنتظر وتمهد لها أم ماذا؟!

تملك القلق من فريدة أكثر وأكثر، وأعادت السؤال من جديد:

ـ ماما في إيه؟ أنا كده مش مطمنة خالص!

ـ قوليلي يا فريدة، انتِ فعلا عايزة تتطلقي من وليد.. متأكدة إنك عايزة كده؟!

ـ أقول ولا تزعلي؟!

ـ قوليلي يا حبيبتي.. أنا تهمني سعادتك.

ـ وليد ليه كتير قوي ماكلمنيش، من آخر مرة قلت له طلقني وكأنه ما صدق.. أنا عايزة أطلّق وعندي إحساس إن هو كمان عايز كدا.. صدقيني يا ماما الجوازة دي كانت غلطة ولازم تتصلح.

صمتت الأم قليلًا، ثم قالت بهدوء:

ـ الحمد لله!

اندهشت فريدة من رد فعل أمها، وتساءلت في حيرة:

ـ أنا مش فاهمة، رغم إني مبسوطة إنك بتسمعيني بهدوء، لكن مش فاهمة!

حكت «شريفة» لابنتها تفاصيل الحوار الذي دار بينها وبين وليد. أخبرتها بالمفاجأة الصاعقة التي احتوتها المكالمة.. أخبرتها بالتفسير الصادم لعدم اهتمامه بها.

صمتت «فريدة» لم تبك، لم تنفعل، صمتت بشكل أقلق الأم، فتساءلت الأم:

ـ فريدة، انتِ كويسة؟

ما زالت صامتة؛ فعادت الأم تسأل السؤال نفسه:

ـ انتِ كويسة؟! طمنيني يا حبيبتي.

ـ كويسة يا ماما.. أنا قلت لك إن الجوازة دي غلط..!

همت فريدة بمغادرة الغرفة فاستوقفتها الأم، وأخذتها في حضنها بحنان بالغ، وقالت:

ـ اللي زي دا مايتزعلش عليه.. مايستاهلكيش يا حبيبتي وبكرة.....

قاطعتها فريدة، قائلة:

ـ بكرة لفريدة.. لنفسي يا ماما.. لازم أهتم بفريدة.

ذهبت فريدة إلى غرفتها. انهمرت دموعها ليس حزنًا على وليد. لأوّلِ مرّةٍ تتأكد أنّها لا تحبه، ولا تشعر نحوه بأيّ مشاعر. لم تغار من تلك المرأة التي تزوجها، ولم تتألم من خيانته، لكنّها تبكي على أربعِ سنوات قضتها زوجة على الورق، بينما هو يحيا حياة هانئة بين أحضان زوجة أخرى، بضمير مرتاح يعيش ويهنأ، بينما ينفعل عليها كلما تألمت له من وحدتها. يضج كلما اشتكت من رفضها أنْ تكونَ زوجة على الورق. يعيش حياة زوجية مستقرة هناك، ولا يطيق أن يستمعَ لدقائق إلى شكواها. وقفت أمام مرآتها ومسحت دموعها وتنهدت بعمق كأنّها تطرد كلَّ ضيقِ صدرِها واختناق مشاعرها، وقالت لنفسها: سأبدأ حياةً جديدة..!

تواصلت «شريفة» مع والد «وليد» وطلبت منه أنْ يأتي لزياتهم للضرورة القصوى. لم تخبره هاتفيًّا بأيّ شيء، أرادت أن يكون الحوار وجهًا لوجه..

جاء والد وليد مساءً ويبدو عليه التوتر. استقبلته «شريفة» بترحاب بالغ، وجلسا معًا في غرفة الصالون، وأخبرته بما حدث وما علمته من وليد. اندهشت «شريفة» من أنّ الأبَّ تفاجأ ويبدو أنه لم يكن يعلم شيئًا. صمت الرجل دقائق ووضع يده على جبينه وكأنّ ما سمعه شلَّ رأسه بصداع قوي، ثم قال:

ـ والله ما قادر أصدق اللي بسمعه.. متجوز من سنتين من غير ما نعرف، طب ليه يعمل كدا؟!

ـ يا حاج، أنا عايزة زي ما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف، ولا إيه رأيك؟

ـ يا ست «شريفة»، انا أجبره يطلق الست اللي اتجوزها دي.

ـ أرجوك يا حاج، اللي بينه وبين بنتي انقطع، أنا بنتي مش هتقدر تكمل معاه، ويا ريت نخلص الموضوع دلوقتي قبل بكرة.

ـ يعني مافيش أمل.. هنخسر بنت الأصول؟!

ـ ربنا يوفقه بعيد عن بنتي.

ـ أنا مكسوف منك والله، ومش عارف أقول إيه!

ـ توعدني نخلص الموضوع.

هزّ الرجل رأسه بحزن وغادر حزينًا، لقد سمع معلومات صادمة عن ابنه، لم يكن يتوقع أنّ ابنه لم يعد يقدره إلى هذا الحد.. هل ظنّ أنه ليس له كبير؟!

عاد والد وليد إلى بيته وأبلغ زوجته بما حدث، وكانت الصدمة كبيرة عليها أيضا كيف يتزوج وليد زواجًا ثانيًا في الخفاء دون أن يعرف أحد؟ وما الداعي لذلك؟! هل هذا جزاء زوجته المخلصة؟!

تواصل الوالدان مع ابنهما وكان عتابهما قاسيًا. حاول «وليد» أنْ يقنعهما أنّه يخطط لمستقبله، وأنّ زوجته الخليجيّة تساعده كثيرًا وتحبه كثيرًا. اعتذر كثيرًا على سريّةِ هذا الزواج، ولكنّه أخبرهما أنّه احتفظ بالأمر سرًّا لخوفه من غضبهما؛ لأنّه يعلم جيّدًا أنهما لن يوافقا على هذا الزواج. سأله والده باشمئزاز:

ـ وإيه بقا اللي خلاك تقول لحماتك على الموضوع؟!

ـ بصراحة مراتي عايزة أكون ليها وحدها، وخيّرتني إما أسيبها أو أسيب فريدة قلت أقول لحماتي وتيجي منهم.

ـ اسمع يا ولد، انتَ تطلق فريدة وتديها كل حقوقها، وإلا لا تبقي ابني ولا أعرفك.

ـ يا بابا مش هي اللي عايزة تتطلق؟!

ـ انتَ يا ابني طالع لمين؟! والله إن ما نفذت اللي بقوله لأتبرأ منك وأغضب عليك.

ـ وعلى إيه يا حاج! حاضر.

....

استيقظت علياء على رنين هاتفها. إنّه محسن يطلبها. وما إن رأت اسمه حتى اعتدلت وردت عليه سريعا:

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير.. ألف مبروك.

- النتيجه ظهرت؟!

- الأولى على الدفعة كمان.

قفزت من سريرها، وقالت:

ـ انتَ متأكد؟!

ـ طبعا.. اعملي حسابك هنتغدا سوا النهاردا، وهعملك يوم محصلش.

ـ مش عارفة ماما هتوافق ولا لا.

ـ سيبي طنط عليّ.. هعدي عليكِ الساعة اتنين.

أنهت علياء المكالمة، وتواصلت مع والدتها التي كانت في عملها وأخبرتها بالنتيجة، لحظة سعادة رائعة شعرت بها «شريفة». لحظة تتويج لمجهودها وكفاحها طوال سنوات، لكن فرحتها كانت منقوصة؛ مشكلة فريدة ما زالت تؤرقها، ما زالت لا تصدق أن ابنتها أصبحت مطلقة دون ذنب. أصبحت مطلقة في مقتبل شبابها، لكنّها إرادة الله!

عادت «شريفة» إلى المنزل، بينما كانت علياء تتزين وتستعد للخروج مع خطيبها، قبّلت ابنتها وهنّأتها على النجاح والتفوق، وأوصتها الوصايا العشرة المكررة المعتادة في كلّ مرةٍ تخرج فيها مع خطيبها.

جاء محسن وأخذ خطيبته وخرج، بينما ظلت «شريفة» تنتظر عودة فريدة من عملها....

الفصل الثاني

عادت فريدة من العمل سعيدة ومبتهجة، وكأنّها وجدت في العمل متنفسًا جديدًا بعد سنوات مرهقة. وجدت والدتها جالسة في انتظارها. احتضنت فريدة والدتها كالعادة، بينما أخبرتها «شريفة» بتفوق علياء، وأنّها خرجت مع خطيبها احتفالا بالمناسبة. شعرت فريدة أنّ الأيام الحلوة قادمة، وبدأت تحكي لوالدتها عن سعادتها في العمل، وكيف أنّ العمل أنساها الفترة الماضية، وكل آلام تجربتها السابقة، ومنحها الفرصة لتبدأ حياة جديدة. كانت «شريفة» سعيدة جدًّا بتجاوز ابنتها المحنة سريعا، رغم أنّها ما زالت تختنق كلما تذكرت أن فريدة أصبحت مطلقة في مجتمع شرقي معقد، يحمل مسئولية الطلاق غالبًا للمرأة، لكن عليها أنْ تساعدَ فريدة أن تبدأ حياة جديدة؛ لأنّ الحياة ما هي إلا مجموعة تجارب، ننجح في بعضها ونخفق في البعض الآخر، لكن لا بد أنْ نظل نتمسك بالحياة بكل ما فيها، كل تجربة ناجحة أو فاشلة لا بد أن نستفيد منها، وتضيف لنا قدر ما تأخذ منا. هكذا تفكر «شريفة»، هكذا ترى الحياة بعين امرأة واجهت الأيام وحيدة بعد وفاة زوجها وهي ما زالت في أوج شبابها. لن تنسى أنّ زوجها توفي وكانت في العقد الثالث من عمرها، وواجهت المجتمع الذي يطارد الأرملة كأنه رقيب عليها وعلى تصرفاتها، ولكنّها استطاعت أن تدير دفة حياتها إلى بر الأمان رغم كل الظروف. لن تنسى يوم أنْ جاءها عم بناتها بعد عام من وفاة زوجها يطلب منها الزواج؛ لأنّه يريد أن يحميها من الناس، يريد أن تتربى البنات في حضنه، لكنّه لم يكن يريد ذلك حقًا، بل كان يريد أن يفوز بثروة أخيه، كانت تدرك جيّدًا ما في قلوب من حولها كما كان يدركه زوجها؛ لقد كان يعلم زوجها «عبد الرحمن» طمع الجميع في ماله بمجرد علمه أنه يعاني من مرض القلب كتب كل ما يملك باسم بناته وزوجته، كأنّه كان يقرأ في صفحات المستقبل، وعلم أنّ عمره قصير، ورحلته في الدنيا عابرة. ظل عم البنات يطاردها عامًا كاملًا، ولكنّها أغلقت كل الأبواب أمامه، ليس أمامه وحده، بل أمام جميع الرجال. قررت أن تهب كل أيامها لبنتيها، لن يدخل حياتها أي رجل، وكيف تستأمنه على جوهرتيها؟! قررت أن تحارب وحيدة وتنسى أنها امرأة، لن تتذكر إلا أنها أم....

مضت الأعوام وما زال أمامها الكثير لتسعد ابنتيها، نهر حنانها سيظل يتدفق إلى أن تنتهي بها رحلة الأيام

....

جلست علياء مع محسن خطيبها في أحد المطاعم الشهيرة لتناول الغداء.. السعادة كانت تنطق في عينيها بهذا الاهتمام البالغ منه، وتلك الهدية الذهبية التي قدمها لها احتفالا بالمناسبة، ولامت نفسها في صمت؛ كيف تشك في حبِّه لمجرد فترة وجيزة انشغل عنها بعمله؟ يبدو أنّها تغار غيرة عمياء وعليها أن تغير هذا الأمر سريعًا قبل أن يصبح تعاسة بعد الزواج. اعتذر محسن كثيرًا عن انشغاله. أخبرها أنّه في مشكلات ضخمة في العمل أدت به إلى ترك العمل منذ يومين، لكنّه لم يكن يريد أنْ يخبرها بذلك حتى لا تنشغل بمشاكل عمله عن دراستها. ما أخبرها به جعلها تزيد اللوم والعتاب لنفسها كيف يحبها إلى هذا الحد ويخاف على مستقبلها إلى هذا الحد وهي تفكر بغيرة أنثوية ساذجة... أنه لا ينشغل عنها إلا بامرأة، يا لها من مراهقة عليها أن تنضج في تفكيرها ومشاعرها. ما زال ينقصها كثيرًا من الهدوء والحكمة، حاولت أن تخفف عنه بكلمات تشجيع، وأنّه قريبا سيجد العمل المناسب، ولكن كان يبدو عليه أنّه سعيد جدًّا بترك هذه الشركة. لم يخبرها بتفاصيل عمله التي لن تفهمها، ولكن ما علمته أنّ استمراره في هذه الشركة كان صعبًا للغاية ولن يعود عليه إلا بالمتاعب. انتهى وقت الغداء وانطلقا للتجول في أحد المولات الكبرى، واختار محسن لعلياء فستانًا على ذوقه الخاص، وأنهى محسن اليوم بجلسة هادئة في أحد الكافيهات المطلة على النيل. كانت علياء سعيدة سعادة بالغة بكل هذا الاهتمام، وسرحت بخيالها دقائق في يوم تترقبه وتحلم به يوم أن تصبح زوجة محسن. انتبهت إلى محسن وهو يسألها:

- إيه.. سرحانه في إيه؟

ابتسمت وقالت بخجل:

- لا مفيش.. الجو حلو قوي.

- عايز اتفق مع طنط بقا على ميعاد الفرح.. بس خايف موضوع الشغل يخليها تقلق.. احنا شقتنا تقريبا جاهزة.. إيه رأيك؟

ابتسمت وقبل أن ترد انتبهت إلى رنين هاتفه على الطاولة. التفتت إلى الهاتف، كان المتصل «صافيناز»..! أخذ محسن الموبايل سريعًا، وبدا عليه الارتباك الشديد، لم يرد بل أغلق الهاتف في توتر. كانت علياء تراقب في صمت، ثم سألت في هدوء:

ـ ليه ماردتش؟ مش دي صاحبة الشركة اللي سيبتها ولا إيه؟

وضع يده على جبينه وكأنّه يفكر في الإجابة، ثم قال:

ـ آه.. بس مش هرد.. أنا سبت الشغل ومفيش داعي أرد، مالهاش حاجة عندي.

شيء ما في حديثه عن تلك المرأة أثار قلقها، وأيقظ الشك في قلبها. صمتت ولكنّها كانت تريد فَهْمَ كل هذا الارتباك؟ هل هناك شيء بينه وبينها؟! ارتباكه وتوتره، وعيناه الزائغتين، أصابعه التي تطرق على الطاولة تنم عن أسرار كثيرة. صمتت رغم أنّها تريد أنْ تعرف، ولكنّها خائفة أنْ تعرف. لو لم يكن هناك ما يضايقها ما كان ارتبك بهذا الشكل..! لم تصمت وحدها، بل صمت هو أيضًا وما زال يدور ببصره بنظرات زائغة بعيدًا عنها، كأنّه يخاف أن يصطدم بسؤال عينيها، وفجأة صوب نظراته في اتجاه واحد، لم تعد نظراته زائغة، نظرت إلى حيث ينظر.. إنّه ينظر بذهول صوب امرأة يبدو أنها تتحرك في اتجاهه.. عيناها عليه كما أنّ عينيه عليها. امرأة جميلة طويلة القامة، ممشوقة القوام، تتحرك في خطى واثقة، وتتمايل في دلال جعل الكثيرين يفترسونها بنظراتهم، وكأنّها نجمة على «الريد كاربت». تتحرك والعيون تتابع خطواتها، وتتأمل جسدها العاري. لقد كانت ترتدي فستانًا بنفسجيّ اللون يظهر أكثر ما يخفي، وشعرها الأشقر الطويل ينساب على ظهرها وخصلات منه تداعب صدرها المكشوف. ما زالت كل العيون تلاحقها إلى أنْ وصلت إلى محسن ومالت نحوه كي تحدثه، وشفتاها تكاد تلامس خده، وقالت بصوت مسموع:

ـ مش معقول اتصل بيك وانت ماتردش.. هو لازم آجي لغاية عندك؟!

ـ في إيه حضرتك؟! أنا سِبت الشغل..!

ـ انت قدمت استقالة وأنا رفضتها، وبعدين إيه حضرتك.. انت مش بتقولي صافي؟!

اندهشت «علياء» من طريقة الحوار وما يقال. اندهشت لأنّ إحساسها كان صادقًا. لم تكن تظن أو تتوهم حينما كانت تشك أنّ هناك أخرى في حياته.. بينما «صافيناز» ترمقها بنظرات خبيثة، وقالت:

ـ مش تعرفني يا محسن مين الآنسة؟

صمت محسن وأخذ يمسح عرقه، فسارعت «صافيناز» قائلة:

ـ طيب عرفها عليّ يا محسن.

فصاحت علياء في اشمئزاز بالغ وهي تمسك بحقيبة يدها وهاتفها وتستعد للمغادرة:

ـ مش عايزة أتعرف على حد!

هرولت مغادرة، وهمّ محسن أن يتبعها فأمسكت «صافيناز» يده بقوة، وقالت:

ـ اقعد.. انت سايبني أنا عشان دي؟!

جلست على المقعد الذي أمامه حيث كانت تجلس علياء، جلست تراقبه بنظرات واثقة، تتأمل ارتباكه بابتسامة ساخرة ماكرة، بينما هو يخفض بصره ولا ينطق ،مرت دقائق صامتة، ثم قال:

- صافي، أنا مش قادر أكمل في علاقتنا.

ـ يعني إيه؟! انتَ ناسي إننا متجوزين؟!

- عرفي.

- أنا اللي كنت عايزة عرفي، ودلوقتي أنا هخليه رسمي.

- أنا مش عايز.. احناماننفعش لبعض.

-إيه؟! أنا اللي أقول إيه ينفع وإيهماينفعش.. مش بمزاجك، وإلا أقسم بالله انت عارف أنا أقدر أعمل

إيه؟

ـ يعني إيه.. دا تهديد؟!

ـ آه.. بكرة أشوفك في الشركة.

....

عادت «علياء» إلى منزلها. لاحظت والدتها أنها حزينة شاردة، فسألتها باهتمام عن حالها، فارتمت علياء في حضن والدتها وانهمرت دموعها مما أزعج «شريفة» بشكل بالغ. حاولت الأم تهدئة ابنتها كي تفهم ما هي المشكلة، وعرفت شريفة أنّ هناك أخرى في حياة محسن.

استطاعت «شريفة» أن تهدأ ابنتها، ولكن بداخلها غليان مما يحدث، هي لم تتعافَ بعد مما فعله «وليد» كي تصدم بما فعله محسن. هل هذا الزمان بلا مشاعر بلا أحاسيس، هل يخون «محسن» «علياء» في فترة الخطوبة.. فماذا سيفعل إذن بعد الزواج؟! وإذا كان على علاقة بتلك السيدة لماذا يستمر في علاقته مع ابنتها؟!

أسئلة كثيرة لن يجيبها إلا هو....

جلست شريفة في صمت ووجوم. لم تهنأ بعد بنجاح علياء.. ها هي الصدمات تتوالى واحدة تلو الأخرى ولا تملك إلا الصبر..!

لم تمضِ ساعتان حتى جاء «محسن». جلس أمام «شريفة» وأخبرها أنّه يريد أن يوضح كلّ شيء لعلياء. أقبلت «علياء» وجلست بجوار والدتها، وقالت بانفعال:

ـ أنا مش عايزة أعرف حاجة.. اللي بينا انتهى.

ـ بس أنا بحبك.

ـ وصافيناز هانم دي إيه؟!

ـ لعنة، زي ما انتِ شفتيها، ست غريبة ملفتة للانتباه، فعلا انبهرت بيها وكان واضح إنها هي كمان معجبة بيا، بدأت تكلفني بشغل كتير وأنا كنت سعيد بكدا وعايز أثبتلها إني أحسن مهندس عندها.. ليها طريقة كده معرفش ازاي خدتني لسكة مش بتاعتي.. فهمتني إنّها بتحبني وفجأة لقيتني متجوزها عرفي..!

استمعت «علياء» ووالدتها إلى هذا الخبر الصاعق باندهاش بالغ وصدمة حبست أنفاسهما. الأمر ليس مجرد علاقة عابرة، أو امرأة تطارد رجل، بل زواج!

فصاحت «علياء» وهي تقذف خاتم الخطوبة في وجهه:

ـ اطلع بره.. مش عايزة أسمع حاجة تاني.

ـ لا.. أرجوكِ اسمعيني.. والله مابحبهاش، بس هي مضتني على شيكات بملايين مش عارف ازاي! أنا فعلا مش عارف امتى مضيت الشيكات دي وبتهددني بيها بس أنا مش طايق أشوفها والله.

ـ انت مابتحبهاش بس حبيت فلوسها.. انت عارف انت بتعمل إيه كويس، ويا ريت تبطل تمثيل، روح لصافي بتاعتك، انتم لايقين على بعض جدًّا.

دخلت «علياء» غرفتها، وجلس «محسن» صامتًا، و«شريفة» تنظر له باحتقار، ثم قالت بهدوء:

ـ متهيألي مافيش حاجة تتقال، خد شبكتك وما أشوفش وشك تاني.

غادر «محسن» وما بينه وبين «علياء» أصبح في لحظة ماضيًا وذكرى..! عاد إلى منزله، وجلس في غرفته حزينًا يستعيد حكايته مع صافيناز؛ لا يدري حقًّا كيف انجرف في تيار إغرائها دون إرادة.. كيف أصبح ريشة في مهب إعصار أنوثتها الطاغية. سأل نفسه بكلِّ صراحة: ما الذي جذبه إلى صافيناز؟ هل الجمال أم المال؟

ما زال لا يعلم حقًّا الإجابة، كل مَنْ في الشركة يتمنى أنْ تعجبَ به. أن يتسلل إلى قلبها، ولكنّها اختارته هو فقط، حينما رأى في نظراتها دعوة للعشق لم يستطع أن يقاوم. حينما أخبرته أنّها تحبه لم يصدق أنّ تلك المرأة التي يتمناها كبار رجال الأعمال تحبه هو. انبهر بها ولم يسأل نفسه ما هي حقيقة مشاعره

نحوها. بدا أمامها كأنّه مسلوب الإرادة، أصبحت تقوده وتحركه كيفما تشاء كأنه طفل صغير. حينما اقترحت أنْ يتزوجها عرفيًّا لحين التأكد من حقيقة مشاعرها نحوه لم يرفض، وكيف يرفض هذا الجمال والجسد الفائض الأنوثة؟! كيف يرفض الجاه والنفوذ؟! وكيف يرفض ملايين تتحرك أمامه على قدمين؟!

تزوجها وهو لا يعلم كيف سينتهي الأمر أو ماذا سيحدث بعد ذلك، تزوجها ولكن بعد وقت قصير شعر أنّه مع امرأة لا تناسبه.. لا هي من طبقته ولا هو من طبقتها. ما يراه لا يصح ولا يليق تراه عاديًّا وطبيعيًّا في الأوساط الراقية، وفي مجتمع الأثرياء الذي عليه أن يرتقي ليصبح منهم. يراها تراقص هذا وتقبل هذا في سهرات وحفلات كثيرة اعتادت أن تقيمها في قصرها بمناسبة وبدون مناسبة ولا يحق له الاعتراض. عندها اشتاق لـ «علياء» وعاد يهتم بها من جديد، وأدرك أنّها هي الزوجة التي تناسبه. قرر أن يترك الشركة ويهرب بعيدًا عن «صافيناز». لم يكن يتوقع أنّها ستسعى إليه. كانت تعامله بجفاء حينما بدأ يعترض على الكثير من الأشياء في حياتها. ظن أنّها ترغب مثله في إنهاء هذه العلاقة، ولكن الأيام أظهرت له حقيقة أخرى.. إنها لن تتركه الآن، ليس عشقًا له، ولكن لأنّها لا بد أن تختار هي توقيت إنهاء العلاقة...

يبدو أنّ طريق الآلام يبدأ بخطيئة واحدة، ثم تتوالى الخطايا..!

الفصل الثالث

عانت «علياء» من صدمتها وجرح قلبها. كانت تجلس أغلب وقتها منفردة في غرفتها. اصطدمت مشاعرها الصادقة بسطوة المال ونفوذه، وجشع حبيبها وخسته؛ فتبخّر الصدق، وانهار الحب، وأصبح كل شيء مزيّفًا. كل شيء سلعة تباع وتشترى.. إنّ الحبَّ ـ بالنسبة لمحسن ـ سلعة تجاريّة، وصفقة مالية. اختار «صافيناز» ذات المال والسلطة. صدمتها فيه كانت قوية؛ لأنّها كانت تحبه وكانت تظن أنّه يحبها، لكن ما في قلبه لها سقط أمام أول اختبار. مرت أيام وهي حزينة على قلبها الذي غدر به دون أدنى ذنب، إلا أنّها أحبته.. أحبته وكان حبُّها له هو الذنب العظيم، والخطيئة الكبرى؛ لأنّها لم تحب من يستحق ووجب عليها أن تتوب عن هذا الذنب. لا بد أنْ تنساه، فهو لا يستحق لحظة ألم واحدة، لا يستحق دموع الندم المجهدة. فلتفتح كلُّ أبواب قلبها للنسيان وستنسى، ما فعله كافٍ أن ينسيها كلَّ شيء بسرعة، على قدر ما كانت طعنة الغدر مؤلمة إلا أنّها شافية، ستشفى من هذا الداء، سيعودُ قلبُها كما كان. قررت أنْ تبدأ حياةً جديدةً، واستقرت على أنّ عملها في الجامعة سيساعدها أن تنسى. بالفعل بدأت رحلة العمل، انشغلت بعملها وانضمامها كأصغر عضو في أعضاء هيئة التدريس. الحلم الذي سعت له طويلًا يستحق أنْ تواصل السعي، وتكمل مشوار الدراسات العليا. رحلة تفوق ستمحو انكسار مشاعرها، وتضمّد جراح حب ضائع.

....

لم تكن «شريفة» تستوعب ماذا يحدث، لماذا يتعثر الحب مع ابنتيها؟!

أين المشكلة؟؟ إنْ كانت أخطأت في اختيار «وليد» لفريدة وقبولها أن يحيا الزوج في وطن والزوجة في وطن إلى أن يصبح كلٌّ منهما غريب عن الآخر. أين الخطأ في علاقة «علياء» و«محسن». لقد جاء يخطبها وهو يقسم أنّه يحبُّها منذ أنْ كانت في الثانوية العامة وهو يراها تمر يوميًّا إلى مدرستها أمام

سكنه بجوار المدرسة. جاء معجبًا ومحبًّا، وكان الحب يظلهما في فترة الخطوبة إلى أنْ انتقل إلى العمل في تلك الشركة وحدث ما حدث.

أين حبه لعلياء؟

هل هكذا يسقط الحب أمام إغراء المال؟

عادت «شريفة» بذاكرتها إلى الوراء سنوات طويلة أيام أنْ كانت هي مراهقة في الثانوية العامة، وكان جارهم «عادل محجوب» في كلية الطب، هذا الشاب الوسيم الذي كان يتسمر يوميًّا أمام شقته أو في شرفته لكي يراها في موعد الذهاب والإياب إلى المدرسة الثانوية، وعندما أنهى دراسته جاء لخطبتها ولكن والدها رفض؛ لأنّه لا يراه الزوج المناسب لابنته. تذكرت كيف بكت وكيف سألت والدتها في خجل عن أسباب الرفض، وكانت الإجابة أنّ هناك عريسًا آخر ابن صديق والدها «عبد الرحمن الصاوي». إنّه شاب رائع وثري ويعمل صحفيًّا، وله مستقبل كبير. لم تستطع «شريفة» أنْ تعترض. لم تعارض والدها، وافقت على الزواج من عبد الرحمن رغم أنّها كانت تتمنى الزواج من عادل محجوب، حينما التحقت بالجامعة جاءها عادل خصيصا في كليّتها حاول أنْ يقنعها أنْ ترفض الزواج من غيره، ولكنّها كانت أضعف من أن تتخذ هذا الموقف، حتى بعد خطبتها حاول أن يقنع والدها مرات، ولكن لا فائدة. تزوجت عبد الرحمن بعد العام الأول في كليه التربية، واختفى عادل من أيامها وتزوّج كما سمعت من والدتها، ولكنّه ظهر مرة أخرى بعد وفاة «عبد الرحمن». حاول أن يخترق حياتها من جديد، ولكنّها لم تسمح له بذلك طلب منها أن تكون زوجة ثانية في حياته، وحبيبته الأولى والأخيرة، ولكنّها أخبرته أنّها ستكون أمًّا لابنتيها فقط.

ابتعد ولا تعلم عنه شيئًا، تذكرته الآن.. تذكرت كيف كان الحب في الماضي وكيف أصبح الحب الآن.
هل أصبح الحب في هذا العصر كالوجباتِ السريعة؟! هل هذا حب؟!

ماذا حدث للناس.. ألا يوجد حب في هذا العصر؟!

المادة طغت على كلِّ المشاعر، وأصبحنا كالآلات بلا قلوب ولا مشاعر...

ما أغربَ هذه الأيامَ!

....

اندمجت فريدة في العمل بشكل كبير، إنّها سعيدة بعملها (محاسبة) في بنك كبير، أصبح وقتها كله للعمل، لا وقت للتفكير في الماضي، ليس فيه ما يستحق أن تحزنَ من أجله إلا سنوات غالية ضاعت هباء، ولا يمكن أن تهدر سنوات أخرى حزنًا على ما مضى.

لنا في هذا العالم حياة واحدة، وعلينا أن نتخطى الآلام مهما كانت وننظر للمستقبل. لم تخبر أيَّ أحدٍ أنّها مطلقة، كانت سعيدة بأن الجميع يراها فتاة صغيرة، رنين كلمة أنسة في أذنيها يبث السعادة في روحها المرهقة، هي حقًّا لم تتزوج إلا أشهر من بين أربع سنوات زواج. كانت زوجة على الورق، لا يمكن أن يسمى ما كان بينهما زواج، لم تكن إلا علاقة ورقيّة بدأ بورقة وانتهى بورقة، وبين البداية والنهاية رسائل هاتفية، لو كنا في زمن آخر، كان ما بينهما سيتلخص في خطابات. حقًّا إنّه زواج على الورق، فلن تؤرق نفسها بهذا الماضي السخيف من جديد، لقد مزقت هذه الأوراق المؤلمة من كتاب أيامها، وبدأت عمرًا جديدًا. بدأت تتعرف على زميلات وزملاء جدد، حياة جديدة وأيام مليئة بصخب المسئولية العملية. توطدت العلاقة بينها وبين إحدى الزميلات، إنّها «ندى هاشم» فتاة تكبرها بعامين، رفيقتها في نفس المكتب وتقريبا هما معًا كلَّ يوم طوال ساعات العمل ... كانت «ندى» تختلف كثيرًا عن فريدة في الطباع والتفكير ورغم الاختلاف قامت الصداقة، ربما هذا الاختلاف شجع فريدة على التقرب منها، لترى معها الدنيا من منظور آخر. إنّ «ندى» هي الجميلة التي تعرف كيف تظهر جمالها باختيار ما يناسبها في لبسها ومكياجها وشعرها، دائمًا تجدد جمالها بالطلة الجديدة المختلفة بين الحين والآخر، ولكنها دائما تعرف كيف تختار الطلة المناسبة، فتبدو متألقة كنجمات السينما. تحب التزين بعدسات العين اللاصقة رغم أنّ عيونها السوداء جميلة، ولكنّها تؤمن بالتغيير والتجدد. تهتم بأحدث صيحات الشعر وتحب تغيير لون شعرها رغم أنّ لونه الأسود مناسب لبشرتها الخمرية، ما تحافظ عليه دون تغيير، هو وزنها.. دائما رشيقة القوام، تعلن حالة الطوارئ حينما يزداد وزنها بضعة جرامات، هي جريئة بدون ابتذال، متحدثة دون إسفاف، منفتحة دون إخلال، قوية الشخصية، تدافع عن أفكارها وقناعاتها، صاحبة موقف، ومن أغرب مواقفها أنّها لا ترغب في العمل مع والدها في شركته، وقررت أن تعمل بعيدًا عنه بحجة إثبات الذات، والنجاح بعيدًا عن شركة والدها. كل هذا دفع فريدة إلى التقرب منها. تبدو لها «ندى» شخصية مختلفة جذابة مبهرة. إنّ «ندى» تؤمن بالصداقة بين الشاب والفتاة، تؤمن بحرية المرأة، تكره التقاليد العتيقة التي يقدسها الناس. لقد فتحت «ندى» قلبها لفريدة وأخبرتها بأسرارها، وأهمها أنّها تحب؛ لقد صرّحت لها بأهم أسرارها بحبها لـ»يحيى طاهر سيف

الدين»، أخبرتها أنّه ابن صديق والدها، يكبرها بخمس سنوات، تحبه منذ أن كبرت وأدركت أنّ هناك شيئًا يسمى الحب. حكت عنه، وصفت لها وسامته وأناقته وشخصيته. أخبرتها أنّه رجلٌ تتمنّاه كلُّ فتاة، وأجمل ما فيه أنّه مجنون وغير متوقع.. نعم هكذا وصفته. درس التجارة ويعمل في شركة والده، ولكنّه رسام وأقام معرضًا بالفعل، وكان ناجحًا جدًّا، وباع كل اللوحات، وفوق هذا يعزف الموسيقى. حكت عنه كثيرًا لـ»فريدة»، والأغرب أنّ «ندى» باحت ليحيي بحبها له، ترى أنّ من حقها تماما أن تصرح بمشاعرها لمن تحب، لماذا تقضي عمرها منتظرة أنْ يبوح لها هو أولا؟ ترفض هذه التقاليد البالية التي تحرم الفتاة من أبسط حقوقها، لم توافقها فريدة على هذا الرأي، لقد علمتها «شريفة» أنّ جمالَ المرأة في خجلها، وأنّ الرجل هو من يصرح بمشاعره، ويلهث خلف من يحبها طويلا لينال نظرة واحدة. علمتها أنّ العيبَ كل العيب أنْ تبوحَ الفتاةُ بحبّها. أثارت مغامرة «ندى» فضول «فريدة»، لتعرف ماذا كان رد فعل يحيى، هل بادلها الحب. هنا ارتسمت خيبة الأمل على وجه ندى، وقالت إنّه أخبرها أنّ لها مكانة خاصة في قلبه.. ربما أخت.. ربما صديقة، فشعرت «فريدة» أنّ والدتها هي صاحبة الفلسفة الصائبة والحكمة البالغة، فحذرت فريدة صديقتها ألا تتمادى في هذا الحب أكثر من ذلك، ولكن «ندى» ما زالت مصرة على أنه يحبها، ولكنّه لا يدرك ذلك. يضع مسميات واهية لمشاعره؛ لأنّه لا يريد أن يتزوج.. يريد أنْ يبقى حرًّا في حياته وفي مشاعره! إنّه مجنون؛ يخشى الحب، لكن لا بد أنّه يحبها، يخبرها بتفاصيل حياته اليومية، يقص لها كلَّ مشاكله، لا ينام إلا بعد أن يحكي معها ما يزيد عن ساعة كلَّ ليلة. ينفجر غضبًا إذا طلبها هاتفيًّا ولم ترد، إن لم يكن هذا هو الحب فماذا يكون الحب؟! إنّه يخاف من الحب، ولكن.. سيعترف يومًا بالحب الذي ينكره. الحب نور لا يمكن إخفاؤه. كانت «فريدة» تسمع حكايات ندى عن يحيى وتتساءل في أعماقها: ما هو الحب؟ إنّها لا تعرفه، لم تصادف الحب، ولكن يبدو أنّ الحِيرَة هي السمة الغالبة في أيامه ولياليه.

حذرت «فريدة» صديقتها من هذا الحب؛ خوفًا عليها من صدمة مؤلمة، ولكن صديقتها أصبحت تنساق وراء مشاعرها وحديث قلبها؛ أنّ يحيى يحبها وينكر ذلك.. إنّها تبدو في هذا الأمر كالفيلسوف الذي أسّس نظرية فلسفية جديدة ويقضي عمر بأكمله لإثبات صحة فلسفته، ويا لها من فلسفة غريبة..!

....

تمضي الأيام على «محسن» ثقيلة ومملة بعد زواجه من «صافيناز» في حفل فخم. شعر أنّه وقع في فخٍّ كبير، رغم أنه أصبح نائبَها في الشركة ويعيش في قصرها الفاخر حياة مرفّهة، لم يحلم بها قطُّ، إلا أنّه يفتقد السعادة.. أيُّ سعادة تلك وهي الآمر الناهي في كلِّ شيء! لا تأخذ رأيه في شيء، كلما تضايق من تصرفاتها تذكره بما قدمت له، وكيف أنّه دخل عالم الأثرياء وأصبح بينهم بفضل زواجه منها.

مع مرور الأيام، لم يعد يعترض على شيء أو ينتقد شيئًا، فلا داعي لذلك؛ فلن يجلب له إلا تعاسة فوق تعاسته. في هذا القصر فقد إحساسه بنفسه، فقد شعوره بأنّه رجل صاحب هيبة وكلمة، ولكن من يلوم؟! لا يستطيع أن يلوم إلا نفسه؛ هو من اختار هذا.. هو من ضحى بالحبيبة ليلقي نفسه بين أحضان الجمال والمال. بدأت علاقته بها شهوة وغريزة وانبهار، ولا يستطيع أن ينكر طمعه وطموحه أيضًا إلى أنْ أوصله ذلك إلى قمه الإذلال والمهانة، ما زالت تحتفظ بالأوراق التي تهدده بها كلّما اعترض أو تحدث. ما زال يتنفس بإذنها؛ لأنّ مستقبله بين أصابع يدها، في لحظة واحدة يمكن أنْ تسجنَه وتدمره، لا يعرف كيف يتخلص منها، يتمنى يومًا تمل منه وتخرجه من حياتها، ما بينهما بضعة شهور مضت كأنها أعوام. يأخذه الحنين كثيرًا إلى أيام الحب الأول، يشتاق إلى علياء.. إلى رقتها وبساطتها، وخفة ظلِّها، إلى حبِّها الصادق، ولكنّه يعلم جيّدًا أنّه فقدها للأبد. إنّه يعلَمُ أنّ «علياء» قوية الشخصية مهما أحبّت. إنَّ الحبَّ الذي ينتقص من كرامتها تخنقه بيدها قبل أنْ يخنقها. إنّها المرحةُ، المتفائِلةُ، اللّبقةُ، المتحدّثةً، الذكيّة، الحانية، الرومانسية أيضًا، ولكن رومانسيتها تقف عند حدود كرامتها، ولا يمكن لها أنْ تتجاوز هذا الخط الأحمر. خيانته لها لا بد أنّها طمست حبًّها له إلى أن اختفت معالمه في أعماقها، وحتى لو كانت تذكره فلن تسامحه أبدًا.. لقد فقدها للأبد، لم يتبقَ له من حكايته معها إلا ذكريات في صندوق الماضي، وعليه الآن أنْ يعرفَ كيف يهرب من «صافيناز»، عليه أنْ يشغلَ باله فقط بشيء واحد؛ أنْ يتخلّص منها.. لا تعنيه الطريقة، ولكن تهمه النتيجة.

في الوقت ذاته لم تكن «صافيناز» تعلم ماذا تريد منه.. لماذا تزوجته، ما الذي جذبها له؛ ربما لأنّه لم يكن ينظر لها بعين معجبة، وربما لأنه لم يحاول أنْ يلفتَ انتباهها إلا بعمله. لم يكن يطمع إلا في مكان مرموق داخل شركتها وهي لم تعتد ذلك. الجميع يطمع في أنْ يعبر أسوار قلبها، ربما جذبها خجله. نموذج لم تعتد عليه في وسطها، اعتادت الجرأة ممن حولها. أزواجها السابقون كانوا يفعلون كلَّ شيء ليبهرونها وينالون نظرة الرضا، ولكنّه كان غيَر كلِّ من عرفتهم. أهان جمالها حين لم تنكسر كبرياؤه أمام هذا الجمال فردّتِ الإهانة بأنّها اختطفته من نفسه.. من خطيبته.. من وسطه، اختطفته ليصبح أسيرَ

جمالِها وشخصيّتها. ترك كلّ عالمه خلفه ليصبح جزءًا في عالمها، ولكنّها الآن لا تعلم ماذا تريد منه، لقد ملّت تلك العلاقة ولا تبقي عليها إلا لسبب واحد هو أنّه لا يريد أيضًا الاستمرار في هذه العلاقة، لم تعتد ذلك، كل أزواجها السابقين هي من تركتهم واختارت أن يخرجوا من حياتها، ولن يخرج «محسن» من حياتها إلا بقرارها وإرداتها. إنّها عنيدة وقوية، ولن تحقق له ما يريد. لقد عاهدت نفسها أنْ تذل الرجل.. أيّ رجلٍ فكلهم يستحقون الذل. ما يكون هذا المخلوق الأناني إلا حيوانًا شرسًا في صورة إنسان! لقد رأت كيف يذل والدُها والدتها. كانت تكرهه، وكان أسعد يوم في حياتها يوم أن مات.. يوم تحررت هي ووالدتها من عذابه، ما رأت فيه أبًا قطُّ. ما رأت منه حنانًا أو حبًّا، كان يكرهها.. نعم يكرهها؛ لأنّها أنثى وأنجبت والدتها أنثى أخرى فغضب كثيراً وزادت قسوته، وماتت الصغيرة كأنّها شعرت بقسوته، وفرّت من عالمه إلى رحمة الله الواسعة، وتزوج غير والدتها، ولكن لم ينجب، وتزوج مرات ومرات ولم ينجب، إلى أن مات وهي في السابعة عشرة من عمرها، وتفاجأت أنّه كتب كلَّ ما يملك باسمها وحدها. لم تسعد كثيراً؛ لم يغفر لها هذا سنواتٍ من القسوة والإهمال. اخترقت مجال العمل في سن صغيرة جدًّا لتتعلم كيف تحافظ على أموالها. واجهت الحياة وحدها وتعلمت الكثير، ولكنّها لم ترَ جديدًا من هذا المخلوق الذي يدعى (الرجل). تزوّجت مرات كثيرة، ولكنّها لم تجد في أيِّ زوج إلا صورة الرجل الأناني نفسها، جميعهم صورة مكرورة من والدها، ولكنّها أبدًا ولن تكون صورة مكررة من والدتها، لن يعيد الزمان نفسه معها أبدًا.

«محسن» كان أقلهم طمعًا، ولكنّه كان صورة مصغرة منهم. ترك كلَّ شيء ليلهث وراء أنانيته وطموحه، هو مثلهم.. الفرق الوحيد بينه وبين أزواجها السابقين أنّه ما زال لديه بقايا كرامة تثور في بعض الأحيان، وتطلب منه أنْ يتحرّرَ من قيدها. يوما ما ستتركه؛ لأنّها هي أيضا لا تحبه مثلما لا يحبها ولكن لن تترك له تلك البقايا، ستتركه يرحل وتطرده من حياتها يوم أن يصبح بلا كرامة. لن تتخلى عن قرارها، لا بد أنْ تنتقم من كلِّ الرجال؛ هم لا يستحقون رحمة أو شفقة؛ لأنّهم بلا قلوب..!

....

الفصل الرابع

بدأت «ندى» تفكر في نصائح «فريدة» لها. بدأ السؤال الصعب يحاصرها: إلى متى تنتظر أنْ يفهم مشاعره التي لا بد أن يصدقها؟ لقد نفد صبرها، ولكن.. ماذا تفعل؟ لقد صرّحت بحبها وأنكر حبَّه، وصف ما بينهما بأنه صداقة، أخوة، تفاهم، انسجام، أكثر في الوصف، ولكنّه لم يقر بالحقيقة التي يعلمها. إنّه مثلُ الكثير من الشباب يحب الحرية ويخشى قيود الزواج، لا بد أنّ هذا هو السبب الوحيد، إنّه يعشق أنْ يتنقل بين أغصان الجمال، ولكن هن في حياته نزوات. هي تعلم كلَّ هفواته وحكاياته، وتحافظ عليها. سر مدفون في قلعة حبِّها الحصين؛ لأنّها تثق أنها مجرد قصص مبتورة لن تكتمل، ليست بينهن من تخاف سحرها ولا تخشى تأثيرها عليه كلهن ليلة في ليالي الحكايات، ليست بينهن من هي حكاية عمره، لو كانت في حياته أخرى يحبها كان أخبرها؛ إنّه لا يخفي عنها أيّ شيء.. كل تفاصيل يومه يقولها لها بمنتهى الوضوح. إنّه يهرب من قفص الزوجية؛ ربما لأنّه فنان..! هكذا تسمع عن المبدعين، يخشون الارتباط؛ يظنون أنّه سيخنق فنهم ويشنق إبداعهم.. كما يقولون الفنون جنون. وما أحبت فيه إلا جنونه. جنونه الذي كاد أن يدفعها إلى الجنون لكن لا بد أن يدرك أنّ الارتباط سيزيد إبداعه ويطور فنّه، عليها أن تغيّر كلَّ مفاهيمه الخاطئة، سيعترف بحبِّه عاجلًا أو آجلًا.. أين يهرب من قلبها؟

حوارٌ طويلٌ في أعماقِها ما قطعه إلا رنين هاتفها. إنّه هو..!

ابتسمت وتساءلت: أليس هذا هو الحب؛ يفكر فيها كما تفكر فيه.. إنْ لم يكن هذا هو الحب فماذا يكون؟!

أمسكت هاتفها وردّت عليه بلهفة واضحة، قائلة:

ـ مش معقول.. كنت بفكر أكلمك!

ـ ندى، أنا مشغول في تحضير معرِض جديد بس عايز أرسم لوحة لبنت.

ـ ساهلة جدًّا.. ارسمني.

ـ انتِ بتهزري؟!

ـ بهزر ليه؟ هو أنا ما أنفعش؟!

ـ بالعكس.. انتِ قمر بس أنا عايز وش مختلف.. عيون غامضة...

امتعضت من كلامه، وصمتت، ثم قالت:

ـ وأنا أجيبلك الغموض دا منين؟!

ـ مش قصدي.. أنا بقولك يعني على فكرة.

ـ انتَ مابتفكرش غير في اللوحات أو المزيكا.. مافيش حاجة تانية بتفكر فيها؟!

ـ زي إيه؟!

ـ الحب.. الجواز.. يعني...

ـ روحي نامي يا ندى، أقولك رسم.. فن.. معرض تقوليلي جواز!

ـ إيه المشكلة يا فنان؟! بالعكس.. هتبدع أكتر لما تحب يا يحيى وتتجوز.

ـ انتِ بتفكري في الحب والجواز؟!

ـ أنا بحبك يا يحيى وهتجوزك.

ـ تاني يا ندى! أنا مش بفكر كدا خالص.

ـ طيب بتفكر في إيه؟

ـ في الفن، وللمرة المليون بقولك أنا وانتِ माننفعش زوجين.. احنا صحاب وبس.

ـ ماتكلمنيش تاني يا يحيى.

أغلقت المكالمه وبكت بحرقة، وتساءلت بحرقة: لِمَ هذا الإنكار؟!

قضت بعض الوقت غاضبة من حديثه، وإذا برنين الهاتف يعلو من جديد.. إنّه هو ابتسمت وأمسكت هاتفها من جديد، كادت أن ترد؛ إنّها تشتاق إلى أن تسمعَ اعتذاره وربما اعترافه، ولكن هذه ليست المرة الأولى؛ لقد تكرر الخطأ وتكرر الاعتذار ولم يأتِ الاعتراف!

لن ترد هذه المرة.. لا بد من موقف.. لا بد أنْ تبعد عنه قليلا كي يعرف أنّها ليست صديقة ولا أختًا، نعم هذا هو الحل الوحيد؛ أنْ تبعدَ عنه بعض الوقت ليدرك حقيقة مشاعره نحوها.. ليدرك أنّها الحبيبة. لن ترد الآن ولا غدًا ولا بعد غدٍ.. ستبتعد أيامًا طويلة لعلّه يرى ما لا يريد أن يراه، ليعرف أنّها الحياة.. ليعرف قلبه أنها حبُّه الوحيد.

في اليوم التالي، ذهبت «ندى» إلى عملها.. كان يبدو على وجهها الجميل الضيق والسهر والحيرة، وما إن سألتها «فريدة» عمّا يضايقها حتى أخبرتها بما حدث بينها وبين يحيى، فقالت فريدة بعطف شديد:

ـ خايفة أقولك الحقيقة تزعلي! يحيى بيقول اللي حاسه وانتِ مش عايزة تصدقي.

أثارت كلماتها غضب «ندى» فصاحت قائلة:

ـ انتِ عمرك حبيتِ؟!

ـ بصراحة لا.

ـ يبقى بتتكلمي ليه؟!

ـ خلاص هسكت.. بس أنا خايفة عليكِ.

ـ انتِ عارفة إنّه باعتلي عشرين رسالة واتس من امبارح لغاية دلوقتي؟

ـ قالك إيه؟

ـ مافتحتش الرسايل عشان يعرف إنّه جرحني.. أنا تعبت ومابقتش قادرة أتحمل طريقته دي.

ـ اعتقد أنّه بيعتذر عن الأسلوب، لكن أكيد ملحقش يغير رأيه اللي قاله بصراحة.

ـ انتِ مش فاهمة لأنك ماتعرفهوش.. دا مجنون.

ابتسمت فريدة، وقالت بسخرية:

ـ قال يعني انتِ اللي عاقلة قوي.

نظرت لها «ندى» نظرة تنم عن ضيق بالغ، ثم نظرت في أوراق العمل لتنهي جدلًا لن يصلَ بهما إلى شيء مفيد.

تفكير فريدة يختلف تمامًا عن تفكيرها؛ فريدة هادئة، حالمة، رومانسية، ولكن لم تعرف الحب بعد، ولهذا لن تتخيل جنون الحب، ولن تقتنع أبدًا بما تقول مهما استمر النقاش ولو امتد مئة عام!

انقضت ساعات العمل، واستعدت فريدة وندى للمغادرة، وفور خروجهما إلى الشارع انتبهت فريدة إلى شاب يقبل نحوهما، طويل القامة، رشيق القوام، وسيم جدًّا أنيق المظهر، كأنّه نجم سينمائي. أدركت أنّه هو «يحيى طاهر»؛ لقد رأت صورًا له مع ندى على هاتفها. تمهلت في خطواتها وهمست في أذن ندى ـ التي كانت تسير بجوارها شاردة تفكر في مشكلتها ـ أنْ تنظر أمامها إلى الشاب المقبل نحوهما. ما إن رأته ندى حتى ابتسمت وهرولت نحوه، وقالت له بعصبية طفلة صغيرة:

ـ انت جاي ليه؟!

ـ هو انتِ مش عارفة جاي ليه؟! مش عايزة تردي على التليفون ولا الواتس.. إيه حركات العيال دي؟!

ـ لو سمحت مش عايزة أشوفك.

ـ تحبي نتغدا فين؟

ـ زي ما تشوف.

ـ طيب يلا بينا.

ـ الله.. فريدة فين؟! استنى يا يحيى.

تلفتت «ندى» على صديقتها التي كانت تتابعهما من بعيد في خجل. نادتها ندى مشيرة لها أنْ تأتي لتعرّفها على يحيى. أقبلت فريدة في خطى متباطئة وخجل شديد، فقالت ندى ليحيى:

ـ صاحبتي فريدة يا يحيى.

رمقها بنظرة إعجاب فاحصة. تأمل عينيها لثواني معدودة، ومدّ يده ليسلم عليها، وقال بصوت خافت:

-أهلًا يا آنسة فريدة.

فقالت ندى:

ـ يحيى يا فريدة.

فقالت فريدة بخجل بالغ:

ـ أهلا أستاذ يحيى..

طيب بعد إذنكم أنا بقا.. باي يا ندى.

فقال يحيى:

زحمة جدًّا دلوقتي.. إيه رأيك نوصلك؟

فقالت فريدة:

ميرسي.. معايا العربية.. سلام.

انصرفت فريدة، واتجهت ندى إلى مطعم شهير مع يحيى لتناول الغداء ـ كما اتفقا ـ سألها يحيى باهتمام:

ـ مين فريدة؟

ـ صاحبتي.

ـ عمرك ما جبتِ سيرتها يعني!

ـ ماجتش فرصة.. انتَ دايمًا بتتكلم ومش بتديني فرصة أتكلم عن نفسي.

ـ للدرجة دي انا أناني؟!

ـ لا، أنا اللي بنسى معاك نفسي، وبكون أنا انتَ.

ـ هي مرتبطة؟

ـ لا.

ـ هي...

فقاطعته بضيق شديد:

ـ في إيه يا يحيى.. من ساعة ما قعدنا وانت بتسأل عن فريدة.. مالك؟!

ـ لا أبدًا، فضول بس.. خلينا في المهم.. انتِ اللي مالك.. زعلانة ليه؟!

ـ يعني مش عارف انت قلت إيه؟!

ـ ندى، والله أنا بحبك ومقدرش أستغنى عنك.. بس مش الحب اللي في بالك.. احنا قريبين من بعض من زمان بحكم صداقة أهالينا.. بحكم إن ماليش إخوات.. أنا بعتبرك أختي.. صديقتي، لكن عمري ما

تخيلت إننا نكون زوجين!

صمتت.. كلما كرر تلك الكلمات المستفزة ضاقت أنفاسها، وضاق الوجود حولها وتمنت لو قذفته بآلة حادة لعلّه يفيق من هذه الغيبوبة.. نعم إنها غيبوبة إنكار، تماسكت وأرادت أنْ تكشف له كذبه على قلبه، وسألته:

ـ يحيى، لو أنا قلت لك إن جايلي عريس، رأيك هيكون إيه؟!

- أولًا.. لازم أشوفه وأقعد معاه وأقرر إذا كان ينفع يتجوزك ولا لأ.

ـ تقرر؟!

- يا بنتي أنا أعرفك أكتر من نفسك.. مش أيّ شخصية تنفع معاكِ.. لازم إنسان متفتح.. عقلية ناضجة.

- مش تتضايق؟!

فضحك وهو يلتهم الطعام الذي أمامه باستمتاع، وقال:

ـ لو إنسان يستاهلك هكون مبسوط جدًّا.

لأوّلِ مرّةٍ تسأل ندى هذه الأسئلة. صدمتها الإجابة، وتذكّرت نصائح فريدة لها. كانت دائمًا تنظر إلى فريدة على أنّها قليلة الخبرة التي لا تعرف شيئًا في الحياة ولكن يبدو أنّها رأت ما لا تراه، وفهمت ما لا تستطيع أنْ تفهمَه. حاولت أنْ تتماسك هي أقوى من أن يرى أحد دموعها، وقالت بصوت متقطع:

ـ أنا عايزة أمشي.

ـ انتِ ما أكلتيش.. الأكل مش عاجبك؟!

ـ يلا بينا.

شعر يحيى بكم الألم الذي تخفيه، ولكن كان يقصد أنْ يكون صادمًا مؤلمًا. هي لا تصدق أنّه لا يراها حبيبة ولم يعد أمامه إلا أن يكون قاسيًا وقحًا في صدِّ مشاعرها هذا هو الحل الوحيد. أوصلها إلى بيتها

وودعها قائلا:

ندى، الجواز علاقة ممكن تكون أضعف في قوتها أو أقصر في عمرها من الأخوة والصداقة الحقيقية.

لم ترد، ولكنّها أدركت أنّه لا ينكر مشاعره، بل هي التي تنكر أنّه لا يحبها. عادت بألم فوق احتمالها، وجرح لا تعرف كيف تداويه..!

عادت إلى حجرتها مذهولة؛ كيف يجرؤ على طعنها بهذه الطريقة؟! هل لأنّها صرحت بحبها.. ربما! لم يعتاد الرجل الشرقي على هذا، لم يعتد أنْ تتّخذَ المرأة خطوة البداية، هل عندما اتخذت خطوة البداية كتبت النهاية لمشاعره نحوها؟ أم أنّه لم يشعر بها قطُّ؟ أسئلة ملحة تطيح بعقلها، ومهما كانت إجابات تلك الأسئلة النتيجة واحدة.

جُرِحَ قلبها وذبحت كبرياؤها من أجلِ رجلٍ لم يقدر أيّ شيء.

جاء يوم جديد، وما زالت «ندى» في وجع اليوم الماضي، لم تذهب إلى عملها؛ تحتاج إلى خلوة مع نفسها.. مع قلبها؛ لتنهي صفحة يحيى في أعماقها.. لا تحب أنْ يرى أحد ضعفها أو حيرتها. إنها في حاجة إلى بعض الوقت لتستجمع قوتها على مواجهة الحياة.

اتصلت فريدة بها لتطمئن عليها. حكت «ندى» لصديقتها هاتفيًّا كل ما دار بينها وبين يحيى من حديث، بكت ندى كثيرًا، فقالت فريدة:

ـ ندى حبيبتي، مش يمكن انتِ اللي مش فاهمة مشاعرك ناحيته؟ جايز تكوني انتِ كمان اتهيّألك إنك بتحبيه!

ـ لا طبعا.. أنا بحبه.

ـ انتِ محاولتيش تشوفي غيره.. كتير كلمتيني عن عرسان بيتقدمولك وبترفضيهم من غير تفكير.. لازم تشوفي مستقبلك، وحتى لو يحيى وجعك، لكن صراحته دي في مصلحتك.

ـ إيه العقل دا كله؟! ماكنتش أعرف إنك حكيمة أوي كدا!

ـ عشان متعرفيش إني مطلقة وإني عشت سنين صعبة.

ـ مش ممكن.. انتِ بتقولي إيه؟!

تفاجأت ندى بحديث فريدة، لدرجة أنها نسيت مشكلتها وانهمكت في حديث طويل مع صديقتها كي تعرف متى تزوجت ومتى تطلقت، وما الأسباب....

لم تُخفِ عنها فريدة شيئًا، بل حكت لها ليالي الوحدة، وتجربة الألم لتعلم أنّ الحياة تجارب لن تنتهي ولن تتوقف، وعليها أنْ تقلّب صفحة الماضي وترسم المستقبل بتفاؤل.

لم تكن ندى تتخيل أنّ فريدة بكلِّ هذه الرزانة، لم تكن تعرف أنّ صمتها يخفي أوجاعها، وهدوءها صبرٌ على عواصف الأقدار.

مضى أسبوع وما زالت ندى في إجازة المواجهة مع قلبها ونفسها. الغريب بالنسبة لها أنّ «يحيى» لم يحاول الاتصال بها نهائيًّا، وكأنّه يريد أن يؤكد على كلِّ كلمة قالها.

لا مفر من أنْ يفيق قلبها من سنوات الوهم، ولكن كيف ذلك في أيام؟!

كانت إجازة ندى تمر قاسية كثيرًا على فريدة؛ لقد افتقدت ندى بشدة، افتقدت روحها المرحة وشخصيتها التي تضفي بهجة على أيِّ مكان توجد فيه. سرحت قليلا في مشكلة صديقتها إلى أن انتبهت على صوت يقول:

ـ صباح الخير.

رفعت بصرها لتتفاجأ ببطل المشكلة شخصيًّا أمامها، فابتسمت ثم قالت:

ـ صباح الخير يا أستاذ يحيى.. أكيد جاي لندى.. هي للأسف مش موجودة.

ـ عارف إنّها مش موجودة.

ارتسمت الدهشة على ملامحها، لتسأل سؤالًا يدور في رأسها، لكنّها خجلت أن تسأله بصراحة فصمتت

ولم تعرف ماذا تقول. بينما هو ينظر إليها ويراقب حيرتها ويتأملها. عيناه تلاحقها لدرجة زادت خجلها وارتباكها، وساد الصمت قليلًا. لم يطِلْ يحيى الصمت أكثر من ذلك، فقال:

ـ الحقيقة أنا جاي عشان أتكلم معاكِ.

ـ معايا أنا؟!

ـ بخصوص ندى.. هي ندى ماتكلمتش معاكِ الأيام اللي فاتت؟

ـ اتكلمت.

- انتِ رأيك إيه؟

- الحكاية بينك وبينها.. انتم بس اللي تقدروا تحددوا كل تفاصيل الحكاية.

- أنا اتكلمت معاها بصراحة، لكن أنا حاسس إنّي كنت قاسيً جدًّا، ومش عارف أعمل إيه.. خايف أقرب واعتذر تفهم إني بحبها وتنسى الكلام اللي قولته.. أنا مش عايز أخسرها بس عايز العلاقة تكون واضحة.. ممكن تساعديني؟

ـ ازاي؟

ـ انتِ فاهمة موقفي ولا شايفاني ازاي؟

ـ المهم ندى هي اللي تفهم موقفك صح.. إن شاء الله كل حاجة تبقى تمام.

صمتت وعاد يرمقها بنظرات لا تبدو لها بريئة، يحاصرها بعينيه الجذابتين، وهي لا تعلم كيف تنهي المقابلة. أخذت تقلب في الأوراق الموجودة على مكتبها في رسالة مبطنة أنّها مشغولة، ولكنّه لم يعر اهتمامًا بكلِّ هذا. ما زال يحاصرها بنظراته المعجبة التي تتأملها بشغف كبير. مرت دقائق أخرى صامتة، هو أيضًا من أنهاها قائلًا:

ـ أنا آسف إني عطلتك، لكن أنا سعيد جدًّا بالدقايق اللي فاتت.. هشوفك تاني.

لم ينتظر منها إجابة، بل انصرف سريعًا وتركها في مكتبها حائرة. احتارت في جرأته.. في حديثه.. في نظراته، حقًّا إنّه شخصيّةٌ مثيرة وجذابة، ربما لم تنتبه لوسامته كثيرًا في المرة السابقة. في عينيه سحرٌ خاطفٌ وأحاديثُ كثيرة لهذا لم تنظر إليه، هربت من نظراته الجريئة طوال حديثه ولكن نظرت إليه وهو يغادر وتأملت كيف يمضي بثقة وغرور مختالًا بقامته الطويلة ووسامته... سرحت قليلًا، ثم قالت:

ـ لماذا يكتفي بالرسم؟! أظنه يمكن أن يكون ممثّلًا بارعًا يتقن أدوار فتى الشاشة!

الدقائق التي تحدث فيها معها كانت كافية لتعذر صديقتها في انبهارها به، وولعها به لدرجة أنّها ظلّت طويلًا ترفض حديثه بأنّه لا يراها إلا صديقة.

اليوم يمضي وهي تنشغل بحكاية صديقتها، ولم تقم بعملها كما يجب. عادت إلى أوراقها لتواصل عملها، عملها الذي تحبه؛ لأنّه نافذتها المشرقة على المستقبل بعد ماضٍ مرهق.

الفصل الخامس

لم تكن «علياء» تمنح نفسها وقتًا للتفكير قطُّ في الماضي؛ انشغلت بعملها وأصبح المستقبل همَّها الوحيد. كانت الأيام تمر هادئة بسيطة روتينيّة، ولكنّها قطُّ لم تكن مملة، إلى أن انكسر الهدوء بضوضاء مزعجة. صدمت علياء شابًّا بسيارتها في طريق العودة إلى المنزل، طلبت فورًا الإسعاف ونقلته إلى المستشفى، وكانت معه وهي في قلق شديد على حياته، وهرولت والدتها وأختها إليها. الشاب في غرفة العمليات، وشريفة تقرأ القرآن وتسأل الله أنْ يمرَّ الأمر بسلام، وبدأت تفكر ماذا تفعل.. هل تأتي بمحامٍ سريعًا أم تنتظر إلى أن يأتي أهل الشاب؛ ربما ينتهي الأمر وديًّا. تشاورت مع فريدة في الأمر بعيدًا عن علياء التي جلست تبكي وحدها؛ لا تتخيل أنّها قد تكون السبب في موت إنسان. جاء رجلٌ خمسيني مهرولًا يسأل عن الشاب المصاب في الحادثة. أول من رأته علياء، هرولت إليه وهي تبكي وتعتذر وتحاول طمأنته بكلمات بسيطة وهو لا يرد عليها ويرمقها بنظرات غاضبة. انتبهت شريفة إلى ابنتها علياء وهي تتحدث مع الرجل فهرولت إليهما كي تطمئنه لعلَّ الأمور تنتهي وديًّا. ما إنْ رأته ورآها حتى وقفا الاثنان في دهشة وصمت، كلٌّ منهما ينظر إلى الآخر! دقائق صامتة وعلياء وفريدة تراقبان في اندهاش.. إلى أنْ قالت فريدة:

ـ انتم تعرفوا بعض؟!

فقال الرجل:

ـ يااه.. غريبة الأيام! معقول نتقابل بعد السنين دي هنا!

ارتبكت شريفة وقالت لبنتيها:

ـ دكتور عادل كان جارنا زمان.

ثم نظرت إليه، قائلة:

ـ إنْ شاء الله ربنا يطمنك على ابنك.

جلسوا جميعا أمام غرفة العمليات للاطمئنان على الشاب. مرّ الوقت بطيئا إلى أن خرج الشاب من العمليات وطمأنهم الطبيب أنّ الحالةَ مستقرة، وكل شيء سيكون على ما يرام. طلبت شريفة أنْ تتحدث إلى الأب دقائق على انفراد. بدأت الحديث قائلة:

ـ مش عارفة أقولك إيه.. الحمد لله إن شريف بخير.

ـ الحمد لله.. معقول كل دا يحصل عشان أشوفك تاني؟! بس عارفة ماتغيرتيش خالص، وبناتك ما شاء الله ربنا يباركلك فيهم.

ـ أنا عايزة أقول حاجة بس مش عارفة يعني.

ـ اتفضلي يا شريفة.

ـ أنا تحت أمرك في أيّ تعويض بس مش عايزة الموضوع يكبر.

ـ إيه الكلام دا يا شريفة؟! دول كانوا المفروض يكونوا بناتي أنا يا شريفة.. الحمد لله ربنا ستر والحادثة عدت على خير.

ارتاح قلب شريفة واطمأنت بعد حديث الدكتور عادل، فشكرته كثيرًا على موقفه المتسامح، وأقبلت علياء تعتذر مرة أخرى بشدة، فتقبّل الدكتور عادل اعتذارها هذه المرة ونصحها أنْ تكون شديدة التركيز أثناء القيادة، ومضى بعض الوقت، ثم استعدت شريفة للمغادرة مع ابنتيها، قائلة:

ـ بكرة بإذن الله هنيجي نطمن على شريف، وإنْ شاء الله يكون بخير.

وهمت هي والبنات بالانصراف. بعد خطوات قليلة استوقفها الدكتور عادل فعادت إليه، بينما انتظرت فريدة وأختها على بعد خطوات منهما. عادت إليه وتساءلت باهتمام قائلة:

ـ خير يا دكتور؟

ـ لو ممكن رقم تليفونك؟

ـ آه.. مافيش مشكلة.

ـ أعطته رقم هاتفها وهو كذلك، تبادلا أرقام الهواتف، ثم قال لها:

ـ أنا سميته شريف عشان دايمًا يفكرني بيكِ، ولو كانت بنت كنت هسميها شريفة.

احمر وجهها خجلًا كأنّها عادت ابنة الثامنة عشرة، وتاهت الكلمات منها لثوانٍ معدودةٍ، ثم انتبهت إلى فريدة تشير لها من بعيد. أفاقت من ارتباكها، وقالت:

ـ ربنا يخليهولك ويطمنك عليه.. مع السلامة.

انصرفت «شريفة» وبناتها بعد يومٍ مرهق جدًّا. أراد الله أن ينتهي بخير... دخلت كلٌّ منهن إلى غرفتها للنوم بعد عناء يوم شاق، بينما شريفة جلست في فراشها تفكر في هذا اليوم الغريب.. أيُّ لقاءٍ هذا؟! غريب هذا اللقاء والأغرب أنّه ما زال يذكرها.. ما زال ينظر لها نظرة الإعجاب القديمة، كأنّ السنوات ما مرت قطُّ! انتفضت من فراشها ووقفت أمام مرآتها تتساءل: هل حقًّا لم أتغير؟! هكذا أخبرها.. كيف هذا؟! هي لا ترى ذلك؛ لقد عانت كثيرًا وحملت حملا ثقيلا وحدها سنوات طويلة، لا بد أنّ السنين أخذت من جمالها الكثير، ولكنّه يقول لها إنّها لم تتغيّر، أم أنه هو الذي لم يتغير؟ ما زال مجامِلًا رقيقا، بل ما زال وسيمًا، حتى الشعر الأبيض في رأسه لم يزِدْه إلا جمالًا ووقارًا. عادت بالذاكرةِ إلى الوراء، أيام أن كان يهرول خلفها ويترك محاضراته لينتظرها على باب المدرسة.. تذكرت كيف سعى للارتباط بها قبل زواجها وبعد موت زوجها، وها هي الأيام تجمعهما مرّةً أخرى، بعد أن أصبح كل منهما لديه حياة وأبناء.. إنها الحياة؛ مهما باعدت المسافات والأيام بيننا يوما ما قد نلتقي، وما أجمله من لقاء!

في صباح اليوم التالي اصطحبت شريفة ابنتها علياء للاطمئنان على شريف استقبلهما الدكتور «عادل» بترحاب شديد، وتعرّف شريف عليهما. كان يبدو متفائلًا لا يعبأ كثيرًا بما أصابه. استقبلهما بابتسامة وتسامح. اعتذرت له علياء كثيرًا فأخبرها أنّه أيضًا كان سارحًا وهو يعبر الطريق، وربما يكون خطأه أكبر

من خطئها، وبدأ عادل يحكي لابنه عن والد «شريفة» وعن أيام الماضي الجميلة. كان شريف ينصت لوالده بينما يختلس النظر إلى علياء بين الحين والآخر. قاطعت شريفة الدكتور عادل متسائلة إن كان شريف أنهى دراسته أم لا، فأخبرها شريف أنّه طبيب واختار تخصص والده نفسه وهو (الجراحة). مضى الوقت في حوار وديٍّ طيب، ثم انصرفت شريفة وابنتها، وانتبه شريف إلى اهتمام والده بالسيدة شريفة، فقال:

ـ بابا، مين بقا مدام شريفة؟

ـ ما أنا قلت لك يا ابني!

- عليّ أنا يا بابا؟ جيران إيه وبتاع إيه، إيه الحكاية؟!

- حكايه إيه يا ابني! انتَ الحادثة أثرت على دماغك ولا إيه؟!

- طاب والله في إنّ.. يا بابا دا انت عينيك مش بتنزل من عليها.

- طب بس بس، وخليك في خيبتك.. ماشي سرحان وآدي النتيجة!

- مالها النتيجة؟! دي طلعت حادثة حلوة قوي قوي.

ـ حادثة حلوة؟! مش بقولك الحادثة أثرت على دماغك!

- يا بابا، أنا ماعرفتش أتكلم خالص، وحضرتك أخدت القعدة كلها بتحكي في الماضي وأنا كنت عايز أتكلم كلمتين في المستقبل.. أهي مشيت ومعرفتش حاجة خالص عنها ومعرفش هتيجي تاني ولا لأ!

- انتَ في إيه ولا إيه! طالما بقيت زي القرد بقا نشوف الدكتور ونكمل علاج في البيت أحسن.

....

ما زالت الأيام تمضي جافة باردة، بين صافيناز ومحسن. كف عن انتقادها.. عن الجدال معها.. عن محاولة تغيير أسلوب حياتها؛ لأنها لا تحبه ولن تتغير من أجله. أصبح يعمل ويقضي أغلب وقته خارج

المنزل حتى لا يصطدم بها صدام لن يثمر عن شيء، سيبقى الوضع كما هو إلى أنْ تملَّ هي هذه العلاقة أو يستطيع أن يدفع لها مقابل إنهاء العلاقة دون أن يخشى الأوراق التي تهدده بها..!

في ليلةٍ عاد متأخّرًا ـ كما اعتاد مؤخرا ـ فوجدها ساهرة، تجلس في سكون على ملامحها حزن لم يعتده. نظر إليها جيّدًا، تبدو جفونها متورمة من البكاء... ألقى تحية المساء ولم ترد، فتساءل باهتمام:

ـ مالك يا صافي.. في حاجة حصلت؟!

ـ مفيش.

- انتِ كويسة؟!

هزت رأسها ولمعت عيناها بالدموع. صمتت قليلا، ثم قالت:

ـ أنا فكرت كويس في علاقتنا.. متهيّألي كفاية!

صمت محسن قليلا وهو يفكر ماذا حدث، ثم تساءل:

ـ عايزة الطلاق؟

-انتَ كمان عايز كدا.. مش أنا لوحدي.

-بس انتِ كنتِ رافضة!

-جوازنا عمره قصير مهما حاولنا ننكر دا.. أنا هديك الشيكات، وننهي كل حاجة.

-حتى ولو كان دا قرارك، ما أفتكرش دموعك دي كلها عشان الطلاق!

-انتَ مالك؟! أنا ما أهمكش يا محسن.. بكرة هنطلق.

-أنا غلطان إني بطمن عليكِ.. تمام يا صافي بكرة نطلق، وأنا مستقيل من الشركة.

غادر محسن القصر وهو لا يفهم لماذا قررت إنهاء العلاقة الآن.. هل لأنّه كف عن مطالبتها بإنهاء ما بينهما؟!

تساءل كثيرًا بينه وبين نفسه عن الأسباب دون أن يصل إلى جواب، لكنّه شعر أنّ «صافيناز» ليست هي التي يعرفها؛ في عينيها انكسار لم يره من قبل، وهي الشخصية القوية التي تتباهي بنفسها في كلِّ حين. في عينها الباكية يعلو صوت الأنين، هو لا يعرف ماذا حدث، لكن صافيناز بها شيء مختلف، يوما ما سيعرف وربما غدًا بعد الطلاق تخبره بما لا يعرفه، رغم فضوله أنْ يعرف ماذا أصابها، لكن لا ينكر أنّه يشعر بارتياح شديد للخروج من دوامة صافيناز.

جاءَ الموعد المحدد للطلاق وكان الطلاق في قصرها، ومنحته أوراق التهديد والسيف الذي كانت تسلطه دائمًا على رقبته، وقبل أنْ ينصرفَ طلبت أنْ تتحدث معه قليلًا. ما زالت تبدو في حالة الانكسار والضعف والحزن التي كانت عليها بالأمس.

قالت له بهدوء شديد:

ـ ليه عايز تسيب الشركة؟ لازم تفصل بين حياتك العملية والخاصة.

- متهيألي مينفعش؛ أنا عايز أبدأ حياة جديدة.. متهيألي انتِ كمان محتاجة دا.

- مافيش وقت عشان أبدأ حياة جديدة.

- مش فاهم.. مالك يا صافي انتي في مشكلة؟!

ـ هتساعدني؟

ـ وليه لأ؟!

ـ انتَ مش أخدت الورق اللي كان جابرك تعيش معايا.. هتساعدني ليه بقا؟!

- عشان كنتِ مراتي.. في بينا أيام حلوة، ولو انتِ شايفاني إنسان بشع قوي كدا أنا متأسف.

- أنا حاسة إني مش شايفة حاجة خالص، لكن لو عايز تساعدني فعلا تكمل في الشركة، في منصب نائب المدير؛ انت تستحق المكان دا، وبعدين جايز أسيب الشغل شوية أو مقدرش آجي كل يوم.. مش عارفة.

- ليه؟! أنا بجد قلقان عليكِ!

- أنا تمام.. مافيش حاجة.

ـ أوكي.

غادر محسن وما زالت في عقله أسئلة كثيرة عن صافيناز، مثلما اقتحمت حياته كأنها لغز مثير، ها هي تخرج منها أيضا بلغز مثير. مهما كان السبب وراء هذا الانفصال هو خير، صافيناز ليست الزوجة المناسبة، في وسط زحام الأفكار طلت عيون علياء، وتساءل هل يمكن أن يعود إليها، هل يمكن أن تسامحه... إنّه يعرفها جيّدًا، لا يظن أنّها تستطيع أن تنسى، وكيف تنسى والجرح ما كاد يلتئم؟! حتى وإن كانت تحبه، كبرياؤها سيمنعها. دق قلبه بحنين للحب الأول، وجمال الذكريات يهمس في أذنه لماذا لا يحاول؟!

عاد إلى منزله بأفكاره المتزاحمة، ومشاعره المضطربة، لا يعرف ماذا يفعل، هل يستمر في العمل مع صافيناز.. هل يدق على باب علياء من جديد... إنّه تائه لا يعرف ماذا عليه أن يفعل.

استسلم للنوم لعلّه يتخلص من كلِّ هذه الصراعات المحتدمة في عقله وقلبه.

استيقظ في صباح اليوم التالي وفي عقله قرار، هو أن يترك العمل نهائيًّا مع صافيناز، عليه أن يبدأ حياة جديدة، لن يسمح للماضي أن يربك الحاضر والمستقبل. البعد عن صافيناز بلا شك هو الأفضل. ذهب إلى الشركة متأخّرًا عن موعده المعتاد بساعتين. وصل إلى هناك وكلُّ من في الشركة يبدوا عليهم الارتباك والاضطراب، والجميع ينظر إليه بترقب، وفي العيون ألف سؤال. كان الأمر غامضًا بالنسبة له؛ هل أصدرت هي قرار إقالته لهذا يستغربون قدومه وينظرون إليه تلك النظرة؟ هل يمكن أن تفعل ذلك؟ ربما؛ هي دائما شخصية غير متوقعة وغير مفهومة بالنسبة له، رغم أنّها كانت زوجته، لكن ما زال هناك الكثير في شخصيتها وحياتها خفي عنه ولا يظن أنّها باحت بأسرارها لأيٍّ من أزواجها من قبله، هي لا تثق إلا في نفسها. هذه هي المعلومة الوحيدة المؤكدة التي عرفها عنها. دخل مكتبه، فأقبل عليه السكرتير الخاص به يسأله باهتمام:

ـ أخبار صافيناز هانم إيه؟ يا ترى خرجت من المستشفى والحمد لله؟

فتساءل باندهاش:

ـ أنا مش فاهم حاجة.. إيه اللي حصل؟!

-المستشار القانوني للشركة بلغنا إنّها تعبت الفجر وفي المستشفى، وإن حضرتك مكانها في كلِّ حاجة.

-إيهّ انت بتقول إيه؟!

تفاجأ محسن بشيء لم يكن يتوقعه ولم يخطر في باله. هرول إلى المستشفى الخاص التي ترقد به. كانت ترقد في فراشها في ضعف واستسلام شديد. جلس بجوارها، وقال لها في عطف شديد:

- سلامتك يا صافي.. في إيه أنا مش فاهم حاجة خالص؟!

- عندي كانسر.. هنعمل شوية تحاليل وأشعة، وكمان الضغط عالي.. تقريبا كل حاجة في جسمي متلخبطة والدكتور قال أكون في المستشفى كام يوم وبعدين يقرر هنعمل إيه وإيه خطة العلاج لو في علاج.

بدا وجه محسن شاحبًا من الصدمة واحتبست كلماته قليلًا، ثم تمالك أعصابه وقال:

-في علاج إن شاء الله، ماتخافيش يا صافي.

نظرت إليه دقائق، ثم قالت:

-مش عارفة ليه اللي يشوفك دلوقتي يقول إنّك خايف عليّ!

-قوي يا صافي، وإن شاء الله هتخفي.. انتِ تقدري تسافري وتتعالجي في أحسن مكان في العالم.

-انت مابتحبنيش.. انتَ جايز تكون بتكرهني.. خايف عليّ ليه؟!

-أكرهك؟! كلمة صعبة قوي.. طب خليني أسألك سؤال تاني: احنا اطلقنا امبارح بس.. كان المفروض إني أعرف الأزمة الكبيرة دي ازاي ماقولتيش رغم إني حاولت أعرف وأطمن عليكِ؟!

-مش عايزة أصعب على حد.

صمت قليلا، ثم قال:

- لو أنا معرفتش أحبك أنا عمري ماكرهتك، بس انتِ كمان ماشوفتنيش الزوج اللي تطمني له، أو تحبيه، وماعرفتيش تقربيني ليكي.. مش مهم إننا فشلنا كأزواج، لكن ممكن نكون أصدقاء.. أنا جمبك ومعاكِ لغاية ما تخفي وتقومي بالسلامة.

- ليه؟!

ابتسم، ثم قال:

ـ هقابل الدكتور وارجع.. صافي، انتِ قوية وهتعدي الأزمة دي.

تحدث مع الطبيب المسئول عنها، الذي أخبره أنّها تعاني من سرطان الدم. تحدّثَ محسن مع الطبيب حديثًا طويلًا. حاول أنْ يفهمَ منه كلَّ ما يمكن فعله وأفضل مستشفيات العالم التي تعالج الحالات المماثلة. عاد لها من جديد، وجلس بجوارها يطمئنها ويحدثها عن التقدم الطبي الهائل في كلّ شيء، عن المستشفى التي رشحها الطبيب كأحد أفضل المستشفيات في العالم لمعالجة حالات شبيهه بحالتها. تحدث كثيرًا عن الأمل الذي تفتقده.. عن الغد الذي لا تراه.. عن عمر قادم تراه انتهى. كانت تستمع له في صمت واندهاش.. لماذا يحاول أنْ يخفّفَ عنها الخوفَ والألمَ؟!

لماذا يبالغ في مساندتها رغم أنّه لم يعد زوجها؟!

هل لهذا الحد تبدو في حالة مزرية تستحق الشفقة والعطف؟!

سرحت قليلًا تفكر في نفسها، من معها في هذه الأزمة، هي وحدها، كل أقاربها يقاطعونها منذ أن كتبَ لها والدها كلَّ ثروته، كل معارفها لم يرتقوا إلى درجة أنْ تبوح لهم بضعفها ومرضها. لم تفكر يومًا أنْ تحتاج إلى بشر؛ ظنّتْ دائمًا أنّ قوتها فيما تملك من مال، ولكن اليوم ترى أنّ هناك ما هو أغلى وأهم من المال....

الصحة التي طالما تنعم بها لن تحتاج إلى أحد، اليوم أدركت قيمة الصحة وقيمة المخلصين في حياة أيّ إنسان. ربما يكون هذا آخر درس تتعلمه في هذه الدنيا؛ فلا تظن أنّ هناك عمرًا لتتعلم فيه دروسًا أخرى.

....

عادت «ندى» تنتظم في عملها. استقبلتها «فريدة» بترحاب شديد ودهشة أشد، إنّها تبدو مختلفة إلى درجة لافتةٍ للإنتباه لكل من يراها. غيّرت لون شعرها إلى الأشقر واختارت أنْ يكونَ أقصر عمّا قبل، ولكنّه يبدو رائعًا وملائمًا جدًّا لها، مع عدسات لاصقة خضراء تتوافق مع لون بشرتها ولون شعرها الجذاب، حتى ثيابها يبدو هناك تغيير جذري في أسلوبها في اللبس، من الملابس الكاجوال إلى الفساتين التي تبرز أنوثتها. حقًّا.. بدت أكثرَ جمالًا وجاذبية، وجهها منير، وابتسامتها مشرقة كأنّها ما كانت في أزمة قطٌّ، وسألت فريدة نفسها كيف استطاعت أن تعبر أزمتها بهذه السرعة؟

لاحظت «ندى» أنَّ صديقتها تتأمل هذا التغيير، فسألت وهي ترسم ابتسامة واثقة على شفتيها:

-إيه رأيك في النيولوك دا؟

-بجد بجد قمر!

-أنا حاسة إني ارتحت فعلًا لما غيرت في شكلي.

-والله برافو عليكِ.

-يا بنتي انتِ فاكرة إني هقعد أعيط على تجربة فاشلة ولا إيه؟! بالعكس خالص.

-بالسرعة دي نسيتيه؟!

-لسه مانسيتوش، إنما هنساه، أنا خلاص هتخطب.

نظرت إليها فريدة بدهشة شديدة، وقالت:

- ازاي يعني؟! ندى، بلاش تتسرعي.

- أولا دا مش تسرع «نادر عبد الراضي» قنصل في الخارجية واتقدملي تلات مرات وكنت برفض.

- طب وإيه اللي جد عليه عشان توافقي؟!

- اللي جد عليّ مش عليه.. ابتديت أسأل نفسي وليه لأ، شاب ليه مستقبل كبير بيحبني وإلا ماكانش حاول كل المحاولات دي.. أنا عاملة زي ما أكون عمية وفتحت.. أنا ماغيرتش شعري بس.. أنا غيرت تفكيري كمان.

- أنا رأيي إنك مستعجلة يا ندى، وممكن قرارك يكون غلط.. يا ريت تأجلي الارتباط لما تنسي اللي فات.

- الحب يتنسي بحب يا فريدة.. نفسي تبطلي سذاجة وتفهمي الدنيا ماشية ازاي.. الأيام مش هتستناكِ.. لازم تكوني مع الأيام وأحداثها بنفس سرعتها وجنونها.

- هو انتِ حبتيه يا فيلسوفة هانم؟!

- هحبه لأنّه بيحبني.

- مش عارفة أقولك إيه!

- حتى دي مش عارفاها..! تقولي مبروك.

-مبروك يا حبيبتي وربنا يسعدك.

كالعادة تبدو «ندى» غير متوقعة دائمًا في كلِّ تصرفاتِها بالنسبة لفريدة. هل كانت تحب يحيى حقًّا، أم أنها كانت تظن أنّ شعورها نحوه هو الحب؟

هل يمكن أن ينسى الإنسان حبَّ سنين في أيام؟

دارت أسئلة كثيرة في عقلها لم تعرف إجابتها؛ لأنّها لم تحب من قبل، وسألت نفسها ترى مِنْ منهما كان على صواب، هل يحيى كان على حق حينما وصف علاقتهما أنها صداقة وليست حبًّ؟

أم أنّ «ندى» قوية لدرجة أن تتجاوز أيّ أزمة بهذه السرعة؟

تساءلت كثيرًا بينها وبين نفسها ولم تصل لأيّ إجابة مقنعة، ولكن في النهاية الأهم بالنسبة لها أن تكون صديقتها بخير.

هي تحبها كثيرًا، ولا يهمها إلا أنْ تكونَ سعيدة، ولم لا تكون سعادتها في أنْ تغلق كلَّ أبواب الماضي وتفتح أبواب قلبها لتعيش حياة جديدة تملؤها بحب جديد، قد تكون السعادة قرار، وندى تبدو لها دائمًا صاحبة القرارات الجريئة، والشخصية القوية هكذا عرفتها، وما جذبها لها إلا أنّها فتاة تختلف عن غيرها في تفكيرها وقوة شخصيتها. اختلافها يمنحها الجاذبية المطلقة، ربما يكون اختلافها هو سلاحها الأقوى في مواجهة كلِّ العقبات وتقلبات الأيام. حقًّا إنّ الأيام تحتاج من يعاملها بنفس سرعتها وجنونها.. يا لها من حكمة تستحق أن تتذكرها كثيرًا..!

....

الفصل السادس

كانت «شريفة» تتواصل بين الحين والآخر مع الدكتور «عادل» للاطمئنان على «شريف». ظلّت تتواصل هاتفيًّا على مدى أسابيع إلى أن اطمئنت تمامًا أنّ شريف تعافى بشكل كامل. كان الدكتور عادل يحاول أنْ يعرفَ أكثرَ عن شريفة، بينما هي تعيد دفة الحوار إلى الحديث عن ابنه شريف ... أخبرها أنّ زوجته ماتت منذ عامين، حدّثها عن وحدته وسألها عن الوحدة، فأخبرته أنّ فريدة وعلياء هما عالمها الجميل. أيامها حافلة بمشاكلهم وحكايتهم، بينما هو أصرّ أنّها وحيدة، ولكنها تنكر. تغمض عينيها عن الحقيقة، ولكنّها يومًا ما لن تستطيع الإنكار. يوم أنْ تتزوج الجميلتان وتنشغل كلتاهما بحياتهما الخاصة، أخبرته أنّه حينما يأتي هذا اليوم ستنشغل بأحفادها ولن تعرف الوحدة إليها سبيلًا أبدًا. ما زالت تغلق أمامه كلَّ الأبواب.. ما زالت تقاوم أنْ يقترب من أيامها، وما زالت ترى أيامها ملك ابنتيها فقط، لدرجة أنّها لا تملك شيئًا لنفسها ومن تكون هي بدونهما؟! لكن لن تستطيع إنكار أنّ حديثه يعجبها، وولعه بها حتى الآن يثير دهشتها، ويرضي أنوثتها، ويهدي لقلبها باقة زهور حمراء مبهجة وسط رتابة الأيام وبرودتها ... وسألت نفسها ماذا يريد منها، هل يريد أن يتزوجها، هل يتخيل أنّها ستفكر في الزواج بعد كلِّ هذه السنين؟ ما زال قلبه يدق بنبض العشق كأنّ الزمن ما مضى قطُّ، لا تعلم إنْ كانت محظوظة بأنّها تجد كلَّ هذه المشاعر والإخلاص، أم أنّها تعيسة؛ لأنّها لم يكن لها نصيب أن تنعم بهذه المشاعر طيلة عمر كامل.

هو يبدو لها كصوتِ أمِّ كلثوم أو العندليب الذي يطل في أيامها بنغم العشق المفقود، يزين لها الدنيا الباهتة، ويضفي عليها ألوان الحياة المشرقة. هو نغم السعادة في العمر الضائع، يكفي أنْ تسمعَه على استحياءٍ دون أن تطمع في أكثر من ذلك. إنّه عهدٌ قديمٌ بينها وبين قلبِها، أنْ يبقى دائمًا وأبدًا ينبضُ بالحبِّ والعطاء لبنتيها.. ابنتيها فقط.

....

سافرت «صافيناز» إلى أمريكا بحثًا عن الجديدِ في علاجِ حالتِها. أصرَّ محسن أنْ يكونَ بجوارها.. أصرَّ أنْ يرافِقَها. أظهرَ لها اهتمامًا وحنانًا في لحظات ضعفها القاسية. لم تستطعْ أنْ ترفضَ هذا الاهتمامَ رغم أنّها لا تفهم سرَّ هذا الاهتمام المفاجئ.. أهي شفقة أم ماذا؟!

حتى لو شفقة أجبرتها وحدتها وضعفها أنْ تقبلَ هذا العطفَ دون أنْ تهتمّ أو تبحث كثيرًا عن مسماه. هي تحتاج إلى أنْ يكونَ هناك أحد إلى جوارها يطمئنها ويبعث في روحها المهزومة بعض الأمل.

عادت إلى مصر وأكملت المتابعة لحالتها هنا، وأصبحت تتابع بين أطباء هنا وهناك، ومحسن معها في العمل، معها في زيارات الأطباء، معها بين المعامل الطبية.. يكاد لا يفارقها إلا وقت النوم. بدأت تعود إلى عملها؛ لأنّه نافذة النسيان، بدأت تستجمع قواها وتفيق من صدمتها الصحية. قررت أنْ تعملَ أن تقاوم المرض، أنْ تتمسّكَ بالحياة، خاصة أنّ الأطباء في مصر والخارج كانوا يطمئنوها. في النهاية لم يعد أمامها إلا أنْ تتبع تعليمات الأطباء وتحاول أنْ تتمسّك بالحياة، وعملها هو كل حياتها، ولكن يبقى محسن بالنسبة لها اللغز المثير؛ كانت لا تعلم لماذا يفعل كل هذا معها، بينما محسن كان يعلم جيّدًا ماذا يريد..!

كان يلومُ نفسَه طويلًا ويعنّفها بقسوة؛ لماذا استجابَ لرغبتِها في الطلاق.. لماذا لم يرفض ولو من باب العناد معها؟ فأجاب على أسئلته، والتمس العذر لنفسه. كان يعرف جيّدًا لماذا استجاب لرغبتها في الطلاق سريعًا، كان يريد أن يتخلص من قيودها ومن ضعفه أمامها، ولكن الطلاق لم يكن في الوقت المناسب.. ها هي تكاد أنّ تودع الحياة، وستترك خلفها ملايين لا تعد، لقد خسر بسبب زواجه منها خطيبته علياء، والآن بعد الطلاق خسر الكثير من الأموال التي سيحظى بها لو ماتت وهي زوجته. لماذا هو الخاسر دائمًا؟

إذن متى سيربح؟ لقد خسر الحبَّ.. لماذا لا يربح المال. الحظ دائمًا يعانده ويبعده عما يريد، لكن.. ما زالت أمامه فرصة أخيرة ليقتنص الجائزة الكبرى؛ لا بد أن تراه بجوارها في كل لحظة، لا بد أنْ يكونَ سندها في عملها ومرضها، هذه اللحظة المناسبة لإيقاظ مشاعرها وأحاسيسها الخامدة تحت سيطرة عقلها، لن يجد فرصةً أفضل من ذلك ليسيطر عليها؛ ليملك مفاتيح قلبها وعقلها، عليه أنْ يصبر إلى أن تأتي إليه بنفسها لتطلب منه الزواج، ويا لها من لحظة.. هي اللحظة التي ستنقله إلى دنيا كبار رجال الأعمال، لا يظن أنّ هذا حلمًا بعيدًا؛ قريبا سينهار جسدها أمام المرض اللعين، إنّها النهاية لصافيناز وبداية الوريث.

....

لم يمض شهران على خطبة «ندى» حتى أعلنت عن حفل الزفاف، سريعًا كل شيء تم إعداده؛ لأنّ القنصلَ سيسافر لاستلام العمل في فرنسا. كانت «فريدة» على تواصل مع صديقتها التي أخذت إجازة من عملها للتفرغ للاستعداد لحفل زواجها. كانت «ندى» تحدث فريدة كثيرًا عن «نادر»، وعن شخصيته، وعن إعجابها بأفكاره، وكأنّها في حالة انبهار، ربما شعرت فريدة أنّها تحبه، ولكنّها ما زالت لا تصدق أنّ الحبَّ يأتي بهذه السرعة المذهلة. كانت فريدة تسمع حديثها بإنصات شديد واستغراب أشد.. غريب أمر قلبها وجنون مشاعرها وتقلبها من النقيض إلى النقيض. كان بداخلها سؤال يلح عليها بشدة، حاولت أنْ تقاومَه كثيرًا ولكنّها في النهاية لم تستطع أنْ تسيطر على فضولها ورغبتها في استكشاف قلب صديقتها المجنون. سألتها في إحدى المحادثات الهاتفيّة بينهما وهي في خجل شديد:

ـ انتِ بتكلمي يحيى؟

-طبعًا.

-ازاي يعني؟!

-مش عارفة يا فريدة.. أنا ما أقدرش ما أكلمش يحيى؛ احنا متربين سوا.

-آه.. أخوكِ يعني.

-والله ما عارفة.. بصي انا برتاح لما أتكلم معاه.. في نفس الوقت أنا مبسوطة جدًّا مع نادر، وبينا حاجات كتير مشتركة، بحب حبه ليا، كل أفكاري وتصرفاتي بتعجبه عكس يحيى اللي في أفكار كتير أنا مقتنعة بيها هو رافضها.

-يبقى يحيى كان صح يا ندى.. نادر هو الحب الحقيقي.

-تفتكري؟!

-لا، دا كلامك يا ندى.

-مش عارفة.

-لا، دي الحقيقة اللي انتِ خايفة تعترفي بيها، كان صعبان عليكِ إنك تعترفي إنّك فهمتِ مشاعرك غلط.

-هي المشاعر تتفهم يا فريدة؟ تتحس بس يا بنتي.. على العموم أنا مبسوطة.. أنا ماخسرتش يحيى، وفي نفس الوقت بدأت حياة جديدة.. اختصرت الوجع وعرفت طريق السعادة، ولا إيه رأيك؟

-فعلا، ربنا يسعدك.

جاء اليوم المنتظر، وليلة العرس الأسطوري الذي أقامه نادر لعروسه، ليلة رائعة وصاخبة في أكبر فنادق القاهرة، الحفل مليء بالمهنئين من أرقى طبقات المجتمع. دخلت فريدة وعلياء الحفل، وقدمتا التهنئة للعروس وجلستا معًا على طاولة لمتابعة فقرات الحفل. كان حضورهما طاغيًا، وجمالهما لافتًا لانتباه الحضور... ربما يبدو فستان كلتيهما بالتصميم نفسه مع اختلاف الألوان. تألّقت علياء في فستان بنفسجي بينما تألقت فريدة في فستان أزرق. كانت علياء وفريدة ملتزمتين في أزيائهما بشروط «شريفة» الصارمة، قاعدة الأزياء الذهبية من وجهة نظر شريفة أنّ الاحتشام لا ينقص الجمال، بل يرسم حوله هالة طاغية تخطف الأنظار وتكسب الاحترام. جلستا معًا ولم تشاركا العروس الرقص، اكتفيتا بالمتابعة من مقعدهما.

لم تكن تعرف فريدة أغلب الحضور إلا القليل من زملائها في العمل، لهذا جلست مع أختها فقط. كانت علياء منبهرة بفستان زفاف ندى، وظلت تحكي لأختها عن رقته، وأنّه مواكب لأحدث الأزياء هذا العام، بينما فريدة تستمع وتهز رأسها فقط. كان عقلها يفكر في حياة ندى مع نادر، هل ستتأكد أنّها تحبه أم ستندم لأنّها تسرعت؟

الندم بعد الزواج أمرٌ مؤلم. تذكرت ليلة عرسها وندمها في ليالٍ طويلة بعد ذلك على هذه الزيجة. سرحت بعيدًا عنِ الحفلِ في ذكريات تجربة ما زالت محفورة في قلبها وفجأةً انتبهت إلى صوت رقيق يحييها، وشاب وسيم يمد يده لمصافحتها. ارتبكت قليلًا، ثم بادلته التحية والمصافحة وعرّفت أختها عليه. إنّه يحيى بنظراته الجريئة المعهودة، لم ينسَها في وسط هذا الزحام. ابتعد يحيى عنهما بعد المصافحة وجلس على طاولة مقابلة لهما. بعد نصف ساعة همست علياء في أذن أختها قائلة:

ـ فريدة، إيه حكاية يحيى ده؟!

ـ ماله؟

ـ دا عينه مانزلتش من عليكِ!

ـ بيتهيألك.. ماتبصيش ناحيته خالص.

ـ إيه الحكاية؟

ـ ولا حكاية ولا رواية.. هو كدا جريء وغريب، ندى كانت بتقول عليه مجنون تقريبا هو مجنون رسمي.

ـ فعلا مش طبيعي!

حاولت علياء أنْ تلتزمَ بنصيحةِ فريدة، ولكن بين الحين والآخر يدفعها الفضول لتختلس النظر إليه، فتجده على حاله، عيناه على فريدة كأنّه تمثال.. ما هذا.. ألا يخجل؟!

كأنّه لا يعبأ بالناس حوله، يفعل ما يريد في أيّ وقت وكيفما يشاء ... جرأة غريبة ربما تصل إلى الوقاحة! إنّه وقح حقًّا، لكن الحقيقة هو وسيم.. جذاب لدرجة قد تخفف من وطأة وقاحته المستفزة. نظرت فريدة إلى ساعتها وشعرت أنّه حان الوقت للمغادرة، فذهبت مع أختها لتحية العروس مرة أخرى قبل المغادرة. غادرتا معًا وقبل الوصول إلى المنزل بدقائق، علا صوت هاتف فريدة.. إنه رقم مجهول، ولم تعتد الرد على الأرقام الغريبة، لم ترد.. لم تهتم، وقبل أنْ يصعدا مصعد البرج حيث شقتهما، عاود هذا الرقم المجهول الضجيج مرّةً أخرى، واضطرت فريدة أن ترد:

ـ آلو.

ـ وصلتِ يا فريدة؟

ارتبكت بشدة.. يا له من مجنون حقًّا ! هل هو؟ معقول؟! فتساءلت:

ـ مين حضرتك ؟

- أنا يحيى، بطمن عليكِ.

ـ انتَ جبت رقمي ازاي؟!

ـ يعني هو سر حربي يا فريدة؟!

ـ من ندى؟!

ـ لا.

صمتت وكأنّها لا تعرف ماذا تقول، فعاود السؤال:

ـ وصلتِ؟

- آه.

ـ حمد لله على السلامة.. تصبحي على خير.

أنهى المكالمة بينما هي تمسك الهاتف وتبدو في حالة ذهول واندهاش فابتسمت علياء، وقالت:

ـ دا طلعت حكايته حكاية.. يلا بينا يا فريدة.

كانت «شريفة» في انتظارهما، ظلت علياء تحكي لوالدتها عن الحفل والعروسين والحضور، بينما فريدة صامتة سارحة، فسألتها والدتها:

ـ مالك يا فريدة.. سرحانه في إيه؟!

فردت علياء:

ـ أقولك يا ماما؟

فقاطعتها فريدة:

ـ مافيش.. صدعت من الأغاني والهيصة.. أنا ماليش في الجو دا.. قومي يا علياء نامي وبطلي رغي.

ابتسمت علياء قائلة:

ـ طيب.

عادت علياء تحكي لوالدتها عن العروسين، وأدركت أنّ فريدة لا تريدها أنْ تحكي شيئًا عن يحيى، بينما فريدة دخلت غرفتها للنوم، لكنّها لم تستطع النوم وظلت تفكر في يحيى، في تصرفاته ونظراته.. ماذا يريد، هل كان يجب عليها أنْ تصدَّه بقوة وترد عليه بقسوة في الهاتف؟!

لم ترد كما يجب وقد يظن أنّه يروق لها اتصاله واهتمامه.. ماذا تفعل؟ لقد ارتبكت حينما سمعت صوته ولم تعرف ماذا تفعل. لم يتجاوز في الحوار كي تنهره، ولكن لا يجب أن يتصل بها من الأساس.. بأيّ صفة يسأل ويهتم؟!

الأسئلة كثيرة تحاصرها وتتصارع في عقلها ولا تجد إجابات لأيّ منها، لكنّها قررت ألا تمنحه أيَّ فرصةٍ للاقتراب من حياتها؛ هذا الرجل خطر جدًّا، وعليها أنْ تبتعد عنه قدر ما تستطيع.

....

الفصل السابع

بدأت «ندى» حياة جديدة في أوروبا مع زوجها، حياة تتسم بالتغيير الشامل، كل شيء تغير وتبدل، المكان والعادات وأسلوب الحياة، حتى تفكيرها بدأ يختلف مع كلِّ هذه التقلبات التي تحياها. أحبّت أيامها مع نادر، وذاقت طعم السعادة من نوع خاص ربما تلك الحياة ما خططت لها قطُّ، ولكن الله أرادَ أنْ يمنحَها حياة مختلفة جميلة مليئة بالطموح والمغامرة مع زوج يحبّها ويبرهن كلُّ دقيقةٍ على حبّه لها. حبه لها جعل مشاعرها نحو «يحيى» تتوارى بعيدًا، لم يعد يحيى يمر على بالها إلا قليلًا، لم يعد يشغل أفكارَها كثيرًا. حياتها الجديدة تغنيها عن الماضي بكلِّ تفاصيلِه، كما أنّ «باريس» ساحرة فتنتها إلى حد لا يوصف، جعلتها تتمنى لو تقضي باقي العمر هنا، ولكنّها تفتقد والدها كثيرًا؛ لا أحدَ يعوّضها حنانَه ولا حبه، رغم أنّها كانت تطمئن عليه يوميًّا، ولكن هذا غير كافٍ. كثيرا ما تفكر في وحدته بعد زواجها، وتتذكّر دموع وداعه لها؛ لقد رفض الزواج منذ وفاة والدتها كي لا ينشغل عنها، كرّس حياته لها ولعمله، بعدها عنه ربما هو فقط ما ينقص سعادتها في عاصمة النور.

كانت تتواصل مع «فريدة» هاتفيًّا، وأخبرتها الكثير عن فرنسا، وجمال عاصمة النور. كانت تتواصل مع «يحيى» لتعرف أخباره كما اعتادت، ولكن حديثه معها تغيّر تمامًا؛ ما عاد يقص عليها أسراره، ولا يزعجها بالاتصال، في شهرين تحدث معها مرتين فقط في حين أنّها طلبته ثلاث مرات. كان الحديث شديد العمومية، وكأنه يفكر في كلِّ كلمةٍ ألفَ مرّةٍ قبل أن ينطقها. حديثه دائمًا في منتهى الجديّةِ أدركت أنّه يريد أنْ يضع ضوابط جديدة صارمة لعلاقتهما، فالتزمت هي أيضًا بالضوابط نفسها، وأصبح حديثهما كلماتٍ مختصرةً وسؤالًا عامًّا عن الصحة والأحوال يبدأ وينتهي في خمس دقائق وربما أقل.

....

لم يستطع «شريف» أن ينسى علياء، ما زالت عيناها ترافق زحام أيامه. تواصل معها هاتفيًّا بحجة الاطمئنان عليها وعلى العائلة خاصة أنّ هناك معرفة قديمة تجمع بين العائلتين. تواصل معها وهو قلق للغاية من ردِّ فعلها، كان مرتبكًا ولكنّها كانت لطيفة معه للغاية، وسألته عن صحته وعن والده. بدأ ارتباكه يقل واستأذنها أنْ يهاتفها بين الحين والآخر. كان سعيدًا بفتحِ بابِ الحوار معها، ربما لا يعرف ما الذي يجذبه إليها، لكنّ هناك شعورًا غريبًا ينتابه كلما رآها أو حدّثها، مشاعر مختلطة من السعادة والارتياح لا يعرف لها تفسيرًا، لكنّه يدرك أنّ لها عليه تأثيرًا قد يجهل مداه الآن، لهذا يريد أن يتقربَ منها ليدرك أهو إعجاب أم أكثر من ذلك.... كان الدكتور «عادل» سعيدًا بهذه العَلاقة وتمنى لو تطورت إلى زواج، لن يجد لابنه عروسًا أجمل منها ولا أفضل منها تربية ونسبًا، كذلك «شريفة» كانت سعيدة ومرتاحة إلى هذا التقارب، إنها تتمنى لابنتها حياة جديدة تعوضها جرح الماضي، أما علياء فكانت لا تعرف إلى أين سينتهي الأمر، هو شاب مهذّب متميز مثقف، يبدو مثاليًّا، ولكنّه خجول، لا يجيد العزف على أوتار قلوب الفتيات، تظن أنّه يحتاج إلى سنوات كي يتجرأ ويقول «أحبك». لقد اختطف «محسن» من قبل مشاعرها بجرأته وكلماته، ولكن على قدر جرأته في الحب كانت جرأته أيضا في الخيانة، لهذا لا يجب أنْ تتسرّعَ في الحكم على شريف؛ ربما تجد في حبّه الخجول الصدق والوفاء.

....

استيقظت «فريدة» من نومها في يوم إجازتها على صوت هاتفها، إنّه هو.. ما هذه الجرأة؟!

ما هذا الإلحاح؟!

ظلت ترمق الهاتف بنظرات اندهاش إلى أن توقف الاتصال، لن ترد عليه، يبدو أنّه سيعتاد الاتصال بها؛ لهذا لن ترد، وإنْ رأتْه أمامَها ستعنّفه بشدة، لا بد أن لا يتخطى حدوده. توقف ضجيج الهاتف، ولكن بداخلها فضول أن تعرف ماذا يريد. جلست على فراشها تفكر فيه وتتذكر نظراته العميقة، وعينيه التي تنطق بالكثير، استطاعت ألا ترد على اتصاله، ولكن لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير فيه. بدأ يتسلل إلى أفكارها خلسة ورغما عنها، وكم تخشى أنْ يتسلّلَ إلى قلبها الذي لا يحتمل أوجاعًا جديدة! لا بد أنْ توقف هذا العبث.. نعم لا بد أنْ تضعَ حدًّا لهذا الرجل، ولكن كيف كيف تصمد أمام نظراته؟ إنها تزلزل الأرض تحت قدميها وتعلو بنبضات قلبها، إنّه ساحر وعليها أنْ تتحصّنَ من سحر عينيه حتى لا تقع في خطرٍ لن يرد بعد ذلك...

بينما هي غارقة في أفكارها المتطاحنة وإذ برسالة صوتية على هاتفها، رسالة منه. لم تفكر، بل كانت في لهفة لتعرفَ ماذا يريد. استمعت إلى الرسالة:

ـ «كل سنة وانتِ حبيبتي، كل سنة وانتي طيبة، ماينفعش ماشوفكيش في يوم عيد ميلادك.. أنا هزوركم النهاردة الساعة سبعة مساءً.. بحبك.»

اتسعت حدقة عينيها، وتسارعت دقات قلبها، ثم نظرت إلى التاريخ في هاتفها.. إنّه حقًّا يوم عيد ميلادها.. من أين عرف كل هذا؟! إنّه يقول حبيبتي، أيّ اعتراف هذا؟! كيف يسميها حبيبته؟ ألا ينتظر حتى يعرف رأيها؟

يا له من مجنون!

عن أيِّ زيارةٍ يتحدث؟! ماذا تقول لوالدتها عن هذا الزائر؟!

لقد تخطّى مرحلة الجنون بكثير..!

عقلها مشتت، وقلبها يدق بنبض متسارع ومشاعر متضاربة لا تقدر على فهمها أرهقها كل هذا، فظلت حبيسة غرفتها إلى أنْ جاءت والدتها من العمل. دخلت إليها «شريفة» في غرفتها بابتسامة متفائلة، وقالت:

-ياه.. على السرير لغاية دلوقتي؟! يا عيني على الدلع! على العموم النهاردا الدلع مسموح.. كل سنة وانتِ طيبه يا حبيبتي.

-وانتِ طيبة يا ماما.

لمحت «شريفة» وجوم غريب وقلق واضطراب على وجه ابنتها، فسألتها باهتمام عما يشغلها. حكت «فريدة» لوالدتها عن يحيى، أخبرتها بكلِّ شيء، منذ أن سمعت عنه في حكايات «ندى» إلى رسالة اليوم. كانت «شريفة» تستمع باهتمام وتركيز لتدرك ما خلف الكلمات. سمِعَتِ الرسالة الصوتيّة التي أرسلها «يحيى» إلى ابنتها، ثم قالت:

-أهلًا وسهلًا بيه يا فريدة.

-هو عايز إيه يا ماما؟ إنسان غريب جدًّا.. أنا قلقانة منه.

-أنا مش قلقانة منه.

-ازاي يعني؟!

-جاي من الباب يا فريدة.. أنا ليّ نظرة في الناس، لما أقابله النهاردا هقولك رأيي.

-لا، حضرتك كلميه وقولي له مايجيش.

-عيب يا فريدة.

-خلاص.. أنا مش هقابله.

ابتسمت الأم، ثم قالت:

ـ هروح أحضر الغدا على ما علياء ما تيجي.

خرجت الأم وتركت «فريدة» بين عقلها وقلبها حائرة. جاءت علياء من عملها وعلمت جديد أختها وانتابتها حالة من الضحك المتواصل أثارت غضب فريدة، فتساءلت بامتعاض:

-انتِ بتضحكي على إيه؟!

-بصراحة.. يحيى دا غريب.. مجنون بس جنانه حلو قوي.

-أنا مش هقابله.

-بالعكس.. اتكلمي معاه.. يعني هو هيخطفك في بيتنا؟!

تركتها «علياء» وذهبت إلى والدتها، وما زالت هي حبيسة أفكارها ومخاوفها.. حقًّا تخاف منه ومن عينيه التي تعدها بالعشق بنظرة حانية، تخطفها من عالمها إلى عالمه، تخاف من حديثه الساحر الذي

يلجم كلماتها ويقيدها بقيدٍ ناعمٍ لا تدري إنْ كانت تحب هذا القيدَ أم تكرهه، إنّه حالة فريدة أربكت كلَّ حياةِ فريدة..!

....

ما زالت الأيام تمر على «صافيناز» عسيرة وحالتها الصحية متذبذبة بين السيء والأسوأ، ولم تجد بجوارها إلا «محسن» يحيطها برعايته ويغمرها بحنانه، يلازمها في كلِّ رحلةِ العلاج الشاقة في مصر وخارجها. كانت حقًّا في احتياج إليه، احتياج معلن وصريح لم تخفِه عليه، عرض عليها الزواج حتى لا يفارقها دقيقة، لم تفكر «صافيناز» طويلًا، بل وافقت؛ هي تحتاج إلى حنانه وحبّه لعلّه يخفف عنها آلام المرض والوحدة. تم الزواج وتفاجأ أنّها تعفيه من كلِّ مهامه في الشركة! كان هذا الأمر مفاجأة مربكة له، لكنّه تمالك غضبه واستفسر منها في هدوء رزين أثار دهشتها وإعجابها. أجابته أنّ العمل هناك من يقوم به بأمانة وإخلاص، إنما هي ليس هناك من يهتم بها بإخلاص إلا هو. أجابته أنها تودع الحياة وما تبقى لها في هذا العالم إلا أيامًا معدودة، تريده إلى جوارها، تريد أنْ تموت بين يديه، وهكذا أصبح متفرّغًا لها تماما، يحيا معها ليالي الألم وليالي الصراع مع المرض اللعين، أيام من الكآبة والملل عليه أن يتحملها، أصبحت هي محور حياته وتستحوذ على كامل وقته. طريق اختار أنْ يسير فيه وعليه أنْ يكمله إلى النهاية؛ لعلّه يجني ثمار الصبر الطويل.

....

الفصل الثامن

بدأت «ندى» تمل الحياة الجديدة، كل يوم يمضي تفقد الكثير من انبهارها بحياة الغرب، ملّت فرنسا سريعًا، ملّت غربتها ووحدتها، اشتاقت إلى زحام القاهرة وضجيج شوارعها، اشتاقت إلى أهلها وأصدقائها، تسلل إلى قلبها شعور غريب بأنّها هنا تفقد شخصيتها المستقلة، وكأنّها أصبَحت مجرد تابع لزوجها، هو هنا يحقق طموحه ويرفع مكانتَه، بينما هي ماذا تفعل هنا، كل دورها أن تبقى في الظل خلف زوجها العظيم ليقال عنها يومًا ما وراء كلِّ عظيمٍ امرأةٌ عظيمةٌ.. أين هي من كل هذا؟ أين طموحها؟ لقد تركت كلَّ شيء خلفها من أجله، تركت بلدها وعملها ووالدها وأصدقاءها لتصنع معه مجده، لتبني مستقبله، أين هي؟ هل هو يدرك حجم تضحيتها؟

سألت نفسها سؤالًا تعرفُ إجابته جيّدًا هو لا يرى أنّها تضحي، يرى أنّ هذا حقه عليها، فأين حقوقها عليه؟ يتركها طويلًا وحيدة ويعود إليها مرهقًا، نفدت كلمات حبه سريعًا، وأصبحت أيامهما روتينية.. مملة.. صامتة كأنّ زواجهما مضى عليه سنوات، وفي أوقات وحدتها وفراغها كان يطل عليها «يحيى» بذكرياته معها، إنّه مختلف، اشتاقت إليه.. إلى جنونه وكلماته، حتى إلى انتقاده اللاذع لها ، أما زال له في القلب مكان؟ سؤال تعرف إجابته، ليس له مكان في القلب، بل هو من يملك القلب، اعترفت لنفسها أنّها ما زالت تحبه وما فعلته ما أوجع إلا قلبها، وما انتقمت إلا من نفسها. أرادت أنْ تثبتَ لنفسِها أنّها قويّة وقادرة على تجاهل مشاعرها، لكن الحقيقة أنّها عذّبت قلبها عذابًا لا يحتمل، كان عليها أن تصبر على جنونه إلى أنْ يدركَ أنّها الحبيبة، ما صبرت وما انتظرت أنكر هو حبه فأنكرت هي حبها. الآن هي تتألم بينما هو ما زال قادرًا على الإنكار، ما عاد بإمكانها التراجع، لا مت قلبها على الندم وأشفقت عليه من الألم ولكن لا فائدة.. العناد قادها إلى طريق شائك وليس أمامها إلا الصبر..!

....

جاء «يحيى» في موعده في تمام الساعة السابعة مساء، يرتدي بدلة أنيقة فاخرة يحمل هدايا كثيرة. استقبلته «شريفة» بترحاب بالغ، وسلمت عليه «علياء». جلس يحيى مع شريفة وعلياء وهو ينتظر بفارغ الصبر أنْ تنير الجلسة فريدة. رحبت شريفة به قائلة:

ـ أهلًا بيك يا أستاذ يحيى.

ـ أهلا بحضرتك، أنا يحيى طاهر سيف الدين.. أنا خريج تجارة.. بشتغل في شركة والدي.. كمان أنا بحب الرسم والمزيكا.. عملت معرض ناجح وبحضر لمعرض قريب إن شاء الله، كمان بفكر في المزيكا والألحان لكن لسه الخطوة دي شوية.. أنا بحب الرسم أكتر عشان كدا مركز فيه أكتر.. أنا آسف إني جيت من غير ميعاد، لكن كان لازم أتعرف عليكم ومالقتش مناسبة أحلى من كده أتعرف فيها عليكم.

ـ أهلا بيك يا ابني.

- أنا من أول يوم شفت فريدة وأنا مشغول بيها.. الحقيقة انا بحبها وأتمنى إنها تكون بتبادلني نفس الشعور.. كل أملي إنها تحبني وتوافق على جوازنا.

- يعني أفهم من كدا إنّك جاي تخطب فريدة؟! طيب هو اللي جاي يخطب بيجي لوحده يا أستاذ يحيى؟!

- أكيد يا طنط بابا هييجي.. دي الأصول، لكن أنا عايز أسمع فريدة وأعرف رأيها، ماكانش في طريقة أكلمها وأعرف رأيها وأكسب ثقتها غير إني آجي هنا أقول مشاعري بوضوح قدامكم كلكم.

ـ طيب يا أ. يحيى.. تعالي يا علياء معايا.. أستاذ يحيى لسه ماخدش واجب الضيافة.. يقول علينا بخلاء!

خرجت شريفة وعلياء وبقى يحيي ينتظر بشوق ولهفة قدوم فريدة، لقد جاءها عاشقًا، وما زالت تنكر مشاعرها، وتهرب من هواها، تخاف مقابلته، تخاف أن تفصح ولو بعينيها عما في قلبها، إنّه يفهم ترددها وخوفها، لكن يثق أنّها تبادله المشاعر نفسها. ما زال يحاور نفسه ويحدث قلبه، غرق في أفكاره بضع دقائق إلى أنْ جاءه صوتها الرقيق وهي تقول:

ـ مساء الخير.

وقف لتحيتها ومدّ يده ليصافحها. مدت يدها، فقبض على يدها بكفيه وعينيه تلفها بنظرات متلهفة معجبة بجمالها، فاحصة لردائها الجميل، وشعرها الأسود الطويل وعطرها الفواح، قائلا:

ـ كل سنة وانتِ طيبة.

ارتبكت من سلامه الحار؛ سحبت كفها مسرعة وأشارت له بالجلوس:

ـ وحضرتك طيب يا أستاذ يحيى.

ـ اسمي يحيى طاهر سيف الدين ،مافيش أستاذ خالص.

- أستاذ يحيى، أنا بجد مش فاهماك، ولا عارفة انتَ عايز إيه!

- بحبك، انتِ فاهمة وحاسة، وبعدين أنا ماعملتش حاجة غلط.. جاي أقول بحبك قدامك وقدام أهلك.

- حبيتني امتى؟ انت شفتني كام مرة.. تعرف عني إيه؟!

- حبيتك امتى؟ مش عارف.. ما أقدرش اقول حبيتك امتى بالساعة والثانية الحقيقة لسه ما اخترعوش جهاز يحدد الموضوع دا، شفتك كام مرة؟؟

الحب مش بييجي بعدد المرات اللي بشوفك فيها، أعرف عنك إيه؟ أعرف عنك حاجات كل الناس عارفاها، أعرفها زي أي حد، وأعرف عنك حاجات محدش يعرفها غيري لأني بحبك ومافيش حد بيشوفك بعيني.

صمتت وكأنّها لا تعرف ماذا تقول، كلما تكلم زاد ارتباكها وتعالت دقات قلبها وتاهت كلماتها. صمتت قليلًا وهي تحاول أنْ تستجمع كلَّ قواها لتستطيع أنْ تدير الحوار مع هذا الجريء المجنون، بينما هو جالس يراقب حيرتها يحاصرها بنظراته الحادة التي تخترقها لآخر نقطة في قلبها، فعادت تتساءل باهتمام:

ـ تعرف عني مثلًا إنّي مطلقة؟!

بدا على وجهه علامات ضيق، وقال:

ـ للأسف مش عارف.. ازاي اتسرعتِ واتجوزتِ؟! كل ما أفتكر إن كان في راجل في حياتك قبلي أحس إني هتجنن، كان لازم أكون أول حب وأول دقة وأول فرحة وأول لمسة، لكن اللي حصل حصل!

- يعني انت عارف إني مطلقة وبردو دا مأثرش على مشاعرك؟!

ـ ضايقني طبعا، ضايقني جدًّا، لكن لا يمكن يأثر على مشاعري، وإن كان بعد ما اتكلمنا شوية مابقتش حتى متضايق.

- ليه؟!

ـ لأني اتأكدت إن أنا أول حب، وأول دقة، وأول فرحة.. اللي فات كان جواز من غير حب ولا مشاعر.

أقبلت شريفة ومعها علياء يقدمان العصائر والحلوى، بينما فريدة كانت صامتة، تجلس في خجل شديد وارتباك واضح، أمّا يحيى كان يتابعها بنظراته. سادت فترة صمت، ثم بدأت شريفة تحاوره وتكسر حالة الصمت ويحيى يبادلها الحديث وعيناه على فريدة، كأنّه لا يطيق أنْ يحرمَ عينيه من رؤيتها في أيّ لحظة هي فيها أمامه، بينما فريدة تجلس صامتة مرتبكة لا تنظر له؛ فهي أضعف من نظرات عينيه. مضت الجلسة سريعًا، ثم استأذن يحيى وانصرف.

دخلت فريدة إلى غرفتها دون أن ترى الهدايا التي جاء بها، لقد كانت منشغلة به عن كلِّ شيء. حديثه يتغلْغلُ إلى أعماق قلبها، يغيّر فيها الكثير دون إرادتها... جلست في غرفتها وكلماته تتردد في أذنيها كأنّها أعذبُ نغم موسيقيٍّ سمعته، صوته الحاني، نظراته العاشقة تعلو بها فوقَ جراحِ الأيامِ تحلِّقُ بها إلى سماءِ العشْقِ، ولكن.. أيّ عشق؟ كيف تحبُّه وهو حبيبُ صديقتها؟ فردّ عقلَها سريعًا: لكن «ندى» تزوّجت وانتهى الأمر. وسرعان ما استعاد عقلها تفكيره المنطقي، وبدأ يفيق من سحرِ عينيه، وعنّفَها عقلُها بقوّةٍ: لماذا تحبه هو؟ هذا الحب محرّمٌ عليها.. لا بد أنْ تبعدَ سريعًا، جلست وأفكارُها تتصارعُ وتتضارب وهي مستسلمة لحيرتها إذا بعلياء مقبلة عليها قائلة:

تعالي شوفي الهدايا.. قومي.

جذبتها مِنْ يدها وأخرجتها إلى حيث الهدايا بالقوّة. الهدايا كانت كثيرة، منها حلويات من أرقى الأنواع، ولوحة لفريدة مرسومة بريشة العاشق الولهان أبدع في رسمِها بدرجةٍ مبهرة. اندهشت فريدة من روعة اللوحة، ووقفت دقائق تتأملها، ثم سألت والدتها:

-هو أنا حلوة قوي كدا؟!

-طبعا يا حبيبتي.. بس يحيى دا فنان.. فنان مافيش كلام.

فصاحت علياء:

ـ شوفي بقا المفاجأة دي.. شوفي السلسلة دي.. ذوقه رهيب!

أمسكت فريدة السلسلة الذهبية، كانت سلسلة قصيرة جدًّا تلتف حول العنق مكتوب عليها اسمه ومعها ورقة مكتوب فيها:

«السلسلة دي تلبسيها ماتقلعيهاش أبدًا، تحضنك بالنيابة عني لغاية ما نتجوز».

ما زال يدهشها.. ما زال يبهرها.. ما زال يجبرها أنْ تندفع في مشاعرها نحوه بلا وعي، إلى أيِّ طريق يأخذها؟ وإلى أين ستنتهي بها هذه المغامرة؟

أخذت لوحتها والسلسلة إلى غرفتها، وجلست على فراشها تفكر فيه. لم تستطع أنْ تتصدّى لكلِّ هذا الحبِّ، وكلِّ هذا الاهتمام. أيُّ قلبٍ هذا الذي يقوى على مقاومة كلِّ هذه المشاعر!

وبينما هي سارحة فيه إذ به يخترق خلوتها ووحدتها عبر الهاتف.... ردّت على اتصاله، لم يمنحها فرصة أنْ تتكلَّمَ، بل قال:

ـ وحشتيني في الساعة اللي فاتت.

ـ يحيى، اديني فرصة أفكر.. متهيألي إن من حقي أفكر وأعرف إحساسي بيك إيه دا غير إن في حد مهم لازم أفكر فيه وأنا بفكر في علاقتنا.

رد بانفعال شديد وعصبية مفرطة:

- يعني إيه.. في حد في حياتك؟!

- ندى.. ندى ممكن تفهم موضوعنا ازاي؟!

تنهد بعمق ينم عن راحة وهدوء بعد عصبية بالغة، ثم قال:

- ندى اتجوزت يا فريدة، وأنا على فكرة بكلمها وبطمن عليها.. هي خلاص فهمت اللي كنت بقوله، وبتحب جوزها.. ليه عايزة تعملي مشكلة من مفيش؟! ماقولتليش عرفت أرسمك؟

- بصراحة انت راسمني أحلى مني بكتير.

- لا يا حبيبتي.. انتِ أجمل مليون مرة.

- بس ازاي مع انك شفتني مرات قليلة جدًّا؟!

- عشان صورتك من أول مرة شفتك فيها اتحفرت في قلبي.. آه صحيح لبستِ السلسلة؟

- لا.

فعاود الانفعال وقال بضيق:

-يعني إيه لا؟!

-أنا قلت لك إنّي لسه بفكر.

-آه.. براحتك يا فريدة.

صمتت ولا تعرف هل تنهي المكالمة أم ماذا، فإذا بصوت عبد الحليم يشدو أهواك عبر هاتفه. ابتسمت وتساءلت:

-انت بتحب عبدالحليم؟!

-آه.. انتِ كمان بتحبيه.

-عرفت ازاي؟!

-قلت لك إني أعرف عنك كل حاجة.. عارفة أنا حاسس إنك جزء مني كنت بدور عليه وما صدقت لاقيته!

صمتت فبدأ يدندن مع العندليب، فقالت:

-تعرف إن صوتك حلو قوي؟

ـ يمكن عشان بغنيلك.. أي حاجة عنك أو ليكِ بتخلي كل حاجة حلوة.

عاودت الصمت، لقد غرقت كلماتها في بحر غرامه ولم يعد لديها ما تقوله، إلا أن تنهي المكالمة. تمنت له نومًا هانئًا، وأنهت حوارها معه، ولكن ما زال حوارها مع قلبها لم ينتهِ بعد، فقد امتد إلى قبيل الفجر.. إلى أن غلبها النوم، نامت وحديثه في أذنيها نغم لا ينقطع.

....

تواصل «يحيى» مع «ندى» هاتفيًّا للاطمئنان عليها كما اعتاد، وسألها عن أحوالها وحياتها الجديدة. أخبرته أنّ حياتها الجديدة طيبة وجميلة وكلّ شيء يسير على ما يرام. سألته عنه فأخبرها أنّه يعد لمعرض جديد، وأنّ هناك خطوة كبيرة أخرى هامة في حياته يستعد لها، فسألته بشغف بالغ:

-إيه.. ناوي على إيه؟!

-هتجوز.

صمتت قليلا وكأنّها تفاجأت بهذا القرار، ودار بينها وبين نفسها حوار: ألم تكن تهرب من الزواج؟ الآن فقط تقبل على الخطوة التي أخافتك طويلًا؟ وسرعان ما عادت إلى الحوار معه، قائلة:

-يا ترى مين سعيدة الحظ؟!

-دي الفرحة اللي استنتها سنين.

-يااه، هي حلوة قوي كده؟!

-طبعا قمر.. ما انتِ عارفاها.

-أنا أعرفها! مين؟

-فريدة.

-فريدة مين؟!

-صاحبتك يا ندى.

كان الأمر صادمًا لندى لدرجة أفقدتها هدوءها واتزانها، فصرخت فيه:

ـ المجرمة! يعني أنا كنت بكلمها عنك وهي بترسم عليك؟ أما أنا غبية بشكل.

ـ ندي، أنا ما أسمحلكيش تتكلمي عنها كدا.. لغاية ما اتجوزتِ ما كانش في أي حاجة بيني وبينها، ولا كانت تعرف إني معجب بيها، وبعدين احنا طول عمرنا إخوات يا ندى.

- يا ترى الهانم قالتلك إنها مطلقة ولا أنكرت؟!

- واضح إنك مش في وعيك.. خلي بالك من جوزك.

أنهى يحيى المكالمة. كان يظن أنّها تزوجت وأفاقت من أوهامها، ولكن يبدو أنّها ما زالت متهورة. هل أخطأ بالحديث معها عن فريدة؟ لقد كانت تخشى فريدة هذه المواجهة وترى ما لا يراه، وها هي مخاوفها تحققت، ولكن لماذا يخاف؟ من حقه أن يختار من تسعده، فلتغضب ندى كيفما تشاء وليدفعها جنونها أينما تشاء، لكن أبدًا لن يبعده شيء عن حبيبته.

بينما «ندى» أصابها مس من الجنون، جنونها هيّأ لها أنَّ صديقتها اختطفت منها يحيى،

وكانت السبب في بعده عنها، واشتغلت غيرتها تتساءل إلى هذا الحد استطاعت تلك الساذجة أنْ تنتصر عليها.. كيف لم تنتبه إلى أنّها تخطط لخطف يحيى منها؟!

لقد خدعتها «فريدة» الخدعة الكبرى، وطعنتها طعنة لن تشفى منها أبدًا. كانت تظنها هادئة ساذجة قليلة الخبرة بالحياة، ولكن الأيام كشفت لها الوجه الحقيقي لتلك السارقة. لقد سرقت منها قلب الإنسان الوحيد الذي تمنت أن تظفر به.. يا لها من خبيثة! يا لها من مجرمة شديدة الدهاء! فعلت كلَّ هذا دون أنْ تشك بها لحظة واحدة. إنّ زواجَه من «فريدة» يقبض أنفاسها، يقتلها ببطء، وهو ما لا يمكن أن تسمح به، لا بد ألا يحدث هذا الأمر مهما كلفها، لا بد أن تدفع فريدة ثمن جريمتها وخيانتها...

تواصلت «ندى» مع «فريدة» هاتفيًّا، بعد أنْ قرّرَت أنْ تتخذ موقفًا مع تلك اللعينة الماكرة. بدأت فريدة المحادثة بمحبة واهتمام بالغيْن، بينما ندي قررت أن تقول لها حديثًا موجعًا:

-أنا مش قادرة أصدق اللي انتِ عملتيه.

-عملت إيه يا ندى؟!

-من كل رجالة العالم مفيش إلا يحيى اللي تاخديه مني؟! أنا كنت فاكرة إنك صاحبتي.. بقولك كل حاجة وبتكلم معاكِ كأني بكلم نفسي.. ازاي تسرقي مني الإنسان اللي بحبه؟!

-انتِ فاهمة غلط يا ندى.. اديني فرصة أفهمك.

-لازم تعرفي حاجة مهمة.. أنا مش ممكن أسمح بالجواز دا يتم.. يحيى مش ممكن يتجوزك.. لا انتِ ولا غيرك يحيى ملكي أنا.. انتِ فاهمة؟ انتِ أحقر إنسانه شفتها.

أنهت ندى الحوار وهي تشعر أنّها انتصرت لكرامتها، وبدأت أولى خطواتها الموجعة ضد فريدة، لكن هذه السعادة لم تدم إلا ثواني معدودة، لقد عاد زوجها دون أن تدري وسمع حديثها مع صديقتها. كانت صدمته كبيرة؛ زوجته تحب غيره وتعلن هذا بكلِّ صراحةٍ لصديقتها. واجهها «نادر» بقلب مذبوح، وكبرياء منكسرة، وكانت مواجهة عاصفة، اعترفت أنّها ما زالت تحب يحيى مما زاد جنونه، انهال عليها ضربًا، ثم أنهى كلَّ شيء بكلمة.

في لحظة أصبحت ندى (مطلقة)، وانتهت رحلتها في فرنسا، وما تبقى لها إلا أن تعود إلى القاهرة وفي قلبها جرح عميق، وفي عقلها ثأر من صديقتها. لم تكتفِ فريدة بأن تسرق الماضي، بل سلبت منها الحاضر وما أبقت لها على شيء، لهذا لن ترحمها أبدًا.. لن يشغلها شيء عن الانتقام منها...

....

جاءت اللحظة التي انتظرها «محسن» طويلًا، رحلت «صافيناز» تاركة خلفها ثروة هائلة. بعد مراسم الجنازة التقى المحامي الخاص بها الذي معه ما قررته لتقسيم ثروتها بعد وفاتها. انتظر أن يرى كيف قدرت صافيناز رعايته لها ومعاناته معها طوال رحلة مرضها. جلس أمام المحامي وعقله يسأل بكم سيظفر، سرح بخياله لدقائق يرسم غدًا مختلفًا يحيا فيه حياة مرفّهة كما يتمنى أما آن الأوان أن يجني ثمار معاناته؟ لقد ضحّى بالحبِّ من أجلِ أن يرتاح بقية عمره، وها هو موعد الراحة. إنّ عصرَ الثراءِ يناديه، لكنّه أفاق من أحلامه الرائعة على حقيقة مرعبة، لقد وهبت كلَّ شيء تملكه لدور الأيتام والمستشفيات، لم تمنحه إلا مئة ألف جنيه فقط.! انهدمت أحلامه وتحطمت أماله، أشقته في حياتها ومماتها.. ما تذكرته إلا بمئة ألف جنيه.. يا له من مبلغ زهيد لا يعادل ثمن حقيبة يدها! إلى هذا الحد كان غبيًّا وساذجًا أمام تلك الساقطة! أخذت منه كلَّ شيء، عمر واهتمام ورعاية واحتواء، وبخلت عليه بكلِّ شيء.. اللعنة على تلك الساقطة، سيظل يلعنها طويلًا.. نعم سيظل يلعنها عمرًا بأكمله، ولكن ليست وحدها التي تستحق اللعنة، عقله أيضًا يستحق اللعنة؛ لأنّه لم يفهم قواعد اللعبة جيّدًا، راهن على ضعفها بينما هي راهنت على طمعه وكسبت هي الرهان. سيظل يلعنها ويلعن نفسه طويلًا.. لقد خسر كلَّ شيء، المال والحب، فما تبقى له إلا الحسرة والندم..!

....

الفصل التاسع

قابلها «يحيى» بعد أنْ ظلّت أيام تتهرب منه وهو لا يفهم ماذا حدث. كان غاضبًا ولا يخفي غضبه، يرمقها بنظرات معاتبة بشدة، لكنّها لا تخلو من الشوق واللهفة والحب الذي لا تعرف كيف تهرب منه. جلست صامتة تخفض بصرها وكأنّها تهرب من عينيه فسأل منزعجًا:

ـ ممكن أفهم إيه اللي حصل؟ مش عايزة تكلميني ليه؟ حتى المقابلة واضح إنك جايه وانتِ مش مقتنعة!

ـ قلت لك إني محتاجة وقت أفكر وانتَ اتسرعت وكلمت ندى وللأسف اللي خايفة منه مش مجرد وهم في خيالي دا حقيقة.

ـ هي كلمتك؟

ـ آه.. ندى لسه بتحبك.. بتحبك قوي كمان ومصممة إني السبب إنك تسيبها وتبعد عنها.. أنا سمعت كلام صعب قوي عمري ما تخيلت إني ممكن حد يشوفني بالبشاعة دي.

ـ كان المفروض تكلميني.. تقوليلي إيه اللي حصل.. انا بحذرك من إني أتصل بيكِ وماترديش.. انتِ فاهمة؟

ـ أفهم إيه؟!

- مش تردي هتلاقيني عندكم يا رب نكون في الفجر.. انتِ عارفة إني مجنون وأعملها.

ـ عشان كدا وافقت نتقابل.. يحيى، أنا مش ممكن أجرح ندى.

- لا أنا جرحتها ولا انتِ.. أنا عمري ما قلت لها بحبك.. أنا كنت صريح معاها هي مش عايزة تفهم.. دي مشكلتها.

- انتَ كمان ساعدتها إنّها تعيش في الوهم، قلت لها إنّها مش حبيبتك، لكن كنت مهتم بيها، بتحكيلها تفاصيل حياتك، بتكلمها كل يوم.. أي بنت مكانها كانت هتتعلق بيك وتحبك.

- لا يا فريدة.. انتِ كدا قاسية عليّ قوي.. ندى هي اللي مصممة تعيش نفسها في مأساة، وبعدين هي ست متجوزة.. لازم تراعي دا، على العموم لازم تنسي موضوع ندى دا خالص.. أنا هفاتح بابا وهاجي أخطبك وهنتجوز في أقرب وقت.

- أنا بقولك نفكر.. تقولي نتجوز!

- فريدة، أنا بحبك، الحاجة الوحيدة اللي تخليني أستنى وأفكر إن يكون دا حب من طرف واحد.. أنا عايز أسمعها منك بصراحة.. بتحبيني؟!

- أنا خايفة يا يحيى.

- مني؟!

- من الظروف.. من الأيام.. من حاجات كتير.

- زي إيه؟

- والدك عارف إني مطلقة؟

- فريدة، أنا بحبك.. أنا مسئول إني أدافع عن حبي ليكِ قدام أي حد.. مصدقاني؟

- مصدقة حبك وحاسة بكلّ كلمة بتقولها.. أنا بحبك حب مخليني أخاف تختفي فجأة من حياتي زي ما ظهرت فجأة.

- أوعدك مافيش حاجة هتبعدني عنك غير الموت.

وعدها بأنْ يبقي لها الحبيب طوال العمر، وعدها أنْ يحميَها من الظروف والناس والأيام، وعدها بكلِّ ما تتمناه امرأة من حبيبها. لم تعد قادرة على الإنكار أو الهروب منه؛ إنّه السعادة التي اشتاقت إليها، الحب الذي تمنّت لو صادفته وعاشت لذته، إنه الحب الحقيقي الذي لا يمكن أن تفرط فيه، الحب الذي لا يصادف القلب إلا مرة واحدة في العمر كله. وعدته أنْ يبقى في قلبها الحبيب، الآمر الناهي الوحيد، ستحبه لآخر العمر. وعد كلٌّ منهما الآخر وتعاهدا على عشقٍ لا تنقصه الأيام، ولا تقيّده السنين.. إنّه عهدُ الحبِّ الأبديّ....

....

عادت ندى إلى القاهرة وفاجأت والدها بأن حياتها الزوجيّة انتهت. لم تفصح عن أسباب، ولكن الأب كان مصمّمًا أنْ يفهم ماذا حدث. تواصل مع طليقها وعلم منه سبب الطلاق، بينما أنكرت ندى حديث طليقها وأصرت أنّه مجنون، الشك أتلف عقله... انحاز والدها إليها وصدقها بدون تفكير؛ إنّها ابنته الوحيدة المدللة، التي لا يرفض لها طلبًا ولا يشك في كلامها لحظة، يوما ما وافق على عملها خارج شركته رغم عدم اقتناعه، لكنّه تركها تعمل أينما تشاء ورضخ لرغبتها حتى لا تستميت في النقاش حول حقها أن تنجح بعيدًا عنه.. أنْ تخرج من عباءته، وأن تحقق استقلالها الشخصي. دائما ما يتركها تفعل ما تريد حتى لو ضد إرادته، تركها تتزوج الرجل الذي طالما رفضته لتنسى من أحبته وما زال يرى مستقبلها بعينيها لتكون راضية، فهو لا يبحث إلا عن سعادتها.

لم تضِعْ ندى وقتًا طويلًا في التفكير في حياتها بعد الطلاق، أمامها هدف واحد وحيد، أنْ تمنعَ زواج يحيى وفريدة. ذهبت إلى والد يحيى وأخبرته بالمغامرة العاطفية التي يلهو فيها يحيى مع مطلقة، وأكثرت الحديث عن فريدة وكيف أنّها اختطفت منها يحيى وأفسدت ما بينهما. أخبرته أنّ حياتها الزوجيّة انتهت.. أخبرته أنّها تزوجت ردًّا على تجاهل يحيى، وانفصلت حبًّا له. لم تستطع الاستمرار بجسدها مع رجل وقلبها مع آخر. تحدثت بجرأتها المعهودة عن حب أشقاها وحبيب تجاهلها ويلهو مع أخرى لا تليق به. تحدثت باندفاع وجرأة، بكت بقلب منهك من الإهمال. تفاجأ «طاهر سيف الدين» بما سمع، لم يكن يحيى قد أخبره بأيّ شيء بعد عن حبّه الجديد، ولم تكن المفاجأة سارَّةً بالنسبة له.

كثيرًا ما حاول طاهر إقناعه بالزواج من ندى، ولكنّه كان يرفض بحجة أنّه يراها أختًا له ترك له مطلق الحرية، ولكنّه لم يقدرها كما يجب ونسي أنّ الزواج له تقاليد وشروط لا يجب أن يتخطاها.

انصرفت «ندى» بعد أنْ فعلت ما أرادت ورسمت صورة قميئة لفريدة في عيون والد يحيى. عادت إلى بيتها تنتظر رد فعل والد يحيى، وكيف سيمنع هذا الزواج. عادت وهي على يقين أنّ الرجل لن يقبلَ بفريدة زوجة ابنه الوحيد في أيّة حال من الأحوال...

لم تكن توقعات «ندى» خاطئة، بل كان والد يحيي حقًّا في حالة من الرفض التام لهذا الزواج؛ إنّه رجل عملي صاحب تفكير منطقي، إنّه يريد زواجًا مفيدًا ليحيى، زواجًا يزيد شراكاته التجارية، ويفتح له آفاقًا جديدة في الاستثمار والعمل، لهذا عليه أن يتحرك سريعًا.

انتظر ابنه الذي اعتاد أن يعود في ساعة متأخّرة ليلًا. استغرب يحيى أنّ والده ما زال ساهرًا، وشعر أنّه ينتظره لأمرٍ هام..

فتساءل باهتمام:

-غريبة، حضرتك سهران الليلة!

-مستنيك.. إيه اللي مأخرك لغاية دلوقتي؟!

-كنت في المرسم، حضرتك عارف إني بجهز للمعرض.

-ولا كنت سهران تحب في اللي اسمها فريدة؟!

بدت الدهشة على وجه يحيى؛ من أين عرف والده هذا الأمر؟!

-مش معقول يا بابا.. غريب الموضوع؟

-هو فعلًا غريب إنك تحب واحدة مطلقة.

-لا.. لا كدا في حاجة غلط.. مين اللي حكى الحكاية لحضرتك؟!

-ندى.

-كلمتك مخصوص عشان تكرهك في فريدة.

-لا، هي جاتلي الشركة.

-إيه؟ ازاي.. هي مش في فرنسا؟!

أخبره والده بما انتهى له زواج ندى. عنّفه على سوء اختياره.. على تهوره كأنه مراهق. حذّره من هذه العلاقة التي لا يقبلها ولا يرضى عنها، ولن يسمح لها أنْ تصبحَ زوجته أبدًا... كان يحيى يستمع ويحاول أنْ يتصنع الهدوء رغم أنّ بداخله غليانًا مما فعلته ندى. ترك والده ينفعل ويقول ما يريد ثم سأل بهدوء:

ـ حضرتك مش موافق على جوازي من فريدة عشان مطلقة؟! هي دي كل المشكلة؟!

ـ طبعا.

ـ طب إيه رأيك لو اتجوز ندي؟

- يعني انت عايز تتجوز ندى؟

ـ هتوافق؟

ـ فهمت قصدك.. طبعا هوافق.. بس ندى غير فريدة، الاتنين مطلقات، لكن ندى ارتباطك بيها مفيد لشغلنا؛ والدها رجل أعمال يعني ثروة وعلاقات على أعلى مستوى.. في فرق يا يحيى.

ـ أكيد في فرق؛ فريدة هي الإنسانة الوحيدة اللي حبيتها.. أنا عايز زوجة وحبيبة.. الجواز مش صفقة.

- لا، صفقة، ولو عايز تبقى رجل أعمال ناجح لازم تحسب كل خطوة في حياتك وتشوف إيه المكسب وإيه الخسارة.

ـ بابا، أنا بحب فريدة.

ـ انت تحب براحتك.. ماعنديش مشكلة تحب كل يوم واحدة، إنما الجواز موضوع تاني.

- بابا، أرجوك تفهمني أنا بحب فريدة، صدقني إحساسي بيها حب.. مش نزوة ولا تسلية، ومش هتجوز غيرها.

- كلامي نهائي.. لو فريدة دي آخر بنت في العالم مش هتتجوزها.

دخل الأب غرفته، وترك يحيى مندهشًا من طريقة تفكير والده، لم يكن يتصور أنّه سيعترض بهذا العنف، يبدو أنّ مخاوف فريدة كانت في محلها ولكن لا بد لهذا التفكير أنْ يتغيّر..لا بد أنْ يقتنع والده بأنّ فريدة هي حبه الحقيقي الذي يتمسك به لأبعد الحدود.. نعم سيتمسك بحبه ويقنع والده بهدوء في النهاية لا بد أنّ والده سينحاز إلى سعادته حتى لو كان غير مقتنع. دخل غرفته وهو على يقين أنّ اعتراض والده لن يدوم طويلًا، لهذا لن يخبر فريدة بهذا الأمر حتى لا يضايقها، سيخفي عنها موقف والده إلى أنْ يغيره؛ فهو واثق أنّه يستطيع إقناع والده بعدما تزول ردة الفعل الأولى.

....

توالت اللقاءات بين علياء وشريف، أصبح كلٌّ منهما يعرف تفاصيل يوم الآخر ماذا يحب وماذا يكره، لكن ما زال «شريف» متردّدًا في الإفصاح عن حبِّه، بينما تنتظر «علياء» أنْ يعلِنَ عشقه الذي ينطق في عينيه ولم ينطق به لسانه. هي أيضًا شعرت أنه اجتاز مشوارًا طويلًا إلى قلبها وأصبح قريبًا من روحها وقلبها وعقلها. نسيت معه الماضي المؤلم. ارتاحت لشخصيته الهادئة الرزينة، ولكن كانت تتمنى لو ينتابه بعض من الجنون، جنون المشاعر، لكن يبدو أنّ حياته العملية المنضبطة لجَمت مشاعره وجعلته يتعامل مع مشاعره كما يتعامل مع مرضاه بخطوات دقيقة مدروسة. أحيانًا كانت تقارن بين حبِّ يحيى لفريدة وحب شريف لها، كلاهما يحب، ولكن شتان بينهما في التعبير عن هذا الحب، حقًّا الفنون جنون ويحيى مجنون، أمّا شريف فهو محب عاقل رزين... كانت تتساءل متى يصل إلى الجنون، ما تظن أنّه سيصل إلى هذا الأمر، ابتسمت وقالت لنفسها: فلينطق بحبِّه أوّلًا، ربما اعترافه هو قمة الجنون..!

مرّ عليها في نهاية يومها بالجامعة لتناول الغداء معًا. علا صوت هاتفها وهي معه في السيارة، ردّت باهتمام، بينما هو كان منتبهًا إلى الحديث، كان حديثًا مع أحد زملائها في الكلية، كان حديثها واضحًا أنّه حول العمل، محادثة لم تمتد إلا ثلاث دقائق. بدا عليه الامتعاض والضيق، فتساءلت باهتمام:

ـ ماذا بك؟!

صمت وكأنّه لا يعير اهتمامها اهتمامًا، مما أثار غضبها، فعاودت السؤال بانفعال بالغ، فحدّثها بكلّ صراحة أنّه لا يحب أنْ تتواصل مع زملائها بعد انتهاء العمل فنظرت إليه بطرف عينيها وعلى شفتيها ابتسامة واثقة، وتساءلت في غرور عن سبب ذلك، وقبل أن يجيب أجابت أنّها لا تقبل أن يحدد لها الصواب والخطأ والممنوع والمسموح. صمت ولم يرد على كلِّ حديثها. وصلا معًا إلى المطعم وكلاهما على وجهه علامات الضيق. جلسا على إحدى الطاولات، وشريف ما زال صامتًا، فضجت من صمته، وقالت:

ـ اتغدَ لوحدك، أنا همشي.

- انتِ زعلانة ليه؟!

- انتَ اللي زعلان.. أنا هاخدلك صورة بالموبايل عشان أوريك شكلك عامل ازاي.

- أنا آسف.. علياء، أنا بغير عليكِ.. أنا بحبك.

ابتسمت وبينها وبين قلبها حديث: «بحبك أخيرًا قالها! أخيرًا نطق أبو الهول!

ابتسمت والتقت عيناها بعينيه، ولأوّلِ مرّةٍ ترى فيهما هذا البريق، هذا سر الاعتراف الذي يضفي على عينيه بريقَ العشق.. بريقًا أكسبه وسامة ربما لأول مرة تراه بها، فقالت في هدوء ودلال:

ـ دا من امتى بقا؟

- من أول مرة شفتك، فاكرة يوم ما شفتك وأنا في المستشفى؟

ـ معقول؟!

- معقول انتِ مش عارفة؟!

- أعرف منين يعني؟!

- أعرف منين يعني؟ كان باين عليّ.. باين قوي كمان.

- بصراحة آه، بس انتَ ماقلتش ولا كنت متخيل إني أنا اللي هقولك بحبك؟!

- كنت محتاج أتأكد من حبك ليا.

- اتأكدت؟

- دا إحساسي، ولا أنا غلطان؟

- لا مش غلطان.

- طيب أنا غيور قوي ولازم تسمعي كلامي ومحبش العند إطلاقًا.

- لا والله! طيب أنا عنيدة ودماغي متبرمجة على العند وماحبش حد يخنقني بقيود لأني ببساطة مش محتاجة حد يعلمني الأصول.. متهيألي تعيد تفكير أحسن.

- لا، انتِ ماتعرفنيش.. دا أنا بموت في العند.

- يعني إيه بقا؟

- بموت فيكِ.. هتقولي عنيدة، مجنونة، بحبك بردو.

- ما انتَ بتقول كلام حلو أهو.. أمال كان مالك؟!

- لا، انتِ في الحب ماتعرفنيش، حبّيب حبّيب يعني.

عاد شريف إلى بيته بعد يوم رائع يختلف عن أيّ يوم قضاه سابقًا معها. لقد باح لها بسرِّ حبِّه، وأعلن كلٌّ منهما للآخر هواه، ولم يضِع وقتًا، بل طلب من والده أنْ يحدّدَ موعدًا مع والدتها لخطبتها؛ فلا داعي للانتظار. على الفور تواصل الدكتور «عادل» مع «شريفة»، أخيرًا تسنح له الفرصة ليقترب من حياتها، سيظل يحمل هذا الجميل لابنه الذي يدخله حياتها بعلاقة نسب.. يا لها من لحظة رائعة! أبواب حياتها المغلقة في وجهه طيلة العمر تفتح له على مصرعيها فجأة لعلّه يتسلل إلى أيامها ولو في خريف العمر، ربما يعوضه الله بهذا الخريف عن العمر بأكمله، عمر عاشه يبحث عنها، ويشتاق إليها، ويلملم عشق العمر بين الضلوع ليخفيه بعيدًا في أعماق قلبه الجريح، قلب لم ينسَها سنوات طويلة.

رحّبت شريفة بهذا الزواج؛ شريف شاب مجتهد طموح طيب الأصل، يحب ابنتها وابنتها أيضًا تحبه، إنّها الأيام تبتسم لها من جديد، والله يعوض «علياء» بحبٍّ جديد، وحبيب يستحقها.

الفصل العاشر

لا يمنحها فرصة تفيق من عشقه، يحيطها بحنانه واهتمامه وكلماته الساحرة التي تذوب بين حروفها. أصبحا يتقابلان يوميًّا، تقضي معه بعض الوقت ومهما كان الوقت معه يمر كثوانٍ معدودة في عمر الزمان. كل مقابلة في مكان وكل مكان معه يبدو في عينيها كأنّها تراه لأوّل مرّة؛ لأنّها فقط معه.. مع يحيى، حتى النيل يبدو مختلفًا وهي معه. يجري بين ضفّتيه أكثر رقة، أكثر انسيابيّة، ماؤه أكثر نقاء، وكأنّها ترى اسمه واسمها على صفحة النيل الخالدة شاهدة على قصة حبهما وسيحكيها النيل لكلِّ أبناءِ المحروسة في كلِّ زمان. تمنّت لو قابلته منذ زمن حتى لا تخوض أيّ تجربة مؤلمة، ولكنّه قدرها الحلو الذي تأخر لتعرف قيمته وتذوق شهد عشقه فينسيها مرار ما سبقه. اليوم وعدها بأنّه سيأخذها إلى مكان مختلف لا يمكن أنْ تكونَ قد رأته سابقًا. طوال الطريق وهي تسأل أين سيصطحبها، وهو يبتسم ويعدها بأنّها ستحب هذا المكان، حقًّا كانت مفاجأة رائعة، يا له من مكان! إنّه المرسم، فيلا صغيرة وحولها حديقة غناء، الدور الأول بالكامل ساحة مكتظة باللوحات الفنية، أخذها إلى أكثر مكان يعشقه، هنا يذوب في فنه ويرسم بريشته وألوانه ألف حياة وحياة، كان ضروريًّا أن ترى حبيبته عالمه الخاص. انبهرت من المكان وكأنّها في متحف أثري عريق، وبدلًا من المومياوات تعرض فيه اللوحات. علا صوته ينادي على خادمه ليقدّم لها واجب الضياف. طلبت أنْ تشاركه القهوة كي تركز أكثر وأكثر في تفاصيل هذه اللوحات البديعة. بدأ يقف معها أمام كلِّ لوحةٍ ويحدثها عنها وعن فكرتها وكل لوحة كانت لها معه قصة يحاول أن يحكيها على عجل، بين كل كلمة وأخرى يقول لها:

ـ خايف الوقت يسرقنا، وأنا عايز أوريكِ لوحات مهمة.

كانت تستمع وتشاهد باهتمام وانبهار إبداع حبيبها، وربما بزهو نفسها أيضا؛ لأنّ عيون هذا المبدع لم تعشق سواها، وبدأت في غمرة الانبهار تنتبه إلى الوقت فعلقت بصرها على ساعة معلقة على الحائط. سرحت قليلًا معها وكأنّ عيونها تلوم عقارب الساعة التي تركض سريعًا وتدعوها أنْ تغادر.

أدرك يحيى ما تفكر فيه، فجذبها مسرعا إلى ركن خاص صغير جدًّا ممتلئ أيضًا بلوحات مغطاة، وقفت وعيونها تتأمل هذا الركن وتتساءل: ماذا يكون في هذه اللوحات؟

تبدو وكأنّها كنوز غالية يخاف عليها ويحميها في ركن خاص ويغطيها ربما من الأتربة.. ربما من عيون الناس.. لا تعلم، ترى ما هذه اللوحات؟

فأزاح الستار عن أول لوحة، فاذا بها لوحتها هي سارحة تفكر تنظر بعيدًا كأنّها تبحث عن نفسها، وربما عن الحب، أو عن السعادة، ثم أزاح الستار عن الثانية لوحتها أيضا، ولكنّها تبتسم، ويا لها من ابتسامة جعلتها تبتسم من الإعجاب والسعادة، ثم كشف الستار عن اللوحة الثالثة لها أيضًا وهي جالسة على شاطئ البحر في الغروب وقرص الشمس يتوارى وعيناها تتابعانه وكأنّها تريد أن تكشف سرّ الغروب وغموضه، فتساءلت باهتمام ودهشة:

-امتى رسمت كل اللوحات دي؟!

-كل ما أفكر فيكي أتخيلك وأرسمك.. كل ما توحشيني أرسمك، قبل ما نتكلم كنت مش عارف أقرب منك ازاي؟ وشوقي ليكِ كل يوم بيزيد، بقيتِ مسيطرة على تفكيري وقلبي ومابقتش عارف أفكر غير فيكِ، في نفس الوقت خايف أقرب بشكل مندفع تفهميني غلط أخسرك، كنت بقربلك بإني أرسمك وأحكيلك قد إيه بحبك ويتهيألي كمان إن ممكن تكوني حاسة بيا وسامعاني.. مجنون مش كده؟

-يا ريتني قابلتك من زمان!

- يمكن لو قابلتيني زمان ماكنتيش حبتيني.. أكيد الوقت اللي ربنا اختاره هو الوقت المناسب.

-صحيح.

-كنت بقا أقول فريدة وهي بتضحك شكلها ازاي، وهي على البحر شكلها ازاي، حتى لو بتبكي شكلها ازاي.

-لسه هترسمني وأنا ببكي؟!

-أنا رسمتك فعلًا.. شوفي اللوحة دي.

فأزاح الستار عن اللوحة الرابعة، رأته كيف رسم دموعها وأوجاعها واختصر كل سنوات عذابها ببراعة في لوحة، فانهمرت دموعها، كأنّ اللوحة أيقظت جراحها النائمة، فمدّ يديه يمسح دموعها وعيناه تستحلفها ألا تبكي أبدًا وقال بتأثر:

-أنا آسف يا حبيبتي.

-أنا انفعلت.. حسيت اللوحة قوي.

-مش عايزك تبكي على اللي فات.

-يمكن خايفة على اللي جاي.

-اللي جاي ملكنا، ومافيش قوة على الأرض ممكن تبعدنا.. نفسي تصدقيني.

مرّرَ يده برقّةٍ على خدِّها ويده الأخرى تداعب شعرهَا وعيناه تكاد تلتهمها وتتغلغل إلى أعماق أعماقها. أنفاسه تزيد دقات قلبها وتشعل أشواقها فمالت برأسها على كتفه، فاحتضنها بذراعيه، ضمها إلى صدره كأنّه يريد أنْ يخبّئَها بين ضلوعه في أعماق قلبه ولا يسمح لها بالمغادرة أبدًا. أغمض كلٌّ منهما عينيه وذاب في حضن الآخر ليفرَّ من هذا العالم إلى عالم من الحبِّ بحث عنه طويلًا... دقائق تساوي عمرًا بأكمله، وفجأةً أفاق كلاهما على صوت تصفيق. ابتعدت فريدة عن حضنه مفزوعة وتراجعت إلى الوراء خطوات وعيناها نحو الصوت، بينما التفت يحيى مذهولًا إلى صوت التصفيق، إنّها «ندى» تقف مبتسمة ابتسامة ساخرة وتصفق..! مفاجأة أدهشت فريدة ويحيى، فسألها يحيى باشمئزاز:

-ـ انتِ بتعملي إيه هنا؟!

-جيت أحضر اللحظة الرومانسية الجميلة.. أنا حتى أخدت صورة حلوة قوي وهي في حضنك يا يحيى.. تجنن.

وبدأت تقلب هاتفها في استفزاز،

بينما فريدة واقفه مرتبكة ومذهولة من حديثها، أمايحيي فلم يطق كلامها؛ اختطف منها الهاتف وقذفه في الأرض وحطمه بقدميه، وقال وهو في قمة الانفعال:

ـ اخرجي بره.. مش عايز أشوفك تاني أبدًا.

ـ لكن تشوف الحقيرة دي.. طبعًا ما هي أكيد معاك هنا كل يوم.

فصفعها على وجهها صفعة قويّةً وزجها بعيدًا طاردًا لها، وطالبها بالمغادرة فورًا، فقالت وهي تبكي:

ـ حاضر.. بس أقسم بالله أدفعك تمن القلم دا غالي.

أخذت هاتفها المحطم وغادرت، بينما فريدة انزوت إلى جانب ووجهها للحائط ويدها تتكئ عليه. هرول يحيى إليها بعد أن غادرت ندى وهو يعتذر ويتأسف، نظرت إليه في خجل بالغ، وقالت:

ـ ماكانش لازم آجي هنا.

ردّ يحيى بانفعال:

ـ احنا ماعملناش حاجة غلط.. دي واحدة مجنونة.

لم تكن فريدة قادرة على الحديث وطلبت منه المغادرة. أوصلها إلى بيتها وهي في حالة من الغضب والضيق، لم تتكلم طوال الطريق رغم أنّ «يحيى» حاول أنْ يبسّطَ لها الأمر. عادت إلى بيتها وعاد هو إلى بيته وهو لا يصدق هذه العدوانية التي أصبحت عليها «ندى»، دمرّتْ حياتها وتسعى جاهدة أنْ تفرّقَ بينه وبين فريدة، كأنْ لم يبقَ لها هدف في الحياة إلا أنْ تدمّر ما بينه وبين حبيبته. تساءل كثيرًا عن ما أصابها، لماذا تتمسك برجل رفضها، أهذه هي حقوق المرأة التي استفاضت في الحديث عنها، أليس من حقوق المرأة أنْ تحفظ كبرياءها؟

أين هذه الكبرياء وهي تلهث خلف رجل يرفض حبَّها ومشاعرها؟

أصبحت لغزًا يحيّره، ويؤرّقه، وربما يصيبه بالغثيان. لقد تعامل معها بعنف لم يكن يريده، ولكن كان هذا العنف هو الحل الوحيد أمام وقاحتها التي فاقت الحد، فكان لا بُدَّ أنْ يضع لأوهامها حدًّا لعلّها ترتدع.

....

عادت «ندى» إلى بيتها وهي في حالة تقترب من الجنون، لا تصدق أنّ يحيى يفعل بها كلَّ هذا مِنْ أجلِ «فريدة».. إلى هذا الحد فقد عقله أمامها، أصبح كالدمية هي من تمسك كلَّ خيوطِه، فعلت فريدة به في شهور ما لم تسطع أنْ تفعلَه هي في سنوات. وقفت أمام مرآتها ويدها على خدها الذي صفعه بكلِّ قسوةٍ، وانهمرت دموعها بغزارةٍ بقدرِ ما في قلبِها من مرارة، وقلبها بداخله مشاعر جديدة تتعملق في دقائق لتملأ كلَّ ذرّةٍ في كيانها... مشاعر أصبحت أقوى وأهم من حبّها ليحيى.. مشاعر مدمرة لن تبقى في أعماقها لتهدم حياتها، بل ستهدم حياة هذا الجاحد الوقح. كان وقحًا في رفض حبِّها.. وقحًا في طردِها مِنْ حياتِه وكأنّه نسي مِنْ تكون مِنْ فرْطِ حبِّها له، تناست أنّها ابنة عائلة كبيرة ووالدها أغنى من والده، وشرف له أنْ تحبَّه، ولكنّه لا يهوى إلا الحقيرات.. التافهات مثله لا ينجذب إلا لهذه النوعية من النساء. عاهدت نفسها أنْ تثأرَ لقلبِها ولكرامتِها، ما خلق بعد هذا الرجل الذي يستهين بها، لن يهنأ بأيّ شيء في حياته بعد اليوم، بقدر ما أحبته ستنتقم، ولن ترحمَه أبدًا.. لن ترحمِه أبدًا....

....

عادت «فريدة» إلى بيتها، وقفت أمام مرآتها وتذكّرت تلك اللحظات التي مرّت عليها بين ذراعيه، وهي تسمع دقات قلبه تعزِف اسمها في لحنِ الحبِّ الخالد ابتسمت وكأنّ روحها ما زالت تشعر بالنّشْوةِ. دقّ قلبُها كأنّها ما زالت بين ذراعيه في حضنه الدافئ غارقة في فيض حنانه، ولكنّها سرعان ما رأت شبحَ «ندى» يقف خلفها في مرآتها. استدارت وقلبها ينتفض؛ تخشى أنْ تراها في حجرتها، فلم تجدها، انهمرت دموعها وعادت تنظر في مرآتها، فتدفقت دموعها أكثر وأكثر، ورأت «شريفة» خلفها، فانتفضت مرّةً أخرى واستدارت مسرعة فلم تجدْها، فجلست على سريرها تلوم نفسها.. كيف انساقت وراء مشاعرها ووافقت أنْ تذهب إلى فيلا ونسيت أنّه ليس مكانًا عامًّا. في الحقيقة هي لم تنسَ ولكنّها تناست؛ لأنّها تثق فيه وتثق في نفسها، ولكن مجيء «ندى» أثبتَ لها أنّ مجرّدَ وجودها معه في مكان خاص شبهة وسقطة تستوجب أن تدافع عن نفسها... خجلت أنْ تحكي الموقف لوالدتها أو أختها، لن تقول شيئًا؛ لقد خالفت تعليمات شريفة الواضحة لها بأنّ أيَّ مقابلةٍ مع يحيى تكون في مكان عام، أول مرة تخالف تعليمات «شريفة»، وهكذا جاء العقاب سريعًا. لقد جاءت «ندى» لتذكرها بأنّها لم تكن على قدر ثقة والدتها بها، لأوّلِ مرّةٍ تكون غير جديرة بالثقة، ولأوّلِ مرّةٍ تضطر لأنْ تخفي سرًّا عن

والدتها، سيبقى هذا الموقف سرًّا؛ لأنّ شريفة لو علمت هذا السر ستنزع عنها الثقة إلى الأبد، وهو أمر صعب وشديد القسوة على نفسها. قررت ألا تخبر والدتها، ولكن لن تخالف تعليمات شريفة مرّةً أخرى أبدًا لن تفعل.. إنّه قرار، مهما كان ضعفها أمام «يحيى» لن تسمح له بأنْ ينزعَ منها ثقة والدتها أبدًا؛ ثقة «شريفة» تاجٌ على رأسها دائمًا تتباهى به منذ صغرها وعلاقتها بشريفة ليست علاقة أمٍّ وابنتها.. ربما تكون كل منهما توْأمَ الأخرى، شريفة ليست فقط الأم، إنّها الأم والصديقة والحبيبة، إنّها كلُّ شيء ولن تحتملَ نظرةَ اللومِ في عينيها، ولا يمكنُ أنْ تكونَ سببَ ضيقٍ لها أبدًا، ستبقى دائمًا عند حسنِ ظنِّها كما عوّدَتْها وكما عاهدَتْها.

....

عادَ «وليد» إلى القاهرةِ بعدَ أنْ أنهى أيامَ الغربةِ إلى الأبد.. عاد إلى الوطنِ بعد أنْ حقّقَ الثراءَ الذي يطمحُ فيه في سنواتٍ معدودة بفضل ذكائه الخارق، واقتناص كل الفرص المتاحة، وربما خلقَ الفرصَ وهو ما لا يقدْر عليه الكثيرون.

انطوت صفحات الغربة، وأخيرًا سيحيا بين أهلِهِ مرّةً أخرى، لقد ماتت زوجته الخليجيّة بعد أنْ منحَتْه كلَّ ما تملك. لقد عشقتْه وهكذا المرأة حينما تعشق لا تفكر، تذوب كلُّ أفكارِها مع دقات قلبها، إلى أنْ تصبح بلا عقل، مشاعرها تقودها ولا يعنيها إلا أن تعشقَ وأنْ تذوبَ أكثر في هذا العشق. هكذا أحبته زوجته الخليجيّةُ، لم يحبها، ولكنّه احتاج إليها ليصلَ إلى الثراءِ في أقصر وقت ممكن. كانت أيام غربته تمر في هدوء يصل إلى البرود إلى أنْ ظهرت هي في أيامه، امرأة تتجاوز الخمسين من عمرها، ولكنّها تبدو محتفظة بجمالها ورشاقتها، طويلة القامة، ذات ملامح تبوح بجمالها. ثراؤها واضحٌ في ثيابها ومجوهراتها وفي عمليات شدِّ الوجه الواضحة في كلِّ تفاصيل وجهها، خدّاها المتكوران من البوتكس، وشفتاها المنتفختان كأنّها تشتاق لقبلات ساخنة.. التقى بها صدفة في إحدى المولات الكبرى، لاحظ أنّ عينيها معلقة عليه.. كانت جريئة في نظراتها، فلفتت انتباهه بجرأتها، عيناها ترسل النظرات الجريئة فبادلها هو الآخر النظرات وشعر برغبة شديدة في التحدث معها. فسقط هاتفها أو ربما هي من أسقطته عمدًا، وبدت كأنّها غير منتبهة لما سقط من يدها فأسرع إليها والتقطه من الأرض وقدّمه لها، فشكرته كثيرًا وعرّفته باسمها فأخبرها باسمه.. هكذا كانت المقابلة الأولى. أخبرته أنّها رأته سابقًا

ولا تعرف أين، فأخبرها بمكان عمله، وهكذا عرفت أين يعمل، ليجدها بعد يوم واحد في المستشفى، وعاودت السلام والتحية، ولكن هذه المرة تبادلا أرقام الهواتف بدون أسباب.. يبدو أنّ المرأة في هذا السن إن أرادت التقرب إلى أحد لا تنتظر طويلًا وكأنّها تخشى أنْ ينفد العمر قبل أنْ تصلَ إلى ما تريد! وبدأت حكايته معها وبدأت تتوالى المحادثات واللقاءات، شعر بإعجابها.. قرأ شوقها إليه في كلّ نظرة، كانت عينها تحكي له الكثير وما كان عليه إلا أنْ يلبّي النداء، بادلها نظرات الإعجاب، وتصنع اللهفة والاشتياق، رأت في شبابه حياة جديدة تعوضها أيام شبابها الضائعة، تقرب إليها شيئًا فشيئًا وهي تسعد وتخطو نحوه بخطوات أكبر، وأصبح بينهما حوار يوميٌّ على الهاتف، يمتد إلى ساعات؛ تخبره بتفاصيل يومها، وتتألم له من وحدتِها بعد وفاة زوجها، تملك كلَّ شيء إلا الحب، الوحدة تلون كلَّ ما حولها بلون أسود قاتم، لقد ضحّت من أجل زوجها بأمومتها حتى لا يشعر بعجزه، ولكنّها الآن تدفع ثمن هذه التضحية، الوحدة تلتهم أيامها بلا رحمة. كان يستمع إلى شكواها ويتألم لألمِها ويعدها أنّ أيامَ الألمِ قد مضت. كان يحدّثُها هو أيضًا عن وحدته في الغربة.. عن برودة أيامه هنا وقسوة الغربة، وهي تخبره أنّ أيَّ مكانٍ يمكن أنْ يكونَ وطنَه إذا كان فيه من يحبه.

حدّثَته عن أقاربِ زوجها الذين يرصدون تحركاتها، ويرغب الكثيرون منهم أن يتزوجونها، ولكنّها لا ترغب؛ لأنّها لا تحب أيًّا منهم، وأنّها إنْ تزوّجت مرّةً أخرى لن تتزوج إلا من تحب. حدثها عن زوجته المصرية التي لا تقدر كفاحه ولا تشاركه طموحه، فتاة صغيرة لا ترتقي أبدًا إلى مستوى تفكيره، أخبرها أنّه يتمنى أنْ يتزوّجَ امرأةً ناضجةً، مكتملة الشخصية والتفكير، فسألته بوضوحٍ: هل يمكن أنْ يتزوّجَ بامرأةٍ أكبر منه سنًّا؟

سألته بشكلٍ عام وهو يعلم أنّها تسألُ لتطمئن قلبها، وأجابها بما تريد، أجابها أنّ السنَّ رقم فقط، فعادت تسأل: حتى لو تجاوز هذا الفارق خمسة عشر عام؟

فأجابها أيضًا بما تريد؛ إنّه رقم فقط.. الأهم من هذا كلِّهِ التوافقُ في الأفكارِ، أنْ يكملَ كلّ منهما شخصية الآخر. تصوّرتْ أنّه يحبُّها وهو يعلم أنّها تحبه وأنّ سنوات يأسها تنادي بلهفة سنوات شبابه، تأخّرَ أنْ يطلبَ منها الزواج، تركها تحترق شوقًا تركها تذوب عشقًا، إلى أنْ يذوب عقلها أيضًا، فاعترفت له بحبِّها، وعندها طلب أنْ يتزوّجها، وتم الزواج، وبعد الزواج بفترةٍ خافت أنْ تفقدَه، وأرادت أنْ يكونَ لها وحدها، وطلبَتْ ـ صراحةً ـ أنْ يطلّقَ زوجَته المصريّة.

لم يفكر وليد طويلًا، لقد اختار عقله أنْ ينجَحَ مشروع زواجَه الرابح... إنّها صفقةُ العمرِ، نفذ رغبتها ولم يخالفْ لها رغبةً طوال حياته معها، ما كانت تريد إلا حبه وشبابه لتعود بعمرها سنوات إلى الوراء، وكان هو يريد أموالها التي تغدقها عليه بلا حساب، كل منهما وجدَ ضالّته في الآخر، فكان زواجهما ناجحًا جدًّا...

أحبته كثيرًا لدرجة أنّها كتبت له كلَّ ثروتها؛ لأنّها كانت سعيدة معه، حتى حينما غادرت الحياة ماتت دون مرض أو داء، ماتت بعد ليلة ساهرة ممتلئة بالحب والقبلات والأحضان، كأنّها ماتت من فرط السعادة، غرقت في الحب إلى أنْ نفذت أنفاسها، وما عاد قلبها العجوز يحتمل كل هذا الحب، رحلت في هدوء راضية بأيامها معه، وأخذَ مقابلَ أيّامِه معها وعاد إلى مصر، لم يعد هناك ما يدفعه إلى الغربة. لقد حقّقَ ما يريد في وقت قياسيٍّ.

....

الفصل الحادي عشر

كعادتها دائمًا إذا حزنت احتجبت عنه، لا ترد على مكالماته وكأنّها تعاقبه ويا له من عقاب! يفتقد الكثير في أيِّ يوم لا يسمع فيه صوتها، تعجز ريشته وألوانه ويشتت إحساسه، ويتوقف عقله عن التفكير، ويثور قلبه من الاشتياق. عاد يطاردها من جديد لليوم الثاني على التوالي بمكالمات هاتفية متتالية، وفي نفسِه قرار أنْ يزورَها في البيت إن لم يتمكن من التواصل معها. ذهب إلى مقر عملها وسأل عنها وعلم أنّها متغيبة اليوم، فعاد يطاردها عبر هاتفها إلى أنْ ردّت. ردت عليه بعد أنْ فاضَ شوقه واستبد غضبه، فقال وهو ثائر:

-أخيرًا، أنا حذرتك قبل كدا وقلت لك إياكِ ما ترديش، قوليلي أعمل فيكِ إيه؟!

فردّت بغضب من لهجته العنيفة:

-ليه كل العصبية دي؟! ماتكلمنيش بالأسلوب دا لو سمحت.

فتنهد بعمق كأنّه يطرد غضبه كله دفعة واحدة، وقال بصوت هامس:

ـ وحشتيني وجننتيني معاكِ.

ـ أنا مامسكتش الموبايل من امبارح ومنزلتش شغل وأخدت مهدء عشان أنام ومافكرش.. آدي كل اللي حصل.

- أنا كل الحكاية إني عارف إنك مضايقة وعايز أتكلم معاك.. انتِ عارفة إني مانمتش.. ينفع كده؟!

-طيب يا يحيى.. أنا بخير.. يا ريت انتَ كمان تنام وتستريح ونتكلم بالليل.

- أنا عايز أشوفك.

- انتَ مش بتقول تعبان ومش نايم؟ راحتك أهم.

-طيب ممكن لو سمحتِ تريحيني بإني أشوفك.. أرجوكِ.

لم تستطع أنْ ترفضَ طلبه، وذهبت إليه في إحدى الكافيهات المطلة على النيل كان في انتظارها بكاملِ أناقَتِه، ورائحة عطره الرائعة النفّاذة تملأ الهواء حوله.. ابتسم بمجرد أنْ لمحَها، ووقفَ تحيّةً لجمالها وسحرها الأخاذ. جلست في هدوء بعد أنْ صافحته، صمتت وكأنّها لا تعرف ماذا تقول، فتولّى عنها المسئولية، وقال برقّة بالغة:

ـ أنا آسف على موقف امبارح، ومش عايز الموقف دا يضايقك ولا ثانية.. إن شاء الله المعرض الشهر اللي جاي بعد المعرض هنتجوز.

فردّت بعينيها، وكأنّها لا تصدق ما يقول، وعيونها تسأل في لهفة: وماذا عن والدك؟.. ولكنّها لم تسأل هذا السؤال؛ إنّها تخشى الرد.. تخشى الرفض، في قلبها شعور أنّ والده سيعارض زواجه من مطلقة، فقالت:

ـ جواز على طول؟! لما نتخطب الأول.

- مش محتاجين خطوبة.. خلال شهر نتجوز.

ـ واحدة واحدة.. دا إيه اللي نتجوز في شهر!

- أنا عندي الفيلا جاهزة.

ـ الفيلا اللي فيها المرسم؟!

- لا، فيلا تانية أكبر وأجمل بكتير.

ـ دي فيلا والدك؟

- لا يا حبيبتي.. دي فيلا بتاعتي وباسمي.

- مش لازم أنا كمان أكون جاهزة؟

- قوليلي إيه اللي عايزاه وهيجهز في أيام.

ابتسمت كأنّها ترى في عينيه عالماً بلا قيود، طريق حب ممهد بلا عقبات، لا تملك إلا أنْ تصدّقَ حبَّه ومشاعره، وتنتظر إلى أنْ ينتهي من المعرِض لتبدأ رحلة السعادة. وبينما هما جالسان يتبادلان النظرات وحديث العشق الممزوج بآهات الهيام والشوق، انتبهت فريدة إلى صوت يقول لها:

ـ مش معقول! ازيك يا فريدة؟

صمتت قبل أنْ تلتفِتَ إلى يسارها، الصوت ليس بغريب عنها. التفتت ببطء بينما «يحيى» يعلق بصره على الشاب الذي يحيي حبيبته في امتعاض، التفتت إليه.. إنّه «وليد»! الغربة زادت ثراءه، زادت شموخه وغروره، ولكن يبدو شبابه منكسرًا منهكًا، كأنّه كبر سنوات وسنوات فوق عمره. قالت بصوت متأفف بابتسامة باردة:

ـ الحمد لله يا دكتور.

بينما هو ينظر إليها بلهفة وانبهار كأنّه يراها لأول مرة، عيناه متسعة كأنّها تفحص كل قطعة في جسدها الذي يضج أنوثة وشبابًا، ويحيى يراقب نظراته بغيظ. مدَّ «وليد» يده لمصافحتها، فمدت أطراف أصابعها في تردد وسرعان ما سحبت يدها كأنّها تخاف عليها أنْ تتلوّثَ بين أصابعه، وقالت وهي تنظر إلى يحيى:

ـ دكتور وليد.

ثم قدمت يحيى إليه قائلة:

ـ أستاذ يحيى. وما استطاعت أنْ تقدّمَه بكلمات أخرى، في هذه اللحظة تمنت لو قالت إنّه زوجها، ولكن ما بينهما ما زال حبًّا فقط لم يتوج بصفة رسمية.

نظر «وليد» إلى يحيى نظرة فاحصة، مستاءة، مستهزئة، وبادله يحيى النظرة نفسها المستاءة، ولم يتصافحا بالأيدي، وهزَّ كلٌّ منهما رأسه للآخر وعين كلٍّ منهما تتحدى الآخر كأنّ كليهما يتنافسان على قلب فريدة..!

انصرف وليد، بينما فريدة بدت مرتبكة، وشعرت أنّ يحيى يفيض ضيقه لدرجة أنّه يمنعه من الكلام، فقالت:

ـ دكتور وليد دا طليقي.

فهزّ رأسه قائلًا:

ـ أنا خمنت بردو كدا.. هو مش كان في الخليج.. إيه اللي جابه؟!

ـ ما أعرفش ومايهمنيش أعرف.

فصمتت ونظرت بعيدًا وهي تتساءل بينها وبين نفسها: لماذا يتضايق إلى هذا الحد؟ إنّه يعرف أني مطلقة.. لماذا يبدو وكأنّه يعرف هذا الأمر لأول مرة؟!

فعاودت النظر إليه، رأته سارحًا ينظر بعيدًا، كان كيانه مزلزلًا برؤية زوجها السابق، فقطعت شرود أفكاره، وقالت:

ـ مالك يا يحيى؟!

فقال بعصبية بالغة قبضت قلبها:

- البني آدم دا سخيف وسمج وبجح كمان.. دا كان هياكلك بعينيه ولما هو بيحبك كدا طلقك ليه؟! كل ما أحس إني البني آدم دا كان جوزك بحس إني هتجنن.

- واضح إنك لازم تعيد تفكير في موضوعنا كله يا يحيى.. سلام.

همت أنْ تغادرَ وهي تشعر أنّ ما أقنعها به سابقًا يتبخر بمجرد رؤية زوجها السابق، فأمسك يدها،

وقال منفعلًا:

ـ انتِ رايحة فين؟! اقعدي يا فريدة، وإيه الكلام اللي بتقوليه دا؟!

جلست والغضب بدأ يتملكها، وقالت:

ـ والله شوف انتَ بتقول إيه.. أنا علاقتي إيه بتصرفه؟! أنا مش شايفة إنه عمل حاجة غلط.

فرمقها بنظرة غاضبة، وقال بهدوء مصطنع:

ـ والله! طب سلم عليكِ ليه؟

ـ معرفش، ومش لازم تفكر فيه أصلًا.

صمت قليلًا وكأنّه يحاول أنْ ينساه، ألا يفكر فيه كما نصحته، ولكنّه سرعان ما تذكر نظراته إليها، لم تكن نظرة عابرة.. لم تكن نظرة بريئة قطُّ، لأنّه رجل فهم معنى نظراته، إنها نظرة طافت بجسدها كله في لحظات، كأنّه يحاول أنْ يخترقَ ملابسها. تنهد من جديد لعلّه يطرد أفكاره المزعجة، وقال بصوت منخفض:

ـ اتهيألي إنه بيحبك.

ـ هو أكيد مابيحبنيش، وحتى لو بيحبني.. اللي يهمك إحساسي أنا، لو مش واثق فيا يبقى مافيش داعي نشوف بعض تاني.

تنهد بعمق ليطردَ كلَّ غضبه، ويستجمع هدوء أعصابه، إن غيرته عليها كادت تطيح بعقله، فقال:

ـ أنا آسف يا حبيبتي، فعلا آسف.. أنا بحبك وبغير عليكِ وخصوصا من الكائن دا.. كان نفسي نكون ارتبطنا فعلًا في اللحظة دي.

ـ وأنا كمان يا يحيى.

ـ قريب قوي يا حبيبتي، المهم الشخص دا ممكن يحاول يكلمك تاني، ولو حصل قوليلي وأنا هتصرف.

ـ خلاص يا يحيى، هنفضل نتكلم عنه وبس؟! بجد مش معقول اللي بيحصل دا!

ـ عندك حق.

ـ احكيلي بقا عن المعرض.

ابتسم وتبدّد غضبه، وابتسمت هي أيضًا، إنّها استطاعت أنْ تغيّرَ دفة الحوار إلى حبه الأول.. إلى فنه، هكذا تنفرج أساريره وتلمع عيناه وتتسع ابتسامته حينما يتكلم عن لوحاته.. كأنّه يهيم عشقًا بكلِّ واحدة منهن، ويحكي عن كلِّ لوحة كأنّها فتاة جميلة يصف مفاتنها بكلِّ دقة، وبأرق الكلمات، وأجمل العبارات. انتهى اللقاء، ولكن لم ينته الحديث. إنّ حديثهما يمتد ساعات طويلة عبر الهاتف، وكأنّ ما لديهما من حديث لا يكفيه ساعات وساعات. دائمًا هناك ما يقال، حتى في نهاية كل محادثة تنتهي؛ لأنّ الوقت تأخر والصباح أوشك.. لا لأنّ حديثهما نفد؛ فكلمات العشق لا تنفد أبدًا ما دامت الأشواق مشتعلة.

....

جلس «وليد» يحدث نفسه بصوت عالٍ:

ماذا حدث؟ ماذا أصابك؟ كأنّك تود لو تطلق طلقة في رأسك لتفجرها! كأنّك تود لو تطلق طلقة في قلبك لتطهره.. كأنّك تراها لأول مرة وتلعن نفسك آلاف المرات..! هل ازدادت جمالًا.. هل ازدادت صبًّا.. هل تندم الآن على أنّك خسرتها؟

ولماذا تندم؟! تستطيع أنْ تخطو فوق قلوب الجميلات، النساء جميعهن يعشقن المال ولقد أصبحت تملك ملايين الأموال، يكفي أنْ تبتسمَ لأيّ فتاةٍ مهما كان جمالها أو عمرها أو مكانتها في المجتمع.. ستحبك، نعم أيّ امرأة ستحبك، بل ستعشقك بجنون الأموال تفتح كلَّ الأبواب المغلقة، وتحل كلَّ المسائل العالقة، وتداري أيّ عيوب في صاحبها مهما كانت، ولكن.. هذا لن ينسيك أبدًا أنّ فريدة بين كلِّ نساء الأرض لا يمكن أنْ تحبك.. لا يمكن أنْ تنخدع ببريق أموالك أبدًا.

صمت حديثه، وضاق صدره، وشيء في أعماقه يلومه بعنفوان لا يقاوم... هل ضميره.. هل حنينه.. هل حبه.. هل غيرته؟

عاد يسأل نفسه بصوت عالٍ من جديد:

وأين كان هذا الضمير وأنتَ تطلقها بدون سبب؟! وأين هذا الحب وهي ترجوك أنْ تأتي إليها أو تسمح لها أنْ ترافقك في الخارج؟!

أين هذا الحب وأنت تبيع عمرك لعجوز متصابية؟

أبدًا أنا لا أحب فريدة.. لا أحبها، ولا أغار عليها؛ لأني لا أحبها، ولكني ما زلت أختنق منذ أن رأيتها، أختنق كما لو أنّ يدًا باطشةً تكتمُ أنفاسي، وتحجبُ الهواء عن رئتيّ لأموت..!

صمت من جديد، وعقله يحاول أنْ يفهمَ سببَ ما يعانيه.. حاول أنْ يعصرَ ذهنَه ويتذكر كلَّ لحظةٍ مضت وهو أمامها. تذكر نظرة عينيها.. يا لها من نظرة! لم تكن نظرة غاضبة أو لائمة أو حاقدة، بل كانت نظرة فيها غرور وكبرياء وربما شفقة.

عندها جن جنونه، وعاد يتحدث إلى نفسه بصوت مسموع:

هل مظهري أنا يثير الشفقة؟

هل تعلم عمر زوجتي الراحلة فأشفقت عليّ؟

هل تعلم أنني كنت أرضيها في كلِّ ليلة دون أن ترضي لهفتي إلى جسد يضج بالحياة؟

هل هذا واضح في عيني لهذا أشفقت عليّ؟

لا يمكن، هذا جنون..!

هل يؤلمني أنّها عرفت كيف تحيا بعدي؟!

لم تذبل.. لم تحزن، بل ازدادت حيوية، وشبابًا.

صمت من جديد، ولكن صورة «يحيى» تطوف حوله لتشعل غضبه من جديد، شعر كأنّه يجلس أمامه، فعاد يكلّمُ نفسَه من جديد:

من هذا الشاب.. هل هو حبيبها.. أم زوجها؟

هي لا تلبس خاتم خطوبة أو زواج.. إذن هو ليس خطيبها ولا زوجها، ولو كان كذلك ما أخفت، بل كانت ستقول بتباهٍ واعتزاز. لم تقل إلا أنه «يحيى».. إذًا هو حبيبها، إنّه الحب الذي زادها شبابًا وبريقًا وأنوثة، وأنا الماضي السخيف الذي لا يستحق أنْ تَذْكُرَه!

صمتَ تمامًا وكأنّه استسلم لاحتقارها له، ولكن سرعان ما تذكر «يحيى» من جديد لا بد أنْ يبدو هو أيضًا حقيرًا أمامها، لتعلمَ أنّ الحبَّ ضعيفٌ؛ أيُّ حبٍّ ضعيفٌ أمامَ المالِ.. لا بد أنْ يكشفَ حقيقة يحيى هذا أمامها، ولعلّها لو علمت حقيقة حبيبها لاحترمته هو.. نعم يجب أنْ تحترم طموحه، تحترم ذكاءه، تحترم كفاحه من أجل أنْ يحيا حياة مرفّهةً، إذا لا بد أنْ يعرفَ مَنْ هو يحيى، ويظهر لها يحيى الذي لا تعرفه ليس على هذه الأرض ملائكة، كلنا مذنبون أو شياطين.. هل يحيى مذنب أم أنّه الشيطان شخصيًّا؟!

....

قابلها من جديد، وكما هو حال لقائهما؛ عالم من الحب بلا قيود، دنيا من العشق بلا حدود، ليس فيها إلا الورود وحلو الوعود.. سألته فريدة عن نفسه؛ تريد أنْ تعرفَ أكثر عنه، ماذا كان في حياته قبلها؟

سألته عن طفولته، فأخبرها أنّ والدته رحلت وهو في العاشرة من عمره، افتقدها وافتقد الحنان والأمان معها.. أصبحت حياته مع مربية الأطفال، وكلّما ارتاح قلبه إلى واحدة واعتاد عليها، تركت عملها لأيِّ سبب، ويعود من جديد يتعرف على أخرى ويعتاد عليها، أمّا والده فكان منشغلًا بعمله، وتجاربه العاطفية الكثيرة، بعض منها انتهى بالزواج، لكنّه ما استقر في زيجة أكثر من عام، إلى أنْ ملَّ النساء جميعًا ثم كبر «يحيى» وملأ حياته برفقاء كثيرين، ولكن لم يرتقِ أحدٌ منهم إلى لقب صديق إلا واحدًا فقط هو «منتصر».

سألته عن الأقارب، فأخبرها أنّ له عمًّا توفي منذ سنوات، وابن عمه الدكتور «شادي» هو أقرب الناس إلى قلبه رغم اختلافهما في كلِّ شيء. شادي شخصية منضبطة، عمره كله بين الكتب والدراسة التي لا يملها أبدًا، يحب مهنته بجنون، سافر إلى إنجلترا واستقر هناك منذ خمس سنوات، ولكن ما زالت بينهما علاقة وطيدة وتواصل مستمر. كانت فريدة مستمتعة وهي تسمع حديثه عن نفسه، فدفعها الفضول أنْ تسألَ سؤالًا يهمها، فقالت:

ـ ممكن أسأل سؤال وترد عليها بصراحة؟

- ماتسأليش في امبارح.. اسأليني عن المستقبل.. عن حبنا ومستقبلنا سوا.

- حبيت كام مرة؟

- مرة واحدة.. انتِ بس.

- معقول؟!

- طيب اسمعي قلبي كدا هتلاقيه بيقول فريدة.. فريدة وبس.

- يا ريت تقولي كل حاجه عنك.. مابحبش المفاجآت.

ـ ما أنا قلت كل حاجة من أيام طفولتي، بس لسه في حاجة مهمة ماقلتهاش.

- إيه؟

- أنا مابحبش وأنا معاكِ أتكلم عن أيّ شيء غير حبنا.. ليه أتكلم معاكِ عن الناس وأنا وانتِ الناس والدنيا كلها؟! لو سمحتِ سيبيني احبك بطريقتي وماتضعيش الوقت اللي بشوفك فيه في كلام مش مهم.. ممكن؟

ـ ممكن.. بس توعدني إنك تفضل تحبني.

- أوعدك إن عمر عنيا ما تشوف ولا تعشق غيرك، ولا قلبي عمره يدق بحب غيرك ولا أي ست في الدنيا تبقى مراتي غيرك.. أنا ملكك لآخر يوم في عمري.

....

طرقت السعادة بيت «شريفة» من جديد، وجاء يوم خطبة علياء وشريف في حفل عائلي بسيط، الود والمشاعر الجميلة تلف الجميع، وعلياء في أوج جمالها في فستان جميل تجلس إلى جوار خطيبها المنتشي، وحديث هامس بينهما لا ينقطع، بينما شريفة تتحدث إلى الدكتور عادل، ويتواجد بعض صديقات العروس وبعض الجيران وقليل من أقارب العروسين، وفريدة تراقب الساعة، وتقلب في هاتفها تنتظر قدوم يحيى، تأخر كثيرًا، إلى أن دق الباب. هرولت إلى الباب لاستقبال الضيف، ولكنّه لم يكن هو، إنّه وليد..! ارتبكت وبدا غضبها، ولم تتمالك أعصابها، وقالت باستياء:

ـ انت ازاي تيجي هنا؟!

فقال ببرود:

ـ لازم أبارك لعلياء، مهما كان احنا كنا أهل.

لم ينتظر أنْ تسمحَ له بالدخول، تركها واقفة في ذهول عند الباب ودخل لتهنئة العروسين، وسلم على العروسين والحضور، وجلس ببرود دون أنْ يرحّبَ به أحد فهمس «عادل» في أذن شريفة متسائلًا:

ـ مين دا؟

فردّت بضيق بالغ:

ـ وليد طليق فريدة.

اندهش عادل ولم يعلق، وبدا الارتباك على الأسرة كلها. بينما وليد يجلس في هدوء وهو يتلذذ بمضايقتهم، أمّا فريدة فوقفت بعيدًا بجوار الباب تنتظر يحيى ولا تعلم كيف سيكون الموقف عندما يراه. وقفت قريبة من الباب، بينما وليد يراقب حيرتها وعيناه عليها ولا يعبأ بنظرات الاستياء التي تحاصره من الجميع. وصل يحيى وعلى وجهه ابتسامة هادئة. استقبلته فريدة، تأملها بعيونه العاشقة.. تأمل ملامحها الرقيقة، ومكياجها الهادئ، وفستانها المحتشم الطويل بلونه الأحمر الجميل. بدت في عينيه كأميرة تنزل من عرشها لتصافحه، ولكن شعر برعشة يديها بين يديه، يديها باردة، وعيونها زائغة، انتبه إلى ارتباكها، فسألها:

ـ انتِ مضايقة عشان اتأخرت؟! معلش حبيبتي.

رمقته بنظرات حائرة، وكأنّها تستجديه ألا ينفعل، فابتسم متسائلًا:

ـ إيه.. مش تقولي اتفضل.. هفضل كدا على الباب؟!

هزّت رأسها وأشارت له بالدخول، وما زالت واقفة مكانها. دخل يحيى لتهنئة العروس وتحية الحضور. سلم على العروسين بحرارة إلى أنْ انتبه إلى وجود وليد.. رمقه بنظرة غاضبة مندهشة، بينما وليد استقبل نظرته بابتسامة ساخرة وبرود متناهٍ. سلم يحيى على الحضور وتجاهل وليد تمامًا كأنّه لا يراه... جلس صامتًا وعيونه تعاتب فريدة وهي ما زالت واقفة في مكانها بعيدًا. قرأت غضبه، فجاءت لتجلس بجواره ولا تعرف ماذا تقول.... بعد نصف ساعة استعد يحيى للمغادرة دون أنْ يتحدّثَ بكلمة واحدة معها. ادعى أنّ لديه موعدًا هامًّا، وسلّمَ على العروسين وعلى شريفة والدكتور عادل، وهرولت خلفه فريدة لتودعه، وعند الباب قالت:

ـ يحيى، أنا عايزة أفهمك اللي حصل.. أنا...

ـ بعدين يا فريدة مش وقته.

ـ نتكلم في التليفون؟

- أنا عندي كام مشوار.. مش عارف ظروفي إيه.. سلام.

انصرف وهو غاضب، إنّها تعرِفه جيّدًا؛ ليس هكذا سلامه أو كلامه، كان يحدثها وعيناه تتجاهلها، يدير بصره عنها.. ماذا فهم، كيف يحاسبها عن ذنب لم تقترفه؟!

عادت لتجلس بين الحضور، بينما قلبها وعقلها مع يحيى. جلست لا تكاد أن تسمع الموسيقى الصاخبة التي تضج بها الشقة، ولا تعرف من انصرف ومن بقي، كل ما تريده أنْ يمضي الوقت سريعًا لتحدّثه؛ لا بد أنْ تشرحَ له ما حدثَ سريعًا.

بينما «وليد» ما زال جالسًا يراقبها بتمعّنٍ يكاد يعد أنفاسها، ويحسب لفتاتها، ويقرأ حيرتها،

ويرى الدمعة الحائرة في عينيها التي تجتهد كي تخفيها عن الحضور، إلى هذا الحد تحبه؟!

لماذا تحبه؟!

ما الذي يميزه عن غيره؟!

لقد علم عنه الكثير، ربما علم عنه ما لا تعلمه هي، وما زال يفتش في أسراره ويبحث عن خطاياه حتى يأتي لها بحقيقته كاملة؛ فيوم أنْ تعرفَ الحقيقة ستكسر هذا القيد الزائف الذي تقيّدت به مشاعرها وحياتها.. قريبًا ستعرف كلّ شيء.

بدأ الحضور في الانصراف، وكان «وليد» في مؤخرة المنصرفين، أراد أنْ يتلذّذَ بمضايقتهم أطول وقت ممكن.. انصرف، ثم غادر شريف ووالده، ودخلت فريدة إلى غرفتها أخيرًا.

....

لم يكن هناك شيء يستدعي مغادرة يحيى إلا أنّه لا يطيق أنْ يجلس في مكان واحد مع وليد.. لا يطيق أنْ يراه ولا يعرف من سمح له بالدخول.. لماذا يحوم حولها؟ وماذا يريد؟

عاد إلى الفيلا وجلس في غرفته، لا يريد أنْ يتكلّمَ مع أحد... مضى وقت طويل وهو في جلسته نفسها، لا يهدأ ولا ينام، إلى أنْ علا رنين هاتفه، إنّها هي، لم يرد، ولكنّها لا تتوقف عن الاتصال، ولم يصمد هو في عناده طويلًا، فقالت بلهفة:

ـ أخيرًا يا يحيى، ليه مش عايز ترد عليّ؟!

ـ تعبان وعايز أنام يا فريدة.. مش عايز أتكلم دلوقتي.. ممكن؟

فقالت بصوت باكٍ:

ـ لازم تسمعني يا يحيى.. أرجوك، ماتعذبنيش.

صوتها الباكي هزَّ مشاعره، وقلبه أضعف من أنْ يحتمل بكاءها؛ فقال بعطف:

ـ ممكن بلاش دموع؟!

-ممكن تسمعني؟

-اتفضلي.. هسمعك.

حكت له الموقف كما حدث بالضبط، وهي تبكي وتقسم بأنّ هذا ما حدث.. تقسم أنّ ما أحد دعاه، ولا أحد تحدث معه طوال وجوده في رسالة له أنّه شخص غير مرغوب فيه. وهو يستمع إليها في صمت شديد، قالت كل ما لديها وصمتت، فقال لها:

ـ ممكن ماتبكيش تاني مهما حصل؟

ـ مصدقني؟

- طبعا.

- ليه حاسة إنك لسه متضايق مني؟!

فقال بانفعال:

- مضايق من الكائن الغريب دا.. مش منك، يعني لما يكون بيطاردك بالشكل دا المفروض إني أنبسط يعني؟!

- يحيى، لو ماكنتش أعرفك ولو مفيش أي حد في حياتي، ووليد عايز يتجوزني تاني أكيد مش هوافق، ولو هو آخر راجل في الأرض.. أنا مفيش حاجة في عمري أتمنى أحذفها وألغيها إلا هو، سنين عذاب مايتوصفش.. دا آخر شخص ممكن يضايقك.. صدقني يا يحيى.

ـ بحبك قوي يا فريدة، وعمري ما اتصورت إني أحب للدرجة دي! حتى كلمة بحبك بحسها كلمة بسيطة مابتوصفش مشاعري..!

ـ بحبك.

....

عاد «وليد» بعد أنْ حقّقَ ما أراد، واستفز الجميع.. جلس يتذكر جمالها وأناقتها، حيرتها، ولهفتها، ومشاعرها التي لا تخفي على أحد، وعاد هذا الإحساس الخانق يكتم أنفاسه من جديد، إنّه يختنق.. خرج إلى الشرفة ليستنشق الهواء النقي لعلَّ أنفاسه تنتظم، ودقات قلبه تهدأ. جلس في الشرفة وعادت صورتها تطارده، وسؤال يلح عليه:

لماذا تطاردها.. أنت لا تحبها؟!

فأجاب نفسه سريعًا:

نعم لا أحبها، ولكن لن أقبل نظرة الاحتقار هذه أبدًا.. لا بد أنْ تفهم الدنيا على حقيقتها، إنّ الحبَّ وهم يضحك به الرجال على المغفلات الساذجات، على الأقل أنا لم أخدعها، لقد تزوجت امرأة أخرى وهذا حقي، وهي من أصرت على الانفصال، لكن «يحيى» هذا يخدعها وهي ساذجة لدرجة أنّها تصدق كلامه المعسول، ستفيق على حقيقته لتفهم الحياة كما يجب أنْ تفهمها، وترحم قلبها من الأشواق ولوعتها وتدخر مشاعرها لما فيه مصلحتها ، سأعلّمها درسًا جديدا لن تنساه أبدًا.

....

الفصل الثاني عشر

الأيام تمر صعبة على «ندى»، أيام بلا طعم ولا معنى، مجرد ساعات وأيام تبدأ وتنتهي، بلا هدف.. بلا إحساس.. بلا لحظة سعادة واحدة. انقطعت علاقتها بيحيى، واستقالت من عملها في البنك، وأصبحت تعمل مع والدها في الشركة كما كان يريد حتى تكسب رضاه، العمل يشغل الكثير من وقتها، لكن لم ينسِها يحيى، يبدو أنّ علاقتها به مهما كانت صورتها هي نسيم السعادة، هي العطر الذي يبعث فيها الحيوية، هي النبض في عروقها، كلماتها معه أو عنه هي كل حروفها. ما إن انقطع التواصل حتى شعرت وكأنّ ما بينها وبين الحياة انقطع، لم تنسَ حبَّها له، ولم تنسَ قسوته عليها، لم تنسَ صفعته لها، ولكن كلما حاولت أنّ تكرهه تأبى مشاعرها أنْ تستسلم وتصب كلّ كرهها على هذه الشيطانة التي قلبت حياته وهدمت حياتها... فريدة هي سبب عذابها ولكن ماذا تفعل، أصبح هذا السؤال هو الذي يشغل وقتها، ويملأ تفكيرها وليس لها منه مفر، وأصبح السؤال الملح والحاضر دومًا في ذهنها.

أيّما أسهل.. أنْ تقلبَ فريدة على يحيى، أم أنْ تقلب يحيى على فريدة؟

جلست تفكر وتدبّر، إنّها تملك الصندوق الأسود ليحيى، تعرف خطاياه، أسرار لا يعلمها غيرها، أسرار من نار تحرق حب فريدة ليحيى، وتحوله إلى رماد، ولكن كيف تعرف فريدة ماضي يحيى دون أنْ تبدو هي في الصورة.. لا بد أنْ تقلبَ الطاولة عليهما وهي في الخفاء، دون أنْ يدركَ كلاهما أنّها وراء ما يحدث؛ فريدة لن تصدّقَ منها أيَّ حديث عن يحيى، ستظن أنّها تنتقم من يحيى الذي رفض حبَّها بافتراءات باطلة، أمَّا يحيى لا بد ألا يعلم أنّها وراء فقدان حبيبته حتى لا يكرهها. إنّها ما زالت تريده، ما زالت تحبه وتطمح أنْ تسكنَ قلبه، إنْ خرجت فريدة من حياته، سوف يعلم حينها كم تحبه حبًّا من أجلِ الحبِّ، حبًّا يرضى بكلِّ عيوبه وجنونه وخطاياه، أحبته وهي تعرف كلَّ ذنوبه. كانت تسمع حكاياته وهي تعلم أنّها نزوات، نزوات عمرها ليالٍ أو قد تكون بضعة ساعات، لا يمكن لفريدة أنْ تقبلَ ما قبلته هي، حينها سيقدر حتمًا حبَّها وإخلاصها، سيعلم أنّها فقط من تستحق أنْ تشاركه أيامه وأحلامه.

بدأ عقلها يسترجع الذكريات والحكايات، ويقلّب في صندوق يحيى الأسود، أي منها يكون الورقة الرابحة؟

أي منها تكون الطعنة القاتلة لحب فريدة؟

لا بد من طعنة نافذة لا ينجو منها الحب أبدًا. جلست وغيرتها من فريدة وحقدها عليها يرسم لها ملامح خطتها ببراعة فائقة. بدأت الخطة تنضج في عقلها شيئًا فشيئًا إلى أنْ أصبحت سامة وقاتلة بما يكفي، عندها ابتسمت ثم ضحكت ضحكة مدوية وصفقت لنفسها، ربما تحيي ذكاءها وربما تتخيل فريستها وهي تتمزق ألمًا، ثم قالت لنفسها: من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا.

....

جاء اليوم الذي أعدَّ له يحيى شهورًا طويلة. وقف يستقبل ضيوفه وهو يبدو في كامل أناقته كأنّه يوم عرسه، المكان يضج بالحضور.. بالصحفيين... الانبهار يبدو على وجوه الحاضرين، وعيونه تراقب ردود الأفعال وابتسامته تنير وجهه، ولكن ما زالت سعادته بنجاحه منقوصة؛ لم تحضر فريدة بعد. بين الحين والآخر ينظر إلى ساعته، ويتساءل بينه وبين نفسه: لِمَ التأخير؟

لا يعرف إنْ كان قلقًا عليها أم غاضبًا منها، لكن ما زالَ محتفظًا بابتسامته وهدوئه أمام الحضور، التهاني تنهال عليه من الجميع، ووقف والده متباهيًا بنجاح ابنه، وما إن لمحها «يحيى» قادمة إليه حتى سبقها مهرولًا لا يعبأ بالعيون التي تتابعه باهتمام، إنّها هي فقط من تستحق منه الاهتمام. صافحها بحرارة وعيونه تقبلها وتغمرها بحب لا يحتاج إلى كلمات، أثنى على فستاها الفضي الأنيق الذي يبرز جمالها باحترام كما اعتادت، وشعرها الطويل ينساب في نعومة كأنّه ينصب جمالها الأخاذ على عرش الجمال.. أمسك بيدها يشق زحام الحضور إلى حيث يقف والده، وقفت أمام والده مرتبكة خجولة بينما والد يحيى يرمقها بنظرة فاحصة من رأسها إلى قدميها، فقدّمها يحيى لوالده بابتسامة عريضة ووجه متهلل، قائلًا:

ـ بابا، أعرّفك على فريدة.. أجمل وأرق بنت في الدنيا.

مدّت فريدة يدها لتصافحه باحترام فائق، بينما هو مدَّ أطراف أصابعه في غرور وتكبر، وقال بسخرية:

ـ أهلًا يا مدام.

ثم أدار ظهرَه لهما وتحرّكَ بعيدًا، ووقف أمام لوحة مقابلة لهما. كان رد فعله صادمًا لهما، تبددت ابتسامة يحيى، وقال بصوت مختنق:

ـ بابا مايقصدش.

فقاطعته قائلة:

ـ بعدين يا يحيى.

سارت خطوات إلى أقرب لوحة لها ووقفت تنظر لها، ولكن في الحقيقة هي لم تكن تتأمل اللوحة، لقد رأتها سابقًا، بل كانت تفكر في موقف والد يحيى منها الذي لا يحتاج إلى شرح أو تفسير، أمّا يحيى فقد كبت غضبه وعاد يرسم ابتسامة باهتة ويوزعها بين زوار معرضه، الوقت يمضي ويحيى مشغول مع زوار معرضه، وفريدة تقف وحيدة تتنقل بين اللوحات؛ سعيدة بنجاح يحيى ولكنّها أدركت أنّ أمام حبِّها عقبة كبيرة، وبينما هي سارحة، انتبهت إلى صوت خافت يهمس لها:

ـ رسام كبير جدًّا..!

فالتفتت ببطء شديد وهي تتمنى ألا يكون صاحب الصوت هو الشخص الذي تتوقعه، لكنّه كان هو.. «وليد» نظرت إليه باستغراب شديد، وقالت بعصبية:

ـ انت جاي ورايا ليه؟

ابتسم الابتسامة نفسها الباردة التي كان يبتسمها في خِطبةِ علياء، ابتسامة باردة سخيفة تذكرها بأيامها الباردة معه، ابتسم وعيناه مسلّطةٌ عليها تطوف بملامح وجهها، كأنّ بينه وبين عينيها وشفتيها حوار طويل، ثم قال:

ـ دا معرض يا فريدة.. جيت زي أي حد.. للدرجة دي مابتحبيش تشوفيني؟!

فقالت بنفور بالغ:

ـ آه.. يا ريت تفهم وتحس.

ابتسم مرة أخرى ابتسامته الجليدية، وقال:

ـ بس أنا.....

وإذا بيحيى يضع يده علي كتفه، وهو واقف خلفه، ويقول له:

ـ انت إيه يا دكتور؟! متهيألي ماحدش وجهلك دعوة.. على فكرة في حاجة مهمة انتَ ماتعرفهاش.

استدار «وليد» وهو يحافظ علي ابتسامته الجليدية وهدوئه المستفز، وسلّطَ نظراته الثاقبة على وجه يحيى، بينما يحيى تخلّى عن ابتسامته وقطب جبينه كأنّه يستعد لمعركة، نظرة الغضب في عيني يحيى جعلت وليد يضحك بسخرية، ويقول:

ـ خير.. إيه اللي ما أعرفوش؟!

فقال يحيى:

ـ فريدة خطيبتي ولو شفتك بتحاول تقرب منها تاني هيكون في تصرف تاني.

فضحك وليد مرّةً أخرى، وقال:

ـ وماله! نقول مبروك ولا خليها بعدين.

ووزع نظراته المستفزة عليهما ثم انصرف، وعيون يحيى تتبعه حتى غاب عن بصره، وفريدة تقف مرتبكة، وما زال يحيى واقفًا مكانه يفكر في وليد، كأنّه نسي كلَّ من حولهما، ونسي معرضه، فقالت فريدة:

ـ يحيى، خلاص مشي.. أرجوك ركز في نجاحك عشان خاطري.

نظر إليها بحبٍّ بالغٍ، ومدَّ يده إليها كأنّه يدعوها إلى رقصة، فابتسمت ومدت يدها إليه، فقبض على يدها وسار بين الحضور وهي بجواره، يتحدث إلى الصحفيين وهي بجواره.. يستقبل التهاني وهي بجواره يدها في يده، وبداخله يريد لو أخفاها عن أنظار الجميع بين ضلوعه، ووالده يراقبه ويرى ما يحدث وترتسم على ملامحه علامات الضيق، وبداخله سؤَال يثير غضبه:

ماذا يفعل الولد؟ هل يتحداني؟! وفجأة جاءت ندى إلى المعرض، ورآها يحيى مقبلة نحوه في كبرياء وثقة بكامل أناقتها، متألقة في فستان قصير يكشف عن ساقيها، مغلق الصدر، ولكنّه عاري الظهر، بلون أحمر ناري. أسرع والد يحيى إليها يحييها، كانت التحية بينهما بالغة الود والمحبة، بينما يحيى يترقب كيف ستتعامل معه، أمّا فريدة أرادت أنْ تبتعد عن يحيى قبل أن تأتي هي لمصافحته، فقبض على يدها بقوة ونظر إليها وهمس في أذنها:

ـ بحبك.

وقفت ندى أمامه بكبرياء ودلال، وقالت له:

ـ مبروك النجاح يا يحيى.. مبروك يا حبيبي.

وفاجأته بقبلة على خدِّه بين الحضور..! اتسعت عيناه وانكتم صوته وهو لا يعرف ماذا يفعل أمام جرأتها، ثم نظرت ندى إلى فريدة بسخرية دون أن تصافحها أو تكلمها، وأدارت ظهرها لهما وراحت تتنقل بين اللوحات في غرور وكأنّها انتصرت عليهما، أعلنت حبَّها أمام الجميع، وستعلنه دائمًا وستدافع عن حبِّها مهما كلّفها الأمر. وقف يحيى مرتبكًا وعيناه على فريدة نظراته تقسم أنَّ ما حدث ليس ذنبه ولا يعرف كيف حدث، قرأت كلماته دون أنْ ينطقَها، فهزّت رأسها وابتسمت ابتسامة هادئة كأنّها تمنحه البراءة...

الوقت يمضي، ونجاح يحيى لافت للجميع وبشهادة الجميع، وبين الزحام والضجيج، لاحظت فريدة فتاة لا تعرفها تتقدم في اتجاه يحيى بخطى واثقة تأملتها دون أنْ تدركَ ما الذي يلفت نظرها في هذه الفتاة، ربما عيونها الواسعة البنية، أو ملامحها الجميلة، أو رشاقتها، أو شعرها البني، ربما ثيابها الأنيقة التي تبدو لها مثيرة بعض الشيء في قصرها والأجزاء الشفافة منها.. لا، ليس كل هذا، المكان يضج بحضور من مختلف الطبقات، ولكلِّ طبقة ثقافة معينة في اختيار اللبس.

ما يثير انتباهها في هذه الفتاة ليس كل هذا، خطواتها إلى يحيى ونظرتها له مختلفة، كأنّها تعرفه.. كأنّها تعاتبه، كأنّها تذكّره بشيء ما، فأدارت بصرها إلى يحيى لتقرأ في عينيه إجابات أسئلتها.. هل يعرف تلك الفتاة، كانت في عينيه نظرة مرتبكة، تراقبها وتترقبها، وكلما اقتربت تصبب عرقه، خطواتها إليه تشعل النار حوله، وفريدة تتابع كليهما الأمر ليس عاديًّا، ليست امرأة بين الحضور وفقط! وصلت الفتاة إلى يحيى وقفت على بعد خطوتين منه ومدّت يدها لتصافحه، وهي تقول بابتسامة رقيقة:

ـ مبروك يا يحيى.. من نجاح لنجاح.

مدّ يحيى يده في ارتباك بالغ، فقالت بصوت فيه لوعة:

ـ طول عمرك عبقري.. عبقري في الرسم وفي الحب كمان!

سحب يده بسرعة، وقال بصوت متقطع:

ـ شكرًا. وتحرّك مسرعًا ليتحدث مع ضيوف المعرض كأنّه يهرب منها. نظرت الفتاة إلى فريدة نظرةً لم تفهمْها، ثم دارت تطوف بين اللوحات، وعيون فريدة تراقبها. لم تقض أكثر من عشرة دقائق ثم غادرت. غادرت وتركت لفريدة عشرات الأسئلة: مَنْ تلك الفتاة؟ لماذا ارتبك يحيى من حضورها؟ لم يرتبك بهذا الشكل أمام جرأة ندى..! وما إنْ صافحها حتى فر سريعًا، هل بينهما شيء؟!

عاد يحيى يقف إلى جوار فريدة من جديد، وهي صامتة تنظر إليه، راحت الصفرة التي حطت على وجهه حينما رأى الفتاة، عادت الدماء تضخ في وجهه، عادت ابتسامته تتوزع على الحضور في ثقة واعتزاز، فأصبح السؤال في عقلها أكثر بروزًا وأكثر سطوة، وأكثر إلحاحًا.. من تلك الفتاة؟!

ما كان هناك فرصة أنْ تسألَ هذا السؤال، وربما خافت أنْ تسألَ فيعود ارتباكه واصفرار وجهه ليؤكد لها مخاوفها.. لا، لن تسأل عن شيء الآن فقط يكفي أنْ تغادرَ. هنّأت يحيى بابتسامة هادئة، وأخبرته أنّها ستغادر. ودّعها وطلب منها أنْ تطمئنه عليها فور وصولها.

عادت فريدة إلى بيتها وحكت لوالدتها في كلمات مقتضبة عن نجاح المعرض ثم دخلت غرفتها، وما زالت الفتاة تشق زحام أفكارها، وتبقى هي السؤال المزعج الذي لا يكف عن الطنين في أذنيها.

جلست في فراشها تفكر فيها ساعات وتستدعي الدقائق التي رأتها فيها مئات المرات، ولكن يبقى السؤال بلا جواب.. ما زالت الأسئلة تربكها إلى أنْ اتصل بها يحيى، ردت سريعًا فبدأ الحديث:

-بحبك، وبِحُبّك كل حاجة بقت أحلى.. شفتي النهاردا المعرض كان ناجح ازاي؟! انتِ سر النجاح دا.

-أنا؟!

-أكيد.. انتِ بقيتِ سر إلهامي، ريشتي وألواني.

-انتَ بقيت شاعر كمان؟!

-أنا عايز أقولك كلام كتير وعارف إن عندك أسئلة كثيرة.. بكرة أشوفك ونتكلم في كل حاجة.

-أوكي.

-بس النهاردا عايزك تعرفي حاجة مهمة.. إني بحبك ومستعد أتحدى العالم كله عشانك.. تصبحي على خير.

أنهى يحيى المكالمة وما انتهت حيرتها، ولكن غدًا ستعلم كلَّ شيء.. ترى ماذا سيقول لها؟

الفصل الثالث عشر

حاولت «علياء» الاتصال به، ولكنّه لا يرد.. كثيرًا لا يرد، لا يرد لساعات مهما كثرت الاتصالات، وحينما ينتبه إلى اتصالاتها يعتذر بكلمات قليلة، ويحدثها عن تفاصيل يومه الشاق وساعات معاناته لإنقاذ المرضى، كيف أنقذ هذا المريض بعد حادث مروع، أو ذاك المريض بعد انفجار الزائدة الدودية، يصف اليوم بكلِّ تفاصيله حتى تشم رائحة الدماء والبيتادين والدواء في صوته عبر الهاتف، وتكاد ترى مشرطه يشق البطون بلا إحساس، تكاد تراه يخيط جروحه كما تخيط المرأة ثوبها المقطوع بأعصاب هادئة، وربما وهي شاردة في أمور أخرى، ترى القطن والشاش وتتخيل هيأته هو ومساعديه بزيّهم المرعب يقفون على رأس المريض في وقت حاسم من حياته.. يا له من مسكين! مسكين هذا المريض المخدر يفر من ألمه إلى مشرط الجراح، يفر من الألم إلى ألم ومن النهاية إلى طريق مجهول، قد ينجو وقد يموت.. في الحالتين يؤدي «شريف» عمله ويواصل مهمته وهو يقبض انفعالاته ويجمدها بمنتهى البراعة. هكذا دائمًا أحاديثه معها، حتى إنْ أرادَ المزاح يحكي عن موقف مضحك حدث له في العمل، أو تصرف ساذج من مريض بسيط يضحك كثيرًا على مواقف تبدو لها عادية، هكذا تمر المحادثات بينهما. بعد العمل يحكي عن العمل، كأنّه لا يعرف أيّ شيء آخر.. ماذا تفعل؟ لم تعد تحتمل، تريد حديثًا من نوع آخر، حديث عنها.. عنه.. عن حبهما... تريد أنْ يصفَ عشقه لا أنْ يصف مهاراته في عمله، هذا العمل.. هذا الحديث الذي لا يملّه مهما حاولت أنْ تغيّر دفة الحوار.. لماذا لا يعيش مثل كلِّ الشباب من جيله، إنّه لا يطرب للموسيقى، ولا يتابع جديد الأغنيات، لا يقرأ القصص والروايات، أهدته في مرة رواية رومانسية ووعدها أن يقرأها، ولكنّه لم يفعل. كان لديه كتاب طبيٌّ هام يعكف على قراءته، ولن يستطيع قراءة الرواية إلا بعد إنجاز الكتاب، لا تستطيع أن تأخذه من عالمه إلى عالمها.. إنّه يتنفس عمله. جلست تفكر وتفكر؛ هل ستسعد معه بعد الزواج، أم أنّها ستظل في عالمها وهو في عالمه؟!

يا له من سؤال مرعب! لا تعرف الجواب، ولكن عليها أنْ تعيدَ الحسابات، هل ما بينهما حب؟

لو أحبها ولو أحبته ما شعر أحد منهما بأنّهما في عالمين مختلفين.. يا له من سؤال يقبض القلب ويتلف الأعصاب!

هل ما بينهما ليس حبًّا؟!

إذن ما هو الحب؟

هل الحب هو ما بين فريدة ويحيى؟

هل الحب أنْ يدغدغَ مشاعرها بكلمات الهوى في كلِّ لقاء؟ ولكنه لم يأخذ خطوة فعليّة حتى الآن، إذا كان يحبها بكلِّ هذه القوة لماذا لم يتخذ خطوة للارتباط؟

هل هو الآخر لا يحب؟ ما هو الحب إذًا؟

السؤال يتردد في أذنيها وعقلها وقلبها ولا تعرف ما هو الحب، أم أنه فقط بين سطور الأدباء، وفي كلمات الشعراء، وفي خيال المتلهفين له؟

ما هو الحب، وأين الحب؟!

ظلّت سارحة إلى أنْ اتّصلَ بها شريف. بدأ حديثه كما اعتاد دائمًا:

ـ آسف يا حبيبتي.. كنت في العمليات.

صمتت لم ترد؛ ماذا تقول؟ ماذا تسأل؟ إنّ الغضب يعصف بها وهو لا يشعر أنّ هناك شيئًا حدث، يتكلم بأعصاب هادئة باردة كأنّه يجري عملية جراحية أخرى، ولكنّه لا يحتاج إلى أصابعه وأدواته، بل يحتاج إلى لسانه وكلماته، بارد المشاعر كأنّه جبل من الثلج، ماذا تقول؟

سرحت دقائق وهو يتحدث ويحكي تفاصيل عمله الشاق كما اعتاد، يتحدث وهي لا تسمع، يتحدث دون أنْ ينتظرَ منها أيَّ ردٍّ أو تفاعل مع ما يقوله، كأنّه يجري عملية جراحية تمامًا، لا ينتظر من المريض شيئًا، ولكنّها ليست تحت تأثير المخدر، هل ظنَّ أنّ كلمة حبيبتي في أول المحادثة كافية لتخدير عقلها المستفز من حكاياته العملية المملة؟ هل كلمة «حبيبتي» كافية لإخماد ثورة غضبها، أو كافية لشفاء

أنين قلبها معه؟

كلا.. هذا لا يكفي أبدًا.. لا يكفي، بل يزيد غضبها أكثر وأكثر، ويصل بثورتها إلى الجنون، فصرخت بثورة عارمة:

ـ كفاية.. كفاية بقا.. شغل شغل شغل.. مابتتكلمش غير عن الشغل.. مابتكلمنيش عشان الشغل.. خلاص كفاية.. اتجوز الشغل، أنا زهقت.

وأنهت المكالمة وأغلقت الهاتف، لا تريد منه اعتذارًا أو أعذارًا، كل أعذاره مرفوضة. أغلقت الهاتف وألقته بعيدًا، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وابتسمت.. ما أروعَ أنْ تعبّرَ عما بداخلك بحريّةٍ! ما أروعَ أنْ تتخلّصَ مِن غضب يكاد يحرق قلبك دون أنْ تفكّر ماذا سيحدث بعد ذلك! ابتسمت ثم تذكرته مرة أخرى، وتساءلت كيف هو الآن، لعلّه الآن يحاول أنْ يهاتفها، وفي كلِّ مرّةٍ يجد الهاتف مغلقًا، فليذق مما يذيقها ولو مرة. إنّها الآن لديها مريض يستحق العناية والاهتمام.. لديها قلبها المشتاق إلى الحب وكلماته، إلى الشوق وحكاياته، عليها أنْ تعتني هي بقلبها، ولكنّه سيغضب، لا بد أنّه غاضب الآن لا بدّ أنّه ثائر الآن.. معقول؟! يا له من مشهد رائع تتمنى لو تراه! هل يثور مثل كل البشر؟! إنها أشارت له على نقاط ضعفه، يكفي أنّها نبهته أنّه فاشل في الحب، وعليه أنْ يبحثَ له عن فاشلة أخرى في الحب مثله، إنّه يحتاج أنْ يتزوّجَ من امرأة لها عقل وأذن مصغية، امرأة مثله بلا مشاعر، كتلة جليدية إذن.. هل عليها أن تنهي العلاقة؟

راحت ابتسامتها، وانقبض قلبها مما تفكر. الأمر ليس بهذه السهولة.. نعم ليس الأمر بهذه البساطة، إنّه يستحق فرصة أخرى، ولكن إنْ ظلَّ كما هو ماذا يجب أنْ تفعل؟ أرهقها التفكير فقرّرَت أنْ تهرب من أفكارها بالنوم.. هذا أفضل حلٍّ وتنتظر الغد لعلّه يأتي بالجديد.

....

جاءَ موعدُ لقائهما، كما اعتاد «يحيى» أنْ يصلَ قبل الموعد، وجاءت هي في موعدها. كانت لا تعرف من أين تبدأ حديثها، ولكن لديها الكثير من الأسئلة..

حوار كبير طويل مرهق بداخلها لم تعد تحتمله وحدها، بينما هو جالس يتأملها ويبحر في عينيها، ويحيطها بتلك النظرات العاشقة، ما زالت صامتة فقال بهدوء:

ـ أنا عارف كل اللي بتفكري فيه.

ـ قولي بفكر في إيه.

ـ حاجات كتير كلها حصلت امبارح، أولها بابا.

ـ والدك رافض جوازنا، رافضني بشدة كمان.

ـ أنا فعلا فاتحت بابا ومش قادر يفهمني، ماحبتش أقولك لأني عارف إن المشكلة دي هتنتهي.

ـ بس الواضح إنها مش تنتهي يا يحيى!

ـ لا، هتنتهي.. بابا بيعند شوية، إنما في النهاية هيوافق.. أنا متأكد لأن سعادتي هي أهم حاجة عنده.

ـ ولو موافقش؟

ـ الاحتمال دا مش يحصل، لكن أنا بردو هريحك، هنتجوز وأكيد بابا لما يلاقي إن جوازنا أمر واقع هيوافق.

ـ ومين قالك إني ممكن أوافق على كدا؟!

ـ يعني إيه؟!

ـ أنا مش ممكن أكون سبب إن والدك يقاطعك، ولا أنا أستاهل إن والدك يشوفني بالشكل دا.. لو والدك موافقش يبقى خلاص يا يحيى.

صمت يحيى وأدار وجهه بعيدًا، صمت دقائق، فقالت:

ـ صدقت إن في مشكلة؟

ـ إن شاء الله مافيش مشاكل، وبابا هيوافق.

ـ مش عايزة تسأليني عن ندى؟

ـ لا، أنا عايزة أسألك عن البنت الغريبة اللي قالتلك إنك عبقري في الرسم وفي الحب كمان.

ـ مالها؟

ـ مين دي؟!

ـ ما أعرفهاش.

ـ معقول؟!

،، مش مصدقة، واضح إنها تعرفك كويس!

ـ حبيبتي، دي معجبة، أنا شفتها في معرضي اللي فات، لكن ما أعرفهاش.

- المفروض إني أصدق عادي؟!

ـ فريدة، أنا بحبك، وعمري ما حبيت غيرك.. دا اللي لازم تصدقيه وبس.

ـ مش عارفة أقولك إيه!

- بحبك، قولي بحبك.

- بحبك، لكن خايفة تجرحني أو ماتكنش قد حبي ليك.

ـ عمري ما أقدر أجرحك.. دا أنا أموت أهون.

ـ وبعدين في كلامك الحلو يا يحيى، بجد بتوه مني!

ـ مش كلام.. دا وعد وعهد بيني وبينك.. حب هعيش بيه وليه لآخر يوم في عمري.

أغلق أبواب الشك بكلمات عشقه التي لا تنضب، ربما لم تقتنع بما قاله عن الفتاة.. ربما عقلها يرفض أنّها مجرد معجبة، ولكن قلبها يصدقه، يصدق أنّها هي فقط حبيبته. خفت صوت الشك والعقل، وعلت دقات قلبها لتبادله الحب، وحينما يعلو صوت الحب لا يعلو صوتٌ عليه أبدًا، تكون الفتاة كما تكون، فهي لا شيء الآن؛ لأنّه يحبها هي فقط.

....

يومان وهو يحاول أنْ يتواصل معها، ولكنّها لا ترد، هل يضايقها أنّه يشاركها كلَّ تفاصيل يومه، لماذا لا تفهم أنّ هذا صورة من صور الحب، يبدو أنّ البنت مهما أبحرت في العلم تبقى ترى الحب كما رأته في الأفلام، وكما سمعته في الأغاني، كلمات حب تمتد بامتداد البحر وترتفع إلى أنْ تعانق القمر يرون الحبَّ كله في الهمس والكلمات، رغم أنّ أغلبَ الكلمات رياء! سرح يفكر في مشكلته مع علياء، يحلّلها كأنّه يحلل معضلة علمية، يتعمق في تفاصيل المشكلة وأسبابها وطرق العلاج، كأنّه أمام حالة طبية صعبة، ويبحث عن كلِّ وسائلِ العلاج الممكنة. الحالة يمكن أنْ تعالجَ سريعًا بكلماتِ الحبِّ والغزلِ، ولكن هو بذلك لم يعالج مريضتَه، بل منحها مسكنات. لا بُدَّ أنْ تفهمَ تفكيره، وكيف يعبر عن مشاعره، لا بُدَّ أنْ تفهمَ شخصيّته وتقبلّها بتفاصيلها الدقيقة. عليه أنْ يأخذَها إلى معنى الحب، أنْ يوسّعَ مداركها لتنظر للحب نظرة شاملة. الحبُّ احتواءٌ وعطاءٌ ومشاركةٌ بين الطرفينِ في كلِّ شيء، وليس بضع كلمات تقال بتنهيدة وصوت هامس لتدغدغ المشاعر.

ربما يفعل كلَّ أفعالِ الحبِّ دون أنْ يقولَ «أحبك»، إنّها صغيرة وتحتاج إلى كثير من المجهود لترى الدنيا بعين ناضجة.

ذهب لزيارتِها حاملًا باقة الزهور التي تحبها. قابلته وهي ترسم ملامح جادة غاضبة، ونظرات لائمة، كان تنطق بنفس كلمات عتابها التي قالتها له في آخر محادثة بينهما، بينما هو ابتسامته الهادئة الرزينة لم تغادر وجهه. ساد الصمت بينهما قليلًا، ثم بدأ الحديث قائلًا:

ـ علياء، أنا بحبك زي ما انتِ، بعصبيتك وجنانك وحنانك، بحبك كلك على بعضك.. أنا عايزك تحبيني أنا وشغلي عشان شغلي جزء من كياني.

نظرت إليه النظرة نفسها اللائمة، وعادت تجادل من جديد بالعصبية والطفولة نفسهما التي اعتادت أنْ تتحدث بهما... ما زالت منفعلة، تتحدث وكلُّ جسدِها يتحدث معها بنفس الانفعال، عينها، شفتها، اهتزاز ساقيها، حركة يديها، وهو يستمع بتركيز، ولما انتهت من عتابها، ابتسم وقال في هدوء:

ـ انتِ عارفة إنك حلوة قوي وانتِ متعصبة؟! بحبك وأوعدك إني مش هزعلك تاني إنّما أرجوكِ تحاولي تقدري ظروفي.. علياء، أنا بحبك.

ابتسمت وكأنّ كلماته أخمدت كلَّ ثورتها، وحولت كلَّ غضبها إلى نهر حبهما ففاضت مشاعرها بيقين أنّه حبيب العمر.

وشريفة تراقب من بعيد وتبتسم، وتدعو الله أنْ يكملَ سعادة علياء، ويسعدها مع شريف، وفي اللحظة ذاتها تذكّرت يحيى وتمنت لو تُوّجَ حبه لابنتها بالزواج، إنها تعرف كم تحبه ابنتها، ترى بريقَ عينيها كلما تحدث إليها أو تحدثت عنه، تسمعُ دقات قلبها تهتف باسمه في صحوها ونومها.. ترى الزهور الحمراء تطرح على وجنتيها كلما ذهبت للقائه، إنّها تحبه كما لم تحب من قبل، إنّما عدم موافقة والده ما زالت حاجزًا عملاقًا يفصل بينهما ويؤرق كليهما، ويؤرق قلب شريفة أيضا؛ كل ما يؤلم ابنتيها يؤلمها قبل أن يؤلمهما، دعت اللهَ أنْ يكتبَ لهما السعادة كي تسعد هي وتطمئن.

....

جلستْ في مكتبها منهمكة في عملها، وأمامها أوراق كثيرة والحاسب الآلي مفتوح تتابع عليه أعمال أخرى، وفجأة انتبهت إلى صوت أنثوي خافت يحييها. رفعت فريدة بصرها، فارتسمت دهشتها على وجهها وعقدت المفاجأة لسانها، لم ترد التحية ولم تشر لها بالجلوس، بل نهضت من على مقعدها وفي عينيها أسئلة كثيرة تنتظر الإجابة، إنّها الفتاة التي كانت في معرض يحيى، إنها المعجبة التي شغلت تفكيرها ليلة كاملة، ها هي أمامها مرة أخرى، ويبدو أنّها جاءت لها خصيصًا، إنّها هي بجمالها المثير، ترتدي جينزًا ضيّقًا جدًّا، وقميصًا شفّافًا مفتوحًا من على صدرها، وإكسسوار كثير بطريقة غريبة، لم يتغير فيها إلا لون شعرها الذي صبغته بلون بنفسجي غريب. ما زالت فريدة تفحصها دون كلمة واحدة، ابتسمت الفتاة وقالت:

ـ هستناكِ الساعة ثلاثة في الكافيه اللي جمب شغلك.. بااااي.

انصرفت الفتاة وما زالت فريدة واقفة مكانها لا تستوعب ماذا تريد منها تلك الفتاة.. نظرت في ساعتها كانت الثانية والنصف. جلست لتهدأ وتعرف ماذا تريد أنْ تفعلَ.. هل ستقابلها؟ علا صوت في أعماقها يقول: لا.. لا، لماذا تسمع لتلك الفتاة؟ إنّها تصدق يحيى ولن تصدق أيَّ أحدٍ غيره، إنّه يحبها مهما قالت تلك الفتاة عنه، لن تسمح لها أنْ تفسدَ عَلاقتها بحبيبها، ولكن بداخلها فضول كبير أنْ تعرف ما لم يقله يحيى، لا بد أنّ لديها الكثير عن يحيى. عاودت النظر في ساعتها، الموعد يقترب.. ما زالت سارحة حائرة، تريد أنْ تعرفَ ما لا تعرفه عن يحيى، ولكنّها تخافُ أنْ تعرف، ربما تعرف ما لا تقبل وما لا ترضى، إنّها تخاف على حبِّها، مشاعرها وحبّها الآن أغلى ما تملك وأغلى ما يستحق أنْ تخاف عليه من الضياع... مرت دقائق أخرى وبدأت تنتصر على فضولها من أجل حبِّها؛ لن تذهب للقاء تلك الفتاة.. لا يهم ما ستقول، المهم أنّها تصدق إحساسها وتثق في حب يحيى لها. أخذت نفسًا عميقًا وابتسمت، لقد انتصرت على فضولها، أخيرًا هدأت أعصابها، وفجأة دخل إلى مكتبها «وليد»، دخل بغروره المعهود، وابتسامته الباردة السمجة، وقال:

ـ ازيك يا فريدة.. أنا مش هاخد من وقتك كتير.

لم ترد التحية، وبدأ الضيق على وجهها، أدارت وجهها بعيدًا، فجلس على المقعد أمام مكتبها ووضع ملفًّا على المكتب، وقال:

ـ أنا عايزك تراجعي الملف دا كويس.. أنا تعبت قوي على ما جمعت كل كبيرة وصغيرة عن يحيى.. الحقيقة دا مخادع كبير، كل علاقاته في الملف دا، تقدري تتأكدي بنفسك.. سلام.

انصرف، وجلست هي في ذهول؛ ماذا يحدث اليوم؟ لم تستطع أنْ تتجاهلَ الملف.. أمسكت الملف وقلبت صفحاته سريعًا، إنّه ممتلئ بأسماء وعناوين وأرقام هواتف فتيات وحكايات كثيرة عنهن وعنه، كل هذه الفتيات كنَّ يعشقن يحيى؟! من منهن ماضٍ ومن منهن حاضر؟! شعرت وكأنّ هذا الملف خنجر في قلبها، حبل يلتف حول حبِّها ليخنقه بدون رحمة، عندها انتفضت مسرعة إلى اللقاء الذي هربت منه منذ دقائق، لم تتبقَ إلا ثلاث دقائق فقط على الموعد.. كافية جدًّا لتصل إليها وتواجه الحقيقة مهما كانت.

دخلت الكافيه وأدارت بصرها في المكان بحثًا عن الفتاة، وجدتها تجلس وفي يدها سيجارة، تستنشق دخانها باستمتاع، تتمايل مع الموسيقى الدائرة في الكافيه، وتدندن مع أغنية عمرو دياب. جلست فريدة أمامها دون تحيه أو كلام، وجهت إليها نظرات حاسمة تنم عما تحمله من قلق يرهقها... نظرت إليها الفتاة بابتسامة باردة، وأطفأت سيجارتها وقالت:

ـ كنت متأكدة إنّك هتيجي.. أكيد عايزة تعرفي أنا مين وإيه علاقتي بيحيى.. طبعًا قال لك إني معجبة..! ما أظنش إنه قالك اسمي، ممكن يكون نسي اسمي يفتكر إيه ولا إيه!

صمتت وكذلك «فريدة» صامتة، تتلقى كلماتها في ذهول وترقب بالغ. كانت الفتاة ترمقها بنظرات حادة لم تفسرها فريدة، عاودت الفتاة الحديث قائلة:

ـ أنا «شيرين».. كنت حبيبته، كنت ريشته وألوانه، لحظات عقله وجنانه، أنا كنت .... عارفة يا فريدة أي بنت بالنسبة ليحيى إيه؟ مش أكتر من حالة.. حالة تخليه يرسم ويتفوق على نفسه، حالة تستمر كام يوم، كام شهر.. متهيألي مافيش واحدة كملت معاه سنة.

تلألأت الدموع في عيني فريدة، وسألت نفسها في صمت:

نعم تلك كلماته التي قالها لي.. هي كلمات يقولها لكلِّ بنت، كلمات محفوظة كأنّها أغنية مسجلة يعيد تشغيلها لكلِّ فتاة يقابلها..!

ما شعرت قطُّ أنّه يكذب، يبدو لها صادقًا في كلِّ كلمة، في كلِّ نظرة، في كلِّ همسة حتى إنّها تشعر بنار أشواقه في صمته.. أهي ساذجة إلى هذا الحد؟! هل هذا معقول؟!

حاولت أنْ تستجمع كلَّ قوته، حاولت أنْ تداري الدموع، يبدو أنّ رحلتها مع الدموع لن تتوقف أبدًا، قالت في إحباط بليغ وألم شديد:

ـ ممكن تقوليلي إيه حكايتك مع يحيى ويا ترى انتِ بتقوليلي عشان تحذريني ولا عشان تنتقمي من يحيى؟

قهقهت الفتاة بصوت عالٍ، وقالت:

ـ أنتقم إيه يا بنتي؟! أنا خلاص بقا ليا صاحب جديد، أنا أصلًا اكتشفت إن يحيى دا إنسان ممل وعصبي وأناني ومووده بيتغير، ومشاعره بتتغير بعدد أنفاسه.. على فكرة أنا ويحيى شبه بعض مالناش في الحب والجو دا، أنا أحب.. أعيش كل يوم قصة، كل يوم حكاية.. بس أنا لما شفتك في المعرض باين عليكِ الحب قوي، صعبتِ عليّ جدًّا، قلت أنبهك، شكلك حاجة تانية غير يحيى وغيري كمان، ما الآخر أنا ضايعة قبل يحيى وبعد يحيى، إنما انتِ حاجة تانية خسارة يضيعك.

بدأت شيرين تحكي كيف تعرفت عليه في إحدى قاعات الديسكو، كيف لفت نظرها بنظراته التي لا تقاوم، إنّه بارع في اصطياد القلوب بتلك النظراتِ الهائمةِ التي سرعان ما تعزف لحنَ الولعِ علي قلوب الصغيرات. اقتربت منه وتعرّفت عليه سريعًا، وخلال أيام قليلة أصبح يهاتفها ليلًا ونهارًا، وأصبح يقضي معها أغلب وقته وسهراته، ثم أصبح يقابلها في معبد فنه حيث يتحرر من كلِّ قيود الدنيا ويسبح بين أفكاره وألوانه إلى عالمٍ من المتعة بلا حدود، كانت تقضي معه ليالي الإبداع، تشهد على معاناته، وتهبه كل ما تملك كي يبدع، وهبته قلبها وروحها وجسدها، إنه يستحق ذلك، وكلما أفاضت عليه في العطاء أفاض في الإبداع، كانت لا تنشغل عنه إلا به لمدة ستة أشهر، ثم فجأة تغيّر ولم تعد ملهمته، أصبح لديه ملهمة جديدة! حكت «شيرين» تفاصيل ليالي الحب، وحكت تفاصيل النهاية.. لم تصدم؛ فهي تعرف أنّ ما بينهما حالة لن تدوم، وكانت تترقب النهاية في أيّ لحظة مثلما تترقبها في كلِّ مرّةٍ تدخل فيها أي علاقة. وفريدة تسمع دون أنْ تنطق بكلمة، حتى دموعها هربت من فرط صدمتها. كفت «شيرين» عن الحديث وكأنّها لم يعد لديها ما تقول، وما زالت فريدة صامتة، فعاودت شيرين الحديث، قائلة:

ـ طبعا انتِ مستغربة أنا ليه كدا.. أنا عايشة لوحدي.. بابا وماما منفصلين من زمان وكل واحد منهم اتجوز وعاش حياته في بلد، بابا في فرنسا، وماما في الخليج رموني لجدتي وأنا عمري ١٢ سنة، حتى لما ماتت جدتي وأنا في الجامعة فضلت عايشة لوحدي، كل علاقتي بيهم إنهم بيبعتولي فلوس، فلوس كتير قوي، على فكرة يحيى ماكانش أول راجل في حياتي.. بصراحة مش فاكرة ترتيبه.. غالبا التالت..

بصي يحيى ضايع وأنا ضايعة، وكل البنات اللي عرفهم كانوا ضايعين.. أنا شايفاكِ غيرنا، قلت أنبهك عشان تاخدي بالك وانتِ براحتك بقا.. باي يا قمر.

انصرفت شيرين. ظلت فريدة تتابعها إلى أنْ غابت عن بصرها، تتابع حركتها في خفة وسعادة، تتذكر قصتها التي حكتها بهدوء وربما اعتزاز كأنها تحكي قصة بطولة وليست قصة انحدار وسقوط. كانت تتابعها بنظرات حزينة وهي لا تعلم هل حزينة على قلبها المصدوم، أم على تلك الوحيدة التائهة. جمعت كل قوتها كي تنهض، فقد أرهقها ما سمعت واستنفد كل قوتها، نهضت وتحركت إلى سيارتها بخطى متباطئة ثقيلة كأنّها طفل يخطو خطواته الأولى، تشعر بتنميل في أطرافها وصداع يكاد يشق رأسها إلى نصفين.. أخيرًا وصلت إلى سيارتها، شعرت وكأنّها سارت كيلومترات طويلة وهي في الحقيقة لم تمشِ إلا خطوات معدودة، ركبت سيارتها والألم يعتصرها، أدارت السيارة وسمحت لدموعها الحبيسة أنْ تنطلق، لم تعد تحتمل ألمها ولا نزيف مشاعرها، لا تعرف كيف وصلت إلى البيت، ولكنّها وصلت، كانت شريفة في انتظارها ووجهها شاحب من القلق؛ لقد طلبتها كثيرًا ولم ترد على مكالماتها، ولكنّها لم تلمها ولم توبخها على التأخير، بل هرولت إليها عندما رأت وجهها والدموع في عينيها. احتضنتها بقوة، وسألت بلهفة:

ـ مالك يا حبيبتي، إيه اللي حصل؟!

انفجرت فريدة في البكاء، في حضن «شريفة» فقط تعلن ضعفها وألمها دون خجل أو خوف. دخلت شريفة بابنتها إلى حجرتها، ومسحت دموعها، وطلبت منها أنْ تهدأ وتركتها تسترخي في فراشها وأسرعت إلى المطبخ وعادت في دقائق بعصير ليمون ثم جلست بجوارها، وطلبت منها أنْ تخبرها بكلِّ شيء. باحت فريدة بكلِّ آلامها وحكت يومها القاسي لأمِّها. أخبرتها بكلِّ ما عرفت عن «يحيى»، وظلت تراقب وجه شريفة وكأنّها تريد أنْ تقرّرَ بالنيابة عنها، في عينيها رجاء أنْ تمنعها شريفة عن حبِّ يحيى، أنْ تبعدَها عنه؛ إنّها خائفة من نفسها ومن حبِّها له. عيناها تنادي شريفة في استسلام أنْ تحميها من نفسها ومن يحيى. صمتت شريفة طويلًا، ثم قالت:

ـ لازم نسمع منه يا فريدة، ولا إيه رأيك؟

- هينكر يا ماما، وحتى لو اعترف.. أنا هقدر أثق فيه ازاي؟!

- فريدة، انتِ قوية ولازم تاخدي الموضوع بهدوء وعقل أكتر من كدا.

- أنا مش قوية أبدًا، مش قوية، أنا غبية ممكن، ساذجة أكيد، لكن مش قوية.. يحيى الإنسان الوحيد

اللي حبيته، وبردو هخسره، أنا دايمًا خسرانة، لما حسبتها بعقلي خسرت ولما حسبتها بقلبي خسرت.. أنا تعبت.. تعبت يا ماما.

- مش جايز الولد مظلوم، وبعدين اللي اسمه وليد دا ليه تصدقي كلامه؟!

- وليد كداب وشيرين كدابة، وهو بس اللي صادق!

- المواجهة هي الحل، متهيألي لما تسمعيه هتقدري تحددي موقفك منه.

صمتت فريدة، وظلّت تفكر في اقتراح والدتها ساعات طويلة، ولم ترد على مكالمات يحيى طوال اليوم، إلى أنْ قرّرَت أنْ تواجهه، فعادت تطلبه. ردَّ متلهّفًا وقال:

- مشغولة عني بإيه النهاردا.. أخيرًا افتكرتيني!

- مش جايز أكون مشغولة عنك بيك؟!

كان صوتها مختنقًا متقطّعًا، انقبض قلبه عندما استمع صوتها، انشغل بتلك النغمة الحزينة الباكية في صوتها ولم ينتبه إلى الكلمات، فتساءل في قلق واضح:

- في إيه يا حبيبتي؟ فريدة أنا شايف دموعك بقلبي، وأوعي تنكري.. حصل إيه؟!

- ممكن نتقابل بكرة؟

- دلوقتي يا فريدة، معقول أفضل قلقان عليكِ لبكرة؟!

- بكرة هنا في البيت يا يحيى.. الساعة سبعة كويس؟

- اللي تشوفيه.

- تصبح على خير.

أنهت المكالمة واستسلمت لحزنها ودموعها في انتظار الغد، فهل يحمل الغد شيئًا آخر سوى النهاية؟

....

الفصل الرابع عشر

عادت العَلاقة إلى عهدها الأول بين علياء وشريف، تعامل شريف مع المشكلة بذكاء شديد، وأصبح يعرف كيف يحب ويعمل.. كيف يرضى حبيبته المتلهفة إلى كلام العشق والهوى.. كيف يشاركها يومه، ويخبرها تفاصيله دون أنْ يجور على حقها في العزف على وتر المشاعر الحساس، ووجد أنّ هذا يسعده هو أيضًا ويخرجه من قالب العمل الجامد إلى عالم مليء بالمشاعر والأحاسيس، ربّما كان يشكرها أنّها جعلته يحيا شبابه كما يجب وأنْ يعطي لقلبه حقَّه الأصيل في ترديد أنشودة العشق وأغنيات الهوى، ويا له من تأثير ساحر على عقله وعمله! أصبح أكثر تركيزًا وأكثر إبداعًا في عمله. وبدأ الاثنان ينشغلان معًا في تجهيز شقة الزوجية والإعداد ليوم الزفاف، كل شيء يمضي في رقة وهدوء وتوافق إلى أنْ رأى «نور». نور خافتٌ يطل على أيامه من الماضي البعيد، إنّها الحبُّ الأول الذي طوى صفحته منذ أيام الدراسة. كانت زميلته في الجامعة، جذبت انتباهه منذ أوّلِ يوم رآها في المدرج رآها ولم يرَ ما حوله، كان نور جمالها لا يقبل أنْ يشاركه شيئًا، إنّه الجمال الساحر الذي يختطفك دون استئذان، العيون السوداء ذات البريق الذي لا يقاوم ولا تبعد عنه إلا إليه، القوام الرشيق تتحرك بخفة كأنّها فراشة تطير تقتطف القلوب من بين الضلوع لتحتفظ بها عندها وشعرها حالك السواد كأنّه الليل في سحره وأسراره أحبها كثيرًا، ولكنّه كان خجولًا، يراقب نورها من بعيد، يكتفي بنظراته التي تراقبها وحديث عينيه لعلّه يوصل رسائل قلبه، إلى أنْ شعرت بحنين عينيه يعزف العشق من بعيد، فكانت هي الأجرأ، تعللت بأسباب للحديث معه، وسألته عن محاضرات وعن كتب، واستطاعت ببساطة أنْ تحلَّ عقدة لسانه وتفك قيود خجله، وأصبحا لا يفترقان في الجامعة، ويتقابلان خارج الجامعة، يرسمون الغد الجميل بعد التخرج سنوات من الحبِّ انتهت بما لا يحب ولا تحب، حينما تقدّم لخطبتها بعد التخرج رفض والدها وأصرَّ على زواجها من ابن عمِّها، طبيب يكبرها بعشر سنوات رفضت «نور» وحاولت أنْ تتمسك بحبها، ولكن والدها كتب النهاية، ودعته قبل زواجها وأخبرته أنّها لن تنساه أبدًا، وانتهى ما بينهما، لم يقابلها منذ هذا اليوم إلى أن رآها في المستشفى، بعد حادثة كبيرة، توفي زوجها وما زالت هي

في العناية المركزة في حالة حرجة، انقلب كيانه واستيقظت ذكرياته وأصبح لا يهمه إلا أن تنجو، أصبح مقيمًا بالمستشفى. ولمدة أربعة أيام يرد على مكالمات خطيبته بجمل مختصرة، ولكنّها كانت كافية أنْ تدرك «علياء» إنّه في أزمة كبيرة جدًّا، صوته الحزين المنخفض وكلماته القليلة المبعثرة المتعسرة كأنّه يبحث عنها بين أمواج البحر، يكاد ينطق، كل ما أخبرها به أنّ طبيبًا زميلًا لهم مات في حادثة سيارة وزوجته بين الموت والحياة. حاولت أنْ تقابله، ولكنّه أخبرها أنّ العملَ يقيده. بدأت تضج مرّةً أخرى من هذا العمل، ولكنّها سرعان ما امتصت ثورتها وأقنعت نفسها أنّ عليها أنْ تتحمل ظروف عمله، فقرّرت أنْ تأخذ معها طعام العشاء وتزوره في المستشفى لعلّها تهون عليه مصابه في وفاة زميله، فاجأته بالحضور، وجدت رجلًا يشبه حبيبها، بوجهٍ شاحب وعيون مرهقة من السهر، ولعلَّ خالطها بعض الشك أنّها مرهقة من البكاء، شعرت أنّه فقد القليل من وزنه في أربعة أيام. انتابها قلق شديد وأدركت أنَّ زميله هذا كان عزيزًا عليه لدرجة لا توصف، رحّبَ بها بكلماتٍ قليلة وبرود لم تعهدْه من قبل، وجلست تتناول معه الطعام، وحاولت أنْ تتحدث معه بعيدًا عن العمل لتخفف عنه، ولكنّه شارد العقل صامت، شعرت أنّها تتحدث إلى نفسها فصمتت لا تدري ماذا تقول..!

سادت دقائق من الصمت البارد إلى أنْ انتبه كلاهما إلى طرقات على باب الاستراحة. إنّها الممرضة تخبر طبيبها بأنّ الدكتورة «نور» أفاقت. لم تتم الممرضة كلماتها وإذا بالطبيب يقفز متوجّهًا إليها ووجهه الشاحب قد توّردَ فجأة كأنّه ميت رد إلى الحياة. اندهشت «علياء» من ردِّ فعله، من فرحته.. من قفزته مهرولًا إليها، كأنّه نسي أنّها إلى جواره، ثم عادت تستعيد الاسم نور، هل هي زوجة زميله الذي مات؟ انتابتها حالة من الذهول، ليس لديها تفسير لما يحدث أمام عينيها، انتظرت في مكانها إلى أنْ يعودَ لتفهمَ منه حقيقة الأمر. بعد دقائق عاد كأنه شخص آخر، عاد بابتسامة مرحة والسعادة تلمع في عينيه. عاد ليعتذر أنّه تركها بعض الوقت. أطالت النظر إليه، كأنّها تفتش بعينها في أعماقه لتجيب عما يدور بداخلها من أسئلة، ثم تساءلت في هدوء:

- مين نور؟

ـ دي دكتورة زميلتنا كانت في غيبوبة.. أنا قولتلك الموضوع دا.. مرات زميلنا اللي مات في الحادثة.

ـ فاكرة بس مش شايف إنك كنت قلقان عليها قوي؟!

ـ قلقان قوي؟ دا طبيعي يا علياء.. في فرق لما اتعامل مع إنسان ما أعرفوش وإنسان أعرفه كويس.

ـ يعني انتَ شايف كدا؟ جايز وخلاص اطمنت عليها؟!

ـ الحمد لله.. كنا فين وبقينا فين!

استمعت إلى كلامه، ولكن عينيه كانَ لها رد آخر، وأخبرتها بسر آخر لا يستطيع أن يبوح به. انصرفت وفي قلبها يقين أنّها أمام أمر ما قد يطيح بكلِّ علاقتها مع شريف ولكنّها لن تتسرع، ستنتظر السر يعلن عن نفسه.

....

جاء «يحيى» في الموعد المحدد بالدقيقة. استقبلته «شريفة» بحفاوة، وقدّمت له القهوة وجلس يرتشف القهوة بقلق بالغ في انتظار أنْ تأتي فريدة تخبره بما حدث، كان لا يعلم أيَّ شيءٍ، ولكنّه على يقين أنّ هناك شيئًا يؤلمها. جلس متلهّفًا لرؤيتها والاطمئنان عليها. دخلت فريدة بهدوء، في خطى ثقيلة وعيونها تبتعد عنه جلست بجواره في صمت قاتل. نظر إلى عينيها لعلّه يعرف سرَّها قبل أنْ تبوح به، ما رأى إلا عينين أرهقهما البكاء والسهر والتفكير، وبين الدموع التي تتلألأ في عينيها لوم كثير، هل تلومه هو.. لماذا اللوم، ماذا حدث وماذا جرحها وهو غافل عنها؟ سألها باهتمام بالغ عما حدث، لم يعد يطيق الصبر بعد أن رأى هذا الحزن الطاغي على ملامحها الرقيقة، ولم تطل حيرته؛ لأنّها هي أيضا تريد أنْ تسمعَ منه إجابة لكلِّ ما يؤلمها. حكت له كلَّ ما علمته من شيرين، وسألته عن الفتيات اللاتي كان على علاقة بهنّ سابقا دون أن تخبره من أخبرها بكلِّ هذه الحكايات، قالت ما عندها ودموعها تصاحب أسئلتها الحائرة، وكأنّها تستحلفه ألا يكون هذا الرجل الذي حدثوها عنه، بينما هو في حالة صمت تام، يستمع إليها في توتر، وأعين زائغة ووجه مصفر وعرق متصبب وكلماتها نار مشتعلة حوله. أنهت حديثها وصمتت منتظرة منه ردًّا، وعيونها تتعلق على وجهه، فقرأت الإجابة قبل أن ينطق بها... طال صمته وطال انتظارها فتساءلت بحزن واستسلام:

- هو كل اللي اتقال صح؟! سكوتك مالوش معنى غير كدا..!

- أنا عاهدت نفسي إن عمري ما أكدب عليكِ، عمري ما أخونك، عمري ما أجرحك، ومش عارف مين المجتهد دا اللي تعب نفسه قوي وبيألف كتاب عن قصة حياتي! ندى هي اللي تعرف عني كل حاجة وواضح إنها حبت تنتقم مني، ندى صح؟

- مش مهم عرفت ازاي، المهم إن دي الحقيقة، الحقيقة إني معرفكش وبتعرف عليك لأول مرة، أنا إيه بالنسبة ليك يا يحيى؟!

- انتِ الإنسانة الوحيدة اللي حبيتها.. فريدة، أنا ببدأ معاكِ عمر جديد، أرجوكِ ماتسمحيش لحد إنه يشكك في حبي ليكِ.

- انتَ ماتعرفش تحب يا يحيى.. كفايه كدا.

- يعني إيه؟!

- حياتك غير حياتي، دنيتك غير دنيتي، فاكر لما قلت لك إني خايفة من اللي جاي من بكرة، دلوقتي أنا خايفة منك، صعب أحس معاك بالأمان.

- ماتحاسنيش على اللي فات، يحيى اللي كلموكِ عنه خلاص مش موجود انتهى.. يحيى اللي قدامك دلوقتي إنسان جديد.. عايش بيكِ وليكِ، صدقيني.. أنا أول ما حاولت أقرب منك جيت هنا وسط أهلك.. دا أكبر دليل إني مش بتسلى.

ـ وجايز دا ذكاء؛ لأن دي الطريقة الوحيدة اللي ممكن تقربك مني، هو احنا لما روحنا الفيلا، كنت عايز توريني لوحاتك ولا .....

ـ كفاية يا فريدة، ليه عايزة تشوهي كل لحظة حلوة بينا؟ أنا مستعد نتجوز حالًا لو دا اللي يخليكِ تصدقي إني بحبك.

ـ والجواز دا هيكمل كام يوم ولا كام شهر، وترجع تاني لحياتك وسهراتك وكل لوحة بقصة حب جديدة، وأنا هعيش معاك ازاي كدا؟!

فرد عليها بعصبيّةٍ بالغة:

ـ بالسرعة دي خيالك رسم كل الخوف دا مني؟! أنا مش شيطان ولا هما كانوا ملايكة، مافيش بنت أجبرتها على حاجة.

ثم صمت دقيقة واستعاد هدوءه، وقال:

ـ أنا كنت مستهتر فعلا.. عملت حاجات كتير غلط.. فريدة، فعلًا حياتي غير حياتك لكن لما قابلتك حسيت إنك دنيا تانية بتناديلي، كرهت دنيتي وقررت أسيبها وأعيش دنيتك بكل براءتها وبساطتها، أرجوكِ صدقيني واديني فرصه أثبتلك قد إيه أنا بحبك وقد إيه اتغيرت.. أرجوكِ.

صمتت وما زالت عيونه تحاصرها بنظراته العاشقة التي ما أصبحت تعرف إن كانت عشق حقًّا، أم مجرد رغبة ستنتهي يومًا ما. صمتت دقائق، ثم قالت:

ـ أنا متلخبطة.. أرجوك، أنا محتاجة افكر بهدوء من غير ضغوط.. يا ريت نبعد عن بعض شوية.

ـ بس أنا مقدرش أبعد عنك، ولا هسمحلك تبعدي، أنا بحبك وانتِ عارفة إني بحبك.. ليه تعذبيني وتعذبي نفسك؟!

- أنا مابقتش عارفة حاجه خالص.. أنا محتاجة أعيد تفكير في كلِّ حاجة.. اديني وقت كافي يا يحيى.. أرجوك ماتحاولش تشوفني أو تكلمني، ولما أعرف أنا عايزة إيه هكلمك.

انتهى اللقاء، وانصرف يحيى وهو يشعر أنّ ما بينهما زلزل بفعل فاعل، فريدة تحتاج إلى الأمان وتكره الخوف، وقد امتلأ قلبها خوفًا منه، وأي فتاة غيرها كانت ستخاف من رجل يدخل في علاقات نسائية بعدد أنفاسه، كأنّه يتنفس النساء، وأصبح أمامه سؤال صعب؛ هل ينتصر خوفها على حبها؟

ماذا لو انتصر الخوف على الحب.. هل ستتركه؟

هل تمتلك هذه القوة الجبارة؟

وإن فعلت فكيف يحيا بدونها؟

لا بد أنْ يبرهِنَ لها على حبِّه، ولكن كيف؛ لقد أصبحت عنيدة، لا تثق بأيِّ كلمة يقولها. عاد إلى فيلا فنه، ولأول مرة لا يشعر بالراحة فيها، كل ركنٍ فيها شاهد على ليالي العربدة والسكر. هنا كان يعيش كما يريد، كل ركنٍ فيها يضج بالخطايا، ربما لم يتطهر من الخطايا إلا هذا الركن الذي خصصه للوحاتها، هنا وقفت وشاهدت كيف يرسمها وكيف يعشقها، هنا ابتسمت وبكت، وطهرت أنفاسها وابتساماتها ودموعها، هذا الركن من كلِّ الذنوب والخطايا. جلس إلى جوار اللوحات فلم يعد في هذه الفيلا أيُّ مكانٍ آخر يصلح للحياة إلا هذا الركن، كل الأركان ملطخة بالخطايا إلا هنا، كل الأركان تذكره بيحيى المستهتر الذي يحيا لنفسه وملذاته، تذكره بشخص يكرهه، تذكره بماضٍ أسود يحاصره ويسلب منه المستقبل الذي يصبو إليه، جلس في الركن النقيِّ وظلَّ ساهرًا يحيط نفسه بلوحاته عنها، كأنّه في محراب عشقه يتطهر بعينيها من كلِّ خطايا الماضي، انقضى الليل وهو ما زال في جلسته نفسها إلى أنْ أرهقَه السهر، ونام على المقعد نفسه لعلّه يحلم بها.

....

تحسّنت حالة الدكتورة «نور» بعضَ الشيء، كان شريف يتابع حالتها باهتمام بالغ.. اهتمام ذكرها بذكريات كانت طوتها وأغلقت عليها كل النوافذ منذ سنوات، كان اهتمامه بها خارج التوقع لها ولأسرتها، خاصة والدها، والدها الذي صمّمَ على أنْ يمنع زواجه من ابنته، وأصرّ على زواجها من ابن عمها الذي يكبرها بعشر سنوات، الآن شريف هو من ينقذ حياتها، ويعتني بها، وتكتب لها النجاة على يديه... كانت «نور» تنظر إليه وهي تفكر: ماذا تغير في كلينا، لقد أصبحت أرملة في ريعان الشباب، تلك الحادثة البشعة أفقدتها زوجها بعد سنوات زواج قصيرة، كانت صدمة كبيرة لها، لقد كان زوجها زوجًا مثاليًّا، شديد الاحترام والانضباط، طبيبًا ناجحًا، وقته بين بيته وعمله ولا ثالث لهما، حتى الأصدقاء لم يكن لهم مساحة كبيرة في أيامه، كان هادئ الطبع، قليل الكلام، رقيق القلب، استطاع بحسنِ المعاملة واللطف أنْ يستحوذَ على قلبها، وينسيها حبَّ شريف، وكلما تذكرت شريف كانت تبتسم وتقول لنفسها: كل شيء نصيب.

وهي ترى الآن «شريف» وتتأمل ملامحه لتعرف ماذا تغير فيه، إنّه ما زال رقيق المشاعر، خجولًا، حاني القلب، اهتمامه المبالغ بها دفعها دون أنْ تدري أن تنظر إلى يديه لتعرف هل تزوج أم لا، أدركت أنّه بدأ حياة جديدة ويمهد للزواج، لقد أصبحت هناك أخرى في حياته، لم تسأله عن شيء ولا في شيء،

كانت في كلِّ مرّةٍ يتابع حالتها ويطمئن عليها، ترد عليه بكلمات مقتضبة:

ـ الحمد لله، أنا بخير.. شكرًا يا دكتور.

تحسنت حالتها وغادرت المستشفى، وبدأ شريف ينتبه إلى أنّ علاقته بخطيبته أصبحت مكالمات قصيرة على أيام متباعدة، ولا بد أنّ علياء أصبحت في قمة الضيق، وعليه إصلاح ما أفسدته الفترة الماضية. عاد يتواصل مع علياء يوميًّا ويطيل الحوار حتى لا تأخذها الظنون بعيدًا، واستطاع باهتمامه بها أنْ يغلقَ أبواب الشك التي فتحها اهتمامه بنور، ولكنّ في قلبه حنين إلى الماضي لا يعرف كيف يهرب منه، ما زال وجهها يطل عليه، يداعب ذكريات الحب الضائع حتى وهو يتحدث إلى علياء، وبدأ سؤال مربك يعصف به هل ما زال يحب نور؟

هل هذا معقول؟! إذًا.. ماذا في قلبه لعلياء.. هل يحب الاثنتين؟!

هل هذا معقول؟!

ربما يكون ما في قلبه لنور حنين للماضي، ربما عطف، ربما شفقة، وربما حب، لا يستطيع أنْ ينكرَ رغبته أنْ يطمئن عليها، ولو هاتفيًّا، ولكن بداخله شيء يلومه ويمنعه ويعنفه كلما فكر في التواصل معها بأيِّ شكل، ربما هذا الشيء هو حب علياء.. نعم إنه يحب علياء ولا يريد أنْ يخونها، لا يجب أنْ يتركَ الماضي يهدم الحاضر، نعم هذا الشيء الذي يمنعه هو حب علياء، ولكن ربما الضمير.. ربما ضميره يرفض نور حرصًا على علياء، وربما قلبه هو الذي يريد نور، إذن رغبته في التواصل مع نور هي صوت القلب، وما يرفض هذا هو صوت العقل، هل هذا يعني أنّه يحب نور بقلبه، ويحب علياء بعقله! ما هذه المتاهة التي يدور فيها؟!

لا... لا بد أنْ يستيقظ؛ نور هي الماضي، حكاية انتهت وأغلقت صفحاتها إلى الأبد، لن يهدم حاضره، هذا قرار نهائي لا رجعة فيه. ابتسم بتنهيدة عميقة بعد أنْ وصلَ إلى شاطئ الأمان بعد الصراع مع أمواج الماضي ساعات، ولكن سرعان ما اقتحمت الأمواج شاطئ هدوء قلبه كأنّها إعصارٌ لا يبقي على شيء، إنها نور تتطلبه على الهاتف، تجاهل المكالمة، تجاهل وهو يعاني وهو يعافر ضد أمواج الماضي العاتية وانتصر، توقف رنين الهاتف ولم يرد، فعاد يبتسم من جديد، ولكن سرعان ما عادت الأمواج تدمر شاطئ هدوئه مرة أخرى، فأغرقت ابتسامته، رد على الهاتف بكلمات مرتبكة:

ـ أهلًا يا نور، ازيك عاملة إيه؟

- الحمد لله.. أنا بقيت كويسة جدًّا، أنا كنت عايزة أشكرك على كل اللي عملته معايا في المستشفى يا شريف.

ـ لا شكر على واجب يا دكتورة، والحمد لله على سلامتك.

ـ الله يسلمك، شكرًا.

أنهت المكالمة سريعًا، وتركت شريف يتساءل مع نفسه: ما الذي استيقظ بداخله؟ دون أن يعرف إجابة، إنّه لا يفهم نفسه ولا يدرك حقيقة مشاعره، لأوّلِ مرّةٍ يشعر أنّه لا يعلم عما تحدثه دقات قلبه الحائر، ويا لها من حيرة!

الفصل الخامس عشر

تمر الأيام وما زالت حيرتها قائمة، تشتاق إليه شوقًا يعتصرها، ويحبس أنفاسها، ويبكي ابتسامتها، ويؤرق نومَها ولا تعلم ماذا تفعل، الخوف يقيدها؛ تخاف منه ومن نزواته، ومن جنونه، وتخاف عليه من حماقاته، تخاف على قلبها الذي يحبه أنْ يتألم في البعد، تخاف من نفسها ومن ضعفها أمامه ومن شوقها إليه... ما مرّ هذا الخوف الخانق عليها سابقًا،و الجدل بينها وبين قلبها لا يهدأ بأسئلة بلا إجابة.. باتت تسأل نفسها دائما: لماذا حبك منقوص أيها الحبيب؟ الحب هو الأمان، ولا أشعر بالأمان في قلبك الطائش، وأيامك التي تضج بالمغامرات والحكايات، ولكنّي أراني في عينيك ملكةً على عرش قلبك، أراني الحياة التي تعشقها، هكذا تقسم عيناك وهي لن تكذب عليّ أبدًا، ولكن أخاف منك أيها الملك المغرور، أخاف أنْ تشتاق إلى جواري قصور لوحاتك، أنْ تبحثَ عن غيري لتجدد حياتك، أخاف يومًا أنْ تنزعَ عنّي عرش قلبك، لتأتي بملكة أخرى، لا أدري ماذا أفعل بك حينها أو ماذا سأفعل بنفسي.. سأكرهك، نعم سأكرهك، ولكني سأكره نفسي، ويومها لن يبقى لي شيء، سأخسر حبي لك وهو أعز ما أملك، ولا يوجد في هذا العالم ما يعوضني حبك، إذن هل ابتعد وأنجو بقلبي من جراحك؟ هل أبتعد لأغلق أبواب العشق الصعب؟

نعم.. لا بد أنْ أبتعد.. أبتعد بقلبي وحبك الذي يملأ كل ذرة في كياني.. يومًا سأعتاد البعد وتبقى فيّ ذكرى عشق ليس لها مثيل، سأبتسم كلما تذكرتك، كلما تذكرت ملامحي بريشتك وألوانك، كلما اشتقت إلى صوتك وحنانك، وسأطلق العنان لخيالي يتخيلك كيف أنت في البعاد، هل تعاني أشواقي.. هل يعتصرك فراقي، أم أنّك تذوب في قبلات شفاه كثيرة، وتتراقص في أحضان جميلة تلو جميلة بحثًا عني.. ستبحث عني وسأبحث عنك، ولكن لن أجد آخرًا مثلك، ولن تجد أخرى مثلي وربما يومًا ما نلتقي مرَّة أخرى بعدما أدرك كلٌّ منّا أنّه لا يحيا بدون الآخر، وربما تنساني شيئًا فشيئا إلى أن أتلاشى يومًا بعد يوم من قلبك، وربما تتذكرني وتسخر من خوفي منك، وربما تسخر من حبك لي.. ربما، لكنّي أعلم أني لن أنساك أبدًا، ولن أحب غيرك أبدًا.

الأفكار تتسارع وتتصارع وما تجني من ذلك إلا ألمًا يتعاظم لينهك روحها، ولا تعرف كيف تخرجُ من دوّامةِ خوفٍ لا يرحم!

على قدرِ حيرتها كانت حيرته، أصبحت جنّتَه المحرمة، التي تسكن قلبه ولا يستطيع الاقتراب منها، تمنعت عن لقائه، ما عاد يراها أو يسمع صوتها، وكل يوم يمر يحترق شوقًا ويعلمُ أنّها تتألم مثله، ولكنّها تحتمل فوقَ طاقتِها وتصبر على لهفتها وتتغلب على حنينها، ولا يعلم ما هي حيلتها، كان يثور عليها وعلى نفسه فلا يملك إلا أنْ يحطّمَ ما أمامه في لحظات ثورته أو يشرب الخمر، هكذا كان يهدء ثورته.. عاد إلى الخمر الذي قاطعه منذ أنْ عرفها، حاول أنْ يتغيّرَ من أجلِها، ولكنّها لا تمنحه فرصةً كافيةً، ولا تثق به كما يثق بها، لكنّه لم يعد إلى السهراتِ والحفلات وصحبة الفتيات، ما زال صادقًا في مشاعره، وصادقًا في وعده لها، ولكنّه الليلة لا يحتمل أشواقه، ولا فيضَ حنانِه. جلس أمامَ لوحاتِها التي رسمها بقلبه قبل يديه وريشته يشكو منها إليها، أكثر في الشكوى والأنين من اللهفة والحنين، وظنّ أنّ عينيها في لوحته تحتضنه، وشفتيها في لوحته تهمس باسمه وتتحرك في شوق إلى شفتيه، فاقترب من اللوحة في ذهول ولبى نداء شفتيها، قبّلها كما يتمنى، ثم أدرك أنّ الألمَ والشوقَ استبدّا به إلى حد الجنون؛ فجلس على الأريكة في أسى أمام اللوحة وأمسك هاتفه، وظلّ يطلبها مرات ومرات، ولكنّها لا تستجيب؛ فأرسل رسالة صوتيّة بصوتٍ مهزوم يعتصره الشوق والحنين:

لو كل حاجة في عمري كدب..

انتِ لحظة صدقي الوحيدة

لو كل لحظة في عمري ذنب..

انتِ التوبة الصادقة الأكيدة

عاشقك وحبي غير أيِّ حب..

مشاعري ليكِ حاجة فريدة

شايفك حتى في عز القرب..

ساكنة روحي ولسه بعيدة.

أرسل رسالته وظلَّ يراقب الهاتف في شغف بالغ، ولكنّها تتجاهل شوقه.. تتجاهل حبه، لماذا.. لماذا كلّ هذا العناد؟!

من أين لها بكلِّ هذه القوة؟!

كيف تحبه وتقوى على البعد؟!

وبدأ سؤالٌ مؤلمٌ يتردّدُ صداه في أذنيه: هل تحبك؟

وبدأ بانكسار يفكّر في إجابه السؤال، ثم وقف صارخًا يتحدى أفكار الشك التي تعذبه ووقف يصيح بصوت مزلزل:

بتحبني، أنا متأكد، مش ممكن يكون قلبي غلطان، لكن هي ازاي قوية كدا، وليه بتعذبني وتعذب نفسها.. بتنتقم مني؟! أنا عمري ما جرحتها، بتنتقم لكلِّ بنت قبلها؟! مش معقول.. مش معقول!

أخرج طاقةَ غضبِه في صرخات وصيحات حائرةٍ، ثم جلس على الأريكة مرة أخرى واستسلم لعذابه وكأس النسيان، شرب كثيرًا لعلّه ينساها وينسى نفسه معها.. شرب إلى أنْ شعرَ أنّه فقد وعيه ولا يدرك ما يراه حقيقة أم خيالًا، إنّه يرى ندى أمامه، متى جاءت؟ هل هي هنا حقًّا أم أنه سكر إلى مرحلة الهلاوس والضلالات.. إنها هنا! تقترب منه وتخطو نحوه في لهفة، أخذ يفرك في عينيه، يغمضها ويفتحها لعلّه يفيق أو يتأكد مما يرى، ولم تمنحه وقتًا ليفيق، بل جلست بجواره وجسدها يلتصق بجسده وتميل لتحدثه وشفتاها تكاد تلامس خدَّه وأنفاسها تختلط بأنفاسه، وهو ينظر بنظرات تائهة حائرة، كأنّه يستجمع كلَّ قواه في تلك اللحظة ليفيق من سكره.. قالت بصوت هامس:

ـ ليه بتعمل في نفسك كدا؟ انتَ ممكن تموت من الشرب، عمرك ما شربت كدا يا يحيى، أنا مصدقتش لما عمي قالي إنّك حابس نفسك وسط اللوحات، عمي قلقان ومش فاهم إيه اللي غيرك، تخيل إنه مستعد يوافق على جوازك من فريدة لو دا يصلح حالك!

فضحك بسخرية، وحاول إبعادَها عنه في ضيق بالغ، وقال بصوت متقطع:

ـ مش لما توافق هي الأول؟! ما خلاص بسببك الحكاية بتنتهي!

فعادت تقترب مرّةً أخرى في ضعف بالغ، وقالت:

ـ يحيى، أنا اللي بحبك.. أنا اللي كنت عارفة كل عيوبك وراضية بيها، عشان بحبك زي ما انت، هي مش بتحبك.. صدقني.

ـ اطلعي برة.. أنا مش عايز أشوفك.

صدمها كلامه الحاد وصوته الذي يتمزق لهفة إليها، وعيناه التي تبحث عنها وكلما افتقدها عاد يتأمل عينيها في لوحاته.

بعدت عنه قليلًا وهي حائرة في أمره وفي أمرها أيضًا. وقفت في استسلام وكأنّها تفكر في الرحيل، فناداها قائلًا:

ـ استني هاتي كاس قبل ما تمشي.. أنا مش قادر أقوم.

فأحضرت له كأسًا جديدًا وتركته يشرب أكثر ويضيع أكثر وأكثر. انهمك في شرب الخمر إلى أن شلت حركاته وكلامه وأصبح فاقدًا للوعي، وهي تراقبه في صمت، لا ترحل ولا تمنعه عما يفعل، كأنّها تجد في عذابه شفاء من عذابها، ثم لمعت في عقلها فكرة لترد كبرياءها، وتنتقم منه ومنها. تركته يشرب إلى أنْ سقط على أريكته مخمورًا فاقدًا الوعي، ثم ارتمت بجسدها فوقه وحضنته وطافت بشفتيها على وجهه الحزين، وقبّلت عينيه المغمضتين، وضاعت شفتاها على شفتيه النائمة الخامدة فأخذت منه القبلات التي حرمها منها عمرًا، ويدًا تداعب خصلات شعره وأخرى تتحس قلبه بين فتحات قميصه، وهو لا يتحرك كأنّه جثة خامدة، ربما لا يشعر بها. مرّت دقائق وهي تتمنى أنْ يشعرَ بها ويذوب في حضنها، ويبادلها الحب والقبلات العاشقة، ولكنّه لا يفعل كأنه مات من ألم عشقها، فابتعدت غاضبة، هل هو تمثال لا يشعر بحرارة شوقها إليه، لو كانت فريدة التي تقبله كان شعر بها وبادلها القبلات والعناق والأشواق مهما شرب من الخمر.. يا له من حقير! فغادرت مسرعة وتركته مكانه على الأريكة لا يشعر بشيء. خرجت من الفيلا وهي تفكر ماذا تفعل، لا بد أن يعاقب، وكما يحرمها من حبه، لا بد أنْ تحرمه من حبيبته إلى الأبد.

....

الوقت يمضي في العمل شديد الملل، وكذلك في البيت أكثر رتابة، كل شيء يفتقد الروح والشغف، كأنّها ترى الجمال بعينيه فما عاد شيء جميلًا. الساعات تمر بطيئة للغاية، والدقائق تزيد حرمانها وآلامها، لم تعد قادرة على مواصلة العمل تركت عملها مبكّرًا وفي عقلها قرار جديد، قرار فكّرت فيه كثيرًا، وخافت منه كثيرًا، ولكنّها استقرت على هذا القرار. عادت إلى البيت وهي متخذة قرارها وهي مستسلمة لحبِّها، لم تعد قادرة على الهروب أكثر من ذلك، قررت أنْ تخضع لمشاعرها التي لا تنكر، ولأشواقها التي تعتصرها، أخيرًا تحررت من خوفها، وأدركت أنّ الحياة لا تحتمل بدونه؛ هو يحبها رغم كل شيء تصدق إحساسه وتصدق إحساسها، تصدق حبه، لن تترك الماضي يدمر المستقبل، لا بد أنْ تمنحَه فرصة، ستتحدث إليه تخبره بفرصته الوحيدة، فرصته الأخيرة، قررت أنْ تقابله وتقترح عليه فترة خطوبة طويلة لتتأكد أنّه تغير، لن تتزوج إلا بعد أن تكون على يقين أنّه يحبها كما تريد، هي لا تريد الحب فقط، تريد الأمان في قلبه؛ الحب بلا أمان لن يدوم؛ لأنّه حب ناقص، تريد الحب والحنان، السكن والأمان... عادت إلى البيت بابتسامة متفائلة غابت عنها طويلًا، جلست في غرفتها تنتظر أنْ يرسلَ لها رسالة جديدة، أو أنْ يطلبها، اليوم سترد نداء قلبه، ستتحرر من خوفها، ستسمع صوته الذي اشتاقت إليه، ربما تقابله اليوم.. لا بُدّ أنْ تقابلَه في أسرع وقت؛ فما عادت تحتمل الفراق. جلست تترقب الهاتف وتفكر لماذا لا تطلبه هي، لقد تمنّعت طويلًا، وبدأت تفكر في ذلك، ولكن كبرياء الأنثى! ينتظر أنْ يلح هو، أن يطلبها هو، لقد تأخّرَ اليوم في الاتصال. جلست تراقب هاتفها بشغف، تنتظر مكالمة تعيدها إلى الحياة، حقًّا هي معه ستعود إلى الحياة، الحياة التي تعشقها، ستعود إلى جنّةِ حبِّه، ويا لها من جنة! إلى أنْ جاءت رسالة، أمسكت الهاتف وقلبها يتراقص، ويقول: لا بد أنّه هو، كم تأخرت يا حبيبي، ولكن لا يهم ، المهم أنّك ما زلت تذكرني كما أذكرك، تحبني كما أحبك. ولكن لم يكن هو من يراسلها، لكنّها رسالة من ندى، بدأت يدها ترتعش، وعاد الخوف يحجب عنها الهواء والضياء، إنه ستارة قاتمه تحيط بها من كلِّ اتجاه، إنّه الخوف الذي قيد يديها وجعلها تفكر كثيرًا قبل أنْ تقرأ الرسالة، وماذا تكون رسالة ندى إلا وجعًا قادمًا، لكن فضولها يدفعها بقوة أنْ تعرف ما الأمر. فتحت الرسالة بخوف بالغ، وما زالت يدها ترتعش، لم تكن رسالة مكتوبة، بل فيديو دقيقتان، دقيقتان من قبلات حارة لها مع يحيى وهو لا يتحرك، مستسلمًا لها تمامًا. انهمرت دموعها، وسرت رعشة في جسدها كلِّه، كأنّها أصيبت بحمى، فيديو من دقيقتين كان كافيًا أنْ يطعنَ حلمَ قلبها العاشق طعنة الموت، ويسدل ستار النهاية على حبِّ العمر، وانقلب كلُّ شيء في دقيقتين، ما كانت تدرك أنّ الدقائق القادمة في أيامها بكلِّ هذه القسوة، وقالت ودموعها تجري وتفيض على وجهها: مافيش فايدة، عمره ما هيتغير.

أمسكت هاتفها وأرسلت الفيديو له ليعلمَ أنه هو من كتب النهاية، ولم يبقَ لها أي فرصة كي تختار.

تركت الهاتف وأطفأتِ الأنوار، وجلست في فراشها تضمد جرح قلبها بالدموع، فما عادت تملك غيرها!

....

أفاقَ من نومٍ عميق قبيل غروب الشمس على ضجيج هاتفه، أفاق بعد ليلة سكر طويلة، أمسك الهاتف ليرى من يريده، نظر باهتمام وهو يتمنى أنْ تكونَ هي، كم يحلم أنْ تكون هي! كم يشتاق إلى صوتها، لكن كان المتصل والده. ردّ على والده وهو ما زال يستفيق، كان والده قلقًا عليه وغاضبًا من استقراره خارج البيت وحيدًا ومن عدم حضوره إلى الشركة، عاتبه والده بعطف وصارحه أنّه مستعد للموافقة على زواجه من فريدة، اعتذر يحيى لوالده على عدمِ الالتزام بالعمل ووعده أنْ يسير كلَّ شيء على ما يرام قريبًا جدًّا. أنهى المكالمة، وعاد يقلب في هاتفه وهو يفكر فيها هل يكتب لها رسالة جديدة أم يحاول الاتصال بها، فانتبه إلى أنّ لديه رسالة منها، أخيرًا ردّت عليه! قفزَ من مقعده وقفز قلبه معه من السعادة؛ أخيرًا ستصفح عنه، أخيرًا ستعلن حبَّها له. فتح الرسالة بدقات قلب متسارعة وعيون مشتاقة، فاصفر وجهه، واتسعت عيناه، وجلس مرة أخرى في صدمة وذهول، لا يصدق أنّ ندى يبلغ بها الجنون إلى هذا الحد، حاول أنْ يتذكّرَ ما حدث في تلك الليلة، حاول أنْ يسترجعَ تلك الدقائق القاتمة، كل ما يتذكره جيّدًا أنّه كان مخمورًا، يائسًا ضائعًا. استبد به غضبه، كيف استسلم لضعفه والخمر لهذه الدرجة، ماذا يقول لفريدة، جلس في يأس وصمت وانكسار، ما زالت ندى تطعنه بغدرها دون رحمة، إنّها خطيئته الكبرى، ما كان يجب أنْ يبوحَ لها بأسراره، لقد منحها تقديرًا وصداقة وأخوة فائقة، وما أخذ منها إلا الغدر. أعاد تشغيل الفيديو وانتبه إلى شيء، إنه لم يقبل ندى قطُّ في هذا الفيديو، بل في حياته كلها، رغم أنّ حياته المليئة بالمغامرات، لم يدخلها في مغامرة، كان يخاف عليها من نزواته وجنونه، كان يحبها ولكن حب من نوع آخر لم يعجبها، وصل بها الرخص والانحطاط إلى حد لا يعقل، ما كان يرى حقيقتها قطُّ واليوم يراها بصورتها الحقيقية، شيطان.. إنّها الشيطان الذي أفسد كل حياته! أمسك هاتفه وطلب ندى، فردت عليه بصوت مرح سعيد:

ـ إيه أخبارك، فقت يا سكران؟

ـ فقت على فيديو فظيع هبعته لباباكِ وكل أصحابنا واحد واحد.

ـ انت اتجننت؟ انتَ بتقول إيه؟!

ـ جنان بجنان.. أنا مش خسران حاجة.. شوفي بقا هتقولي للناس إيه.

أنهى المكالمة وجلس في صمت وسكون لا يعرف ماذا يفعل، جلس يفكر في فريدة يتخيلها وهي تشاهد هذا الفيديو، ويرى دموعها تجرح ورد خديها، ويسمع آهات قلبها المصدوم. شعر بكلِّ ألمها فضاقت أنفاسه وكأنّ الهواء نفد من حوله. خرج إلى حديقة الفيلا وجلس في وجوم، كانت الساعة تقترب من السادسة مساءً، الهدوء يخيم على المكان، لكن في أعماقه ثورة وضجيج يكاد أن يصم أذنيه؛ كيف يتصرف، ماذا يقول لها، وهل بقي له شيء يقوله بعد هذا الفيديو، هل ستصدق كلامه وتكذب عينيها؟

الأسئلة تدور به في دوائر مغلقة، لن يبقى هكذا، لابُدّ من المواجهة، لا بُدّ أن يقابلها، لا بُدّ أنْ تسمعه، سيذهب إليها ويحتمل ثورتها؛ لا يمكن أنْ يتركها لألمها تتمزق هناك وهو يتمزق هنا. سيذهب إليها، يدافع عن حبِّه مهما كلّفه الأمر. أرسل إليها رسالة بأنّه سيزورهم في المنزل الليلة، وبدأ الاستعداد للخروج، ولكنّها فاجأته برسالة لم يتوقعها.. «أنا هاجيلك الفيلا»!

اندهش من ردِّها السريع، واستغرب كثيرًا أنها ستأتي إلى هنا، في فيلا فنه وفيلا خطاياه الكثيرة، عيناه لا تصدق رسالتها، وعقله يرفض أيضًا أنْ يصدّقَ ويرى أنّها ستخدعه، ستتركه ينتظر حتى يقتله الانتظار، وتفتت أعصابه بوحشية، ولم يكن أمامه إلا أن يستعد للقاء. ارتدى بدلة أنيقة سوداء، كأنّه في اجتماع عمل بالشركة، لا بُد أنْ يكونَ جاد المظهر حتى لا تأخذها الظنون بعيدًا، جلس وقلبه مثقل ببطء الدقائق، تمر عليه الثواني ساعات وما زال في الانتظار يفكر كيف سيمر اللقاء، ويا له من لقاء! أول مرة يخاف من لقائها.. يا له من أمر غريب؛ يعشقها ويخاف عنادها ويشتاق لقاءها ويخشاه.. ترى كيف سيمر اللقاء؟!

وجاءت إليه في الثامنة مساءً، جمعت سحر الليل في سواد عينيها، وتاج رأسها، رآها ولأول مرّةٍ يرى أنّ الحزنَ يمكن أنْ يكونَ أنيقًا، حتى في ملامحها الحزينة الهادئة أنيقة ساحرة! فما انتقص حزنها شيئًا من رقتها ولا جمالها، ما انتبه إلى فستانها الطويل القاتم إلا لحظات، بل كان مشغولًا بذبول عيونها رغم سحرها والحزن الذي يكسو جمالها فلا يخفيه، بل يزيد كرهه لنفسه؛ لأنّه سبب هذا الحزن. قالت بصوت رقيق في رقة النسيم:

ـ مساء الخير.

ـ أهلا حبيبتي، اتفضلي.

دخلت بخطى بطيئة، ولكنّها واثقة، تخطو بكبرياء وثبات، أشار لها أنّ تجلسَ، فترددت قليلًا، ثم تحركت إلى الأريكة حيث كان الفيديو، فقالت بنفور وغضب:

ـ تحب نقعد هنا، ولا ماحدش بيقعد هنا غير ندى؟

فقال بغضب:

ـ ندى مالهاش مكان هنا ولا في حياتي كلها.

ـ واللي حصل امبارح دا كان إيه؟!

ـ ماحصلش حاجة أكتر من اللي هي صورته.. فريدة، الفيديو واضح، أنا كنت سكران مش في وعيي، هي جت وأنا سكران، أنا طردتها إنما ماكنتش فايق، ولما فقدت الوعي هي استغلت الفرصة وصورت دقيقتين، دقيقتين وأنا فاقد الوعي عشان تبعتهوملك وتنتقم مني، لازم تفهمي إن كل اللي يهمها تبعدك عني.

ـ انت وعدتني إنك تتغير، هو دا التغيير؟!

ـ انتِ السبب إني أرجع أشرب، تعبني بعدك وعنادك، مقدرتش أتحمل، شربت بس والله ما حصل أي شيء تاني، أنا شبه مقيم هنا مش بشوف حد.. صدقيني.

صمتت وتحركت خطوات نحو صورتها التي تبكي ووقفت أمامها، فانهمرت دموعها تشكو ألمها الذي لا تعرف كيف تفصح عنه، وهو خلفها على بعد خطوات، يحتضنها بعينيه دون أن يقترب، ولا يجد كلامًا يقوله، كأنّما وجد أنّ دفاعه عن نفسه لن يفيد في شيء، فقالت وهي تنظر إلى صورتها:

ـ الحب وحده مش كفاية يا يحيى، أنا قلت لك قبل كدا، دنيتك غير دنيتي وحياتك غير حياتي، حبنا محكوم عليه بالموت.

خطى نحوها سريعًا، ووقف أمامها باستسلام وحزن بالغ، ورأى دموعها المتدفقة فاقترب أكثر وعيناه تطوف بملامحها الرقيقة الحزينة، فأغمضت عينيها كأنّها تهرب من نظراته، فمسح دموعها بيده، بينما يده الأخرى تداعب خصلات شعرها الأسود الطويل، وهي ما زالت مغمضة العينين، مستسلمة للحظات حنانه، فقال في رقة وصدق:

ـ حبنا هيعيش لأنه عايش فينا، أنا بحبك ومستعد أبعد عن أي شيء يبعدني عنك، عارفة يا فريدة أنا أكتر شيء حبيبته في حياتي هو الرسم، لكن أنا مستعد ما أرسمش لو دا يرضيكِ.. بحبك.. ليه خايفة تصدقيني؟

صوته يعزف على أوتار قلبها المفتون به، صوته كأنه مخدر لغضبها الذي جاءت به وهي تظن أنه كافٍ ليحرقه ويحرقها معه، فنظرت إليه وهزت رأسها في يأس وقالت:

ـ عارفة إنك بتحبني ومصدقة، لكن مش هتتغير، ولو اتغيرت هيبقى فترة وترجع زي ما كنت.. أرجوك انساني وسيبني أنساك.

فتغيرت نبرة صوته، وقال بشيء من الانفعال:

ـ مش ممكن أسيبك.. مش ممكن، أنا مقدرش أبعد عنك.. بحبك.

فأغمضت عينيها مرّةً أخرى فاقترب أكثر وأكثر، وهو يترقب رد فعلها، بينما هي سارحة في حنانه وكلامه، في همساته، كأنّها غرقت وما عادت تستطيع مقاومة أمواج عشقه ولا نار شوقها إليه، فاحتضنها بقوة كأنّه يتحدى عنادها وأشواقه وغضبها وغضبه، كأنّه يمنعها من الهروب منه بسور من ذراعيه وحب قلبه،

وراحت شفتاه تأخذ قسمًا غليظًا من خديها وعينيها وشفتيها ألا تتركه، وذابت في قبلاته وأنفاسه دقائق لم تعدها، ولكن سرعان ما أفاقت من غفلة مشاعرها، وأدركت أنّها بين أحضان يحيى قد تذوب إلى أنْ تختفي فلا تجد فريدة مرة أخرى، لا تدري من أين أتى صوت شريفة في أذنيها يصرخ فيها غاضبًا وموبّخًا: انتِ يا فريدة.. انتِ تعملي كدا!

كان صوت شريفة الذي يصرخ في أذنيها هو الدواء الذي أبطل سحر يحيى وسطوته عليها، هو القوة التي حررتها من بين ذراعيه، وهزمت ضعفها أمام عينيه، فأبعدته عنها بقوة غاضبه وزجته بعنف بالغ وهي تصرخ:

ـ عمرك ما هتتغير، مش عايزة أشوفك تاني.

خرجت من الفيلا في أقل من الثانية، وهو واقف مكانه ما زال لم يستوعب أنّها فارقت حضنه وهربت منه وغادرت المكان، غادرت ومعها قلبه ولا يدري ما تنوي فعله. كل شيء مضى في دقائق معدودة، سقط على أريكته يلتقط أنفاسه المتسارعة كما لو كان يركض في الصحراء ليالي طويلة. جلس مهزومًا وهو يظن أنّه خسر كلَّ شيء، لا يصدق أنّ اللقاءَ انتهى بعدما جلس وقتًا طويلًا يحلم باللقاء، فما ارتوى بعد من عينيها، وما قال لها ما كان يريد لم تمنحه وقتًا يعبر عن حبِّه، عن ندمه على كلِّ أخطائه، هل جاءت لتزيد اشتياقه وعذابه، هل جاءت ليعرف كم هي قوية وقادرة على البعد؟

هل جاءت ترى ضعفه أمامها ولهفته عليها؟

لماذا جاءت؟

لتقول كلمات أقسى من طعنة الخناجر؟!

جاءت ويا ليتها ما جاءت! اعتدل في جلسته وأخذ يفكّر في إجابة، لماذا جاءت، وبعد ساعات من التفكير المرهق وصل إلى الجواب، جاءت تزيد سقطاته في عينيها، جاءت لتقوى على قرار الفراق، ربما استسلمت بين يديه ودعته لتقبيلها دون كلمة، بل دون نظرة، كان يكفيها أنْ تدعه يقترب فيذوب أمام سحرها، ويتبخر وقاره بأنفاسها، جاءت لتثبت له ولنفسها أنّ دنياه غير دنياها، وعالمه غير عالمها، اقتربت لتبعدَ بلا عودة، جاءت وهي تقرر أنّه اللقاء الأخير، جاءت فقط لتودعه. هكذا قرأ مشهد لقائهما،

أو ربما وداعهما، وهل يليق هذا الوداع الفقير بعشقه العظيم؟!

جلس يحدث نفسه بيأس: تريدين ملاكًا حبيبتي وأنا لست ملاكًا، أنا إنسان مكبل بالأخطاء والخطايا وحبك طوق نجاتي، لماذا تلقيني في بحر اليأس دون إشفاق، لماذا لا تخافين الفراق؟!

جلس ليلته يحدث نفسه، ويحدث لوحتها ويشكو لها منها، ويشكو لها منه، لا يعرف ماذا تبقى له في حكايته معها....

....

ما زال شريف يشده الحنين إلى الماضي والذكريات، ما زالت ليالي الحب الضائع تمر في خياله كأنّها تداعب حاضره وتعاتبه بقسوة، وأصبح حائرًا في أمر قلبه، كان مشغولًا بنور، ولكن لا يقترب، لم يحاول التواصل معها ولو مرة واحدة؛ كان يخشى أنْ يفتح باب الماضي ولا يستطيع إغلاقه، كلما ألحَّ عليه الماضي، اتصل بخطيبته، حدثها طويلًا، كلّما فاض ميله إلى رؤية نور قابل خطيبته، ربما بالغ في اهتمامه بعلياء، وبدأ يهاتفها في أوقات متأخرة من الليل على غير عادته، يقابلها أكثر بكثير مما اعتاد، وكان هذا كافيًا ليقرأ الدهشة في عينيها والاستغراب في صوتها. بالغ في التعبير عن حبِّه لدرجة أنّها سألته في إحدى المرات:

ـ مالك يا شريف.. انتَ فيك حاجه متغيرة؟!

تكرر السؤال منها كثيرًا، وفي كل مرة كان يرد ردًّا واحدًا:

ـ أنا بحبك، ولما بكون عملي قوي بتضايقي، فقلت أوريكِ شريف الرومانسي.

كانت تبتسم ابتسامة باهتة، وما زالت عيناها تكرر السؤال نفسه، أو اهه طويلة عبر الهاتف تكذبه على استحياء، إنّه حقًّا لا يفهم مشاعره كأنّه في متاهة مشاعر، هل يمكن أنْ يتّسعَ قلبه لامرأتين في آن واحد، إنّه يحب علياء جدًّا بكلِّ تفاصيلها، بجنونها، ورقتها، وجمالها، حتى نقدها اللاذع له لا يضايقه، وكأنّها تكمل نواقص شخصيته، أما نور فهي نور الماضي الذي يشتاق إليه، مهما كان جمال الحاضر يبقي

للماضي سحرًا لا يقاوم، كان دائم الشد والجذب مع نفسه إلى أنْ رأى نور مرّةً أخرى، رآها بجمالها الساحر الغياب والمعاناة لم ينقصا من سحرها شيئًا، رآها صدفة في أحد الأندية، كانت تجلس وحيدة، بينما هو جالس في انتظار أصدقاء له. كان يجلس وحيدًا ينتظر رفقاءه، بينما هي جالسة سارحة بخيالها بعيدًا، لم تنتبه إليه، غارقة في أفكارها وعالمها الخاص، وكل ما حولها من ضجيج لا يأخذها من عالمها.. لا يعلم كيف انتفض مسرعًا إلى حيث تجلس، إنّه الحنين إلى الماضي هو الذي ساقه إليها دون تفكير، كأنّه بلا إرادة. عادت من عالمها الخاص على صوته يحييها برقة بالغة، ابتسمت ابتسامة حزينة، وردّت تحيته بترحيب باهت، ودعته للجلوس. صمت دقائق وهو يتأملها بنظراته، كأنّه يبحث عن نور التي أحبها، نور المنطلقة، المتفائلة. صمت دقائق، ربما يسأل قلبه: هل تحبها؟

ثم سأل باهتمام:

ـ أخبارك إيه يا نور؟

ـ عادي.. عايشة.

ـ واضح إنك متأثرة أوي باللي حصل، حاولي تنسي اللي فات.

ـ بحاول يا شريف، بس تعبت.. بجد تعبت.. أنا....

ثم صمتت وكأنّها خشيت أنْ تقولَ ما لا يجب أنْ تقوله، صمتت وأدارت وجهها بعيدًا. قرأ حيرتها وارتباكها، فقال:

ـ انتِ إيه؟

- في يوم من الأيام عشت أجمل قصة حب ممكن تعيشها بنت، لكن الظروف والنصيب حرمتني من الحب دا، لملمت وجعي وقلت أبدأ حياة جديدة.. حاولت أعيش وأنسى وأبدأ قصة حب جديدة، حاولت أنساك، في البداية كان صعب جدًّا، لكن اتفاجأت إن جوزي بيحبني قوي.. اداني كل حاجة ممكن تحلم بيها زوجة، حب وحنان طيبة واهتمام، واحدة واحدة لقيتني بنساك، فعلا نسيتك.. ازاي قدر يعمل كدا وينسيني سنين الحب الأول، فعلا قدر وأقنعني إن مافيش حاجة اسمها حب أول وحب

أخير، طول ما احنا عايشين نقدر نحب ونتحب، حبيته قوي، وفي ثانية راح مني، راح بعد ما علمني أحبه وأحب نفسي بعد ما كرهتها، حتى لما مات اكتشفت إنه بيحبني أكتر بكتير من حبي ليه، وأكتر بكتير من اللي بتخيله، كان كاتب ثروته باسمي، هو أنا مكتوب عليّ الوجع؟! وكل ما ارتاح أتعذب من جديد!

- نور، انتِ قلتِ إنك اتعلمتِ إن مافيش حب أول وحب أخير، وإن طول ما احنا عايشين نقدر نحب.. اتمسكي بالحياة، أكيد بكرة شايلك خير وفرح كتير.. ربنا معاكِ.

تركها وعاد يجلس في انتظار أصدقائه وعلى وجهه ابتسامة ساخرة، كان يسخر من نفسه ومن قلبه ومن سذاجته، كيف ظن أنّ الماضي ما زال ينبض؟ جلسة واحدة معها لم تتعد دقائق أدرك فيها أن الماضي لن يعود للحياة، بمجرد أن بدأت تتكلم وهو يشعر أنها نور أخرى غير التي أحبها، قلبها تغير.. تفكيرها تغير، حتى نظرتها له تغيرت، كان في الماضي يرى نفسه في عينيها، وكانت ترى نفسها في عينيه، اليوم التقت العيون ولم يجد كلاهما نفسه في عين الآخر، مرّت الأيام وتغيرت وتغيرنا معها وتبدلنا وكأنّنا ولدنا من جديد، إنّها ليست نور التي أحبها، إنّها امرأة جديدة بقلب جديد، ملك غيره حتى لو رحل، لم يعد له مكان في قلبها، كما أنّه هو أيضًا رجل جديد يحب امرأة أخرى غيرها.

أقبل رفاقه وقضى وقتًا رائعا من السمر والضحك، ضحك فيه كثيرًا، ضحكات من القلب الذي ارتاح أخيرًا.. أخيرًا خرج قلبه من المتاهة!

الفصل السادس عشر

لم يزعجها كثيراً تهديده لها، ربما انقبض قلبها في البداية، ولكنّها سرعان ما هدأت وأدركت أنّ انفعاله ما هو إلا دليل على نجاح خطتها الذكية الجريئة، لقد حقق الفيديو ما أرادت بالضبط، لهذا هو منزعج ويهذي بأيٍّ كلام وأي تهديد، مجرد كلام وصرخة ألم من فرط قوة الصفعة، لكنّه لن يفعل، من قال إنّه لن يخسر شيئًا إذا نفذ تهديده، بل سيخسر الكثير والكثير، ربما يخسر كلَّ ثروته إن اشتعلت الحرب بين الكبار، يحيى أعقل من هذا بكثير، لن يضر والده ويدخله في معركة كبيرة لا طائل منها من أجل تجربة حب محكوم عليها بالموت، استطاعت ندى أنْ تطمئن قلبها وأن لا تعير اهتماما لتهديد يحيي، وبدأت تتساءل هل انتهت بذلك علاقته مع فريدة؟ حزنه وصوته وانفعاله يؤكد أنّ حبَّهما يغرق ولا يستطيع المقاومة، ولكن ماذا لو نجا حبهما.. ماذا تفعل بعد ذلك؟ هل يمكن أنْ تترك فريدة تسعد مع يحيى؟

لا يمكن، لن تسمح لهما أنْ يسعدا معًا لحظة واحدة. بدأت تفكر وتقلب في صندوق يحيى الأسود وخباياه، ماذا تبقى في هذا الصندوق كي تضرب ضربة جديدة قاتلة، تريد طعنة في القلب، رصاصة في الرأس، لا حياة بعدها أبدًا، جلست تفكر وتفكر لن ترحم حبهما أبدًا، جلست تقول:

أنا عملك الأسود يا يحيى اللي هيطاردك العمر كله، وجوازك انت وفريدة على جثتي.

تناست تهديده كأنّه لم يكن، وجعلت نصب عينيها العمل في الشركة مع والدها. كان والدها «هاشم الصاوي» الرجل السبعيني رجل الأعمال الناجح غير راضٍ عن حال ابنته، ويطلب منها التفكير في حياتها، كان أمله أنْ تتزوّجَ وتستقر، وكان يعلم مشاعرها نحو يحيى، وكثيراً ما حذّرها من الأمر، وكثيرا ما نصحها أنّ يحيى لا يراها إلا أختًا وصديقة. كان يظن والدها أنّ زواجها نهاية حكايتها مع يحيى، ولكن انتهى الزواج واستمر يحيى حلمًا يعانق أيامها حتى الآن! ما زالت عنيدة كما هي لم تتغير، وربما لن تتغير، كثيراً ما كان يعاتب نفسه ويشعر أنّه أفرط في تدليلها وإرضائها، وتنفيذ كل رغباتها إلى أنْ ظنّت أنّ الزوجَ الذي تريده يمكن أنْ تتزوّجه رغمًا عنه، حالها لا ترضيه، ولكن لا يعرف كيف يقوّمها.

....

لم يكن هناك حل آخر غير البعد؛ إنّه الحل الذي استقر عليه عقلها، حب يحيى هو العشق الحارق الذي سيحرق أيامها غيرة وشكًّا وألمًا، وهي لا تقبل بذلك، تحترق في بعده ربما يكون أهون عليها من الاحتراق بجواره، عقلها اختار البعد ولقد استسلمت لقرار عقلها، وقبلت أنْ ينزفَ قلبُها في صمت وخضوع. مضت عشرة أيام وهي لا تحدثه ولا تقابله، ولا ترد على اتصالاته، أو رسائله المتواصلة، لم يكن ذلك قدرة على البعد بل، كان خوفًا من القرب؛ تخاف أنْ تنهار من جديد أمام صوته وحنانه، وتذوب في كلماته فتصبح مجرّدَ نغمةٍ في ألحانه، أو لون في ألوان لوحاته ورغم كل خوفها لم تستطع أنْ تمنعَ نفسها من قراءة رسائله، ربما وجدت فيها العون على فراقه، وعادت بها الذكريات إلى كلِّ لحظةٍ كانت فيها بجواره، أيام قليلة، ولكنّها تساوي عمرًا بأكمله، وراح قلبُها يعيدُ لها همساته وكلماته، ويذكّرها بنظراته.. بكلِّ شيء، حقًّا قلبها لا ينسى أيًّا منها، وربما لن ينسى، لن ينسيها حب يحيى إلا حب أقوى منه، وما تظن أنّها ستحب مرة أخرى؛ إنّه أول وآخر حب.. سيحيا في ذاكرتها وقلبها وروحها العشق المستحيل.

بدأت تغلق صفحات ألمها وتطويها في قلبها، وتنشغل مع أختها في تجهيزات حفل زفافها، فلم تبقَ إلا أيام قليلة. كانت علياء تشعر جيّدًا بمعاناة فريدة، وكثيرًا ما كانت تطالبها أنْ تنسى ماضي يحيى وتبدأ معه حياة جديدة، كانت علياء رافضة لموقف أختها وأن تصدق أنّ يحيى تغيّرَ، وأنّ الفتيات التي حوله تفعل الكثير من أجل إفساد علاقته بفريدة. كانت ترجو أختها أنْ تتمسك بيحيى وتفسد كل ما يحاك لحبِّها من مكائد، والغريب أنّه لم يكن هذا رأي علياء فقط، بل كان هذا رأي شريفة أيضًا ورغم إلحاح يحيى وكسبه تعاطف كل من حولها، لكنّها ما زالت حبيسة خوفها من عذاب قربه، وجراح حبه، إنّها تحبه ولن تنكر أبدًا حبّها، ولكن هذا الحب لم يغير إيمانها بأنّ يحيى لا يستطيع أنْ يكون أسير حبٍّ واحد وحياة واحدة؛ فهو يعشق بعدد ألوانه في لوحاته، بعدد أناته في ألحانه، يحب النساء، كل النساء، ومن المستحيل أنْ يكتفي بامرأة واحدة.

جاء يوم زفاف علياء وشريف، السعادة والبهجة تملأ الأرجاء، وشريفة بجوار العروسين وهي في قمة السعادة، وتستقبل الحضور والمهنئين بابتسامة وفرحة طاغية، وعيناها تبحث بين الحين والآخر عن فريدة فتجدها جالسة على طاولة في آخر القاعة وحيدة، ربما اختارت مكانها منذ بدء الحفل ولم تغادره قطُّ، ترسم ابتسامة هادئة رقيقة، ولكن شريفة تعلم ما في قلبها وتدعو لها أنْ يكتبَ لها السعادة مع الرجل الذي يستحقها، بينما والد شريف كان يقف بجوار شريفة طوال الوقت يحدثها عن العروسين أحيانًا، ويتغزّل في أناقتها وجمالها كل بضع دقائق، وبين الحين والآخر يهمس في أذنها:

ـ طب والله اللي يشوفك يقول إنك أخت العروسة.. انتِ ما بتكبريش أبدًا؟!

كانت تبتسم كلّما همس لها بذلك، وتقول له:

ـ انتَ اللي مابتتغيرش أبدًا.. لسه بتعرف تقول كلام حلو.

كانت فريدة تتابع كلَّ شيء بصمت، وتوزع ابتسامتها الهادئة على الجميع وتحافظ عليها طوال الوقت، تجلس كأنّها ملكة جمال تأبى أنْ تنزلَ من على عرشها، تجلس في هدوء وشموخ بجمالها الطاغي وأناقتها اللافتة للانتباه، لا تعبأ بالعيون التي تغازلها ولا الهمسات التي تمتدحها ولا الكثيرات اللاتي يغرن منها، لا تفكر فيهن ولا تجعل لهن وزنًا، إنها جالسة في عالمها الخاص، بين أفكار مبعثرة، ومشاعر متضاربة تقذفها بين هنا وهناك، إلى أنْ جاءَ الدكتور عادل وطلب منها أنْ تقف بجوار والدتها و أختها لالتقاط الصور. لبّت دعوة الدكتور عادل ووقفت في الزحام والضجة نصف ساعة، ولكنّها سرعان ما ملت، واتجهت من جديد إلى الركن الهادئ الذي كانت تجلس فيه، ولكنّ صوتًا ما يناديها باهتمام، فالتفتت إلى الخلف. كان شابًّا أسمر رشيقًا أنيقًا، يشع ذكاء من عيونه السوداء، لا تعرفه إطلاقا، فنظر لها بابتسامة رقيقة:

ـ ألف مبروك، عقبالك.

فهزت رأسها قائلة:

ـ الله يبارك في حضرتك يا فندم.

وهمت أنْ تغادر، فقال:

ـ أنا رامي عبد الصبور ابن خال شريف، صحفي.

فابتسمت، وقالت:

ـ أهلًا أستاذ رامي، فرصة سعيدة.

ـ هو حضرتك ليه قاعدة بعيد؟ متهيألي ورا قوي كدا مش هتشوفي كويس.

ـ الموسيقى عالية قوي، أنا مرتاحة هنا أكتر.

ـ على فكرة الرقصة السلو هتبدأ.. إيه رأيك.. ممكن تسمحيلي بالرقصة دي؟

وقبل أنْ ترد وإذا بيحيى يظهر وكأنّه خرج في لحظة من باطن الأرض، فوجه نظراته الغاضبة إليه، وقال بصوت منفعل:

ـ فريدة مابتحبش الرقص.

وأمسك يدها وجذبها بقوة بعيدًا عن الضجيج والحضور، ووقف بها خارج القاعة وقال منفعلًا:

ـ مين بقا دا اللي واقفة معاه؟ ازاي تقفي تضحكي معاه كدا وتتكلمي معاه كدا؟!

فردّت بانفعال أكبر:

ـ هو ينفع تشدني من إيدي كدا؟ الناس تقول إيه؟!

وبعدين مش المفروض تسلم على العريس والعروسة، ولا انت جاي تتخانق معايا بس؟!

ـ سلمت على العريس والعروسة وأم العروسة وأبو العريس وكنت بشوف فين أخت العروسة، لقيت حضرتك مشغولة مع الأستاذ مش واخدة بالك من حاجة خالص.

ـ أستاذ مين! دا واحد من المعازيم قريب شريف، كان بيقول مبروك زي أي حد ورديت عليه زي أي حد.

ـ لا مش زي أي حد، واضح إنك مش واخدة بالك كان بيبصلك ازاي.

ـ لا والله ما أخدتش بالي، أنا راجعه الفرح عشان مايصحش أقف معاك كدا.

وأدارت ظهرها فجذبها من يدها مرّةً أخرى:

ـ استني هنا، هتفضلي تهربي مني كدا لحد امتى؟!

فوقفت وصمتت، وربما صمتها أشعل ثورته أكثر، فقال بغضب بالغ:

ـ بصيلي وردي عليّ، هو أنا هفضل أكلم نفسي؟!

فاستدارت ونظرت في عينيه، وتاهت كلماتها من جديد في بحر نظراته العاشقة، تلك النظرات التي تشل عقلها، وتعلو بخفقات قلبها إلى أنْ تشعرَ أنّها تذوب من حرارة مشاعره فلا تبقى لها إرادة أمامه، فقال هامسًا وكأنّه شخص آخر غير ذاك المنفعل الغاضب الذي كان يلومها بقسوة منذ دقائق:

ـ أنا بحبك يا فريدة وانتِ بتحبيني، ماحدش يهرب من حبه، الحب بنلاقيه مرة واحدة.

- انتَ بتعرف تحب كل يوم.

ـ قبل ما أحبك ماكنتش بحب، كنت بتسلى بصاحب، سميها زي ما تسميها، لكن دلوقتي بحبك انتِ وبس.

ـ خايفة، أنا بحبك ولو اتجوزنا هكرهك، انتَ مش هتتغير.

أخذ نفسًا عميقًا وكتم غضبه، وقال بهدوء مصطنع لعلّه يقنعها:

ـ طيب أنا هفكر معاكِ بنفس المنطق يا حبيبتي، لو اتجوزتِ واحد ماكانش ليه أي علاقات قبلك، هل دا ضمان إن عمره ما هيخونك؟!

ـ لا.

- تمام، احنا كدا ابتدينا نقرب وجهات النظر، يبقى تتجوزي اللي بيحبك وبتحبيه حتى ولو كان له ألف حكاية قبلك، على الأقل الطايش دا خلاص زهق من طيشه وجنونه وبقا إنسان عاقل وناضج، مضبوط يا حبيبتي؟!

- لا.

فعاد انفعاله يكسو ملامحه من جديد:

ـ يعني إيه، انتِ هتجننينيّ!

-مش هتجوزك ولا هتجوز خالص، كلكم زي بعض، الراجل مايعرفش يحب ولا يعرف يكون مخلص، أنا مش عايزة أتجوز.

فضرب كفًّا على كفٍّ وهو يتأفف في غضب بالغ، وقال وهو يتعجب من تفكيرها وعنادها:

ـ انتِ مجنونة!

ـ بالضبط كدا، روح دور على واحدة عاقلة.

هرولت مسرعة إلى الحفل، وجلست في الركن الذي كانت تجلس فيه، وقد ضاعت ابتسامتها. جلست متجهمة الوجه، شاردة في عالم آخر لا تشعر بما يدور حولها تتذكر كلامه وكلامها وتلوم نفسها على كلماتها، ما هذه الكلمات البلهاء، ما هذا العناد القميء، قلبها يلومها بعنف، تستمع صرخات قلبها وعتابه لها أعلى من صوت الأغاني الصاخبة، وكأنّ من عاندت وتحدت ليست هي، ماذا يحدث لها أمامه؟!

كيف ينتصر خوفها على حبِّها لهذه الدرجة؟

كيف تستبدل بإنسانة أخرى لا تعرفها؟

ولامت نفسها قائلة: ليس من الضروري أنْ أتزوّجَه، ولكن ما كان يجب أنْ أكون قاسية معه إلى هذا الحد متجردة من المشاعر وحتى من الذوق.. حقًّا أنا افتقدت أدب الحوار!

انتفضت من مقعدها وخرجت لتعتذر له، لا بد أنْ تعتذر له على هذه القسوة المبالغ فيها، لكنّها لم تجده، لقد غادر. وقفت وحدها لا تعرف إلى أين تقودها مشاعرها وعنادها. مضت دقائق غلبتها فيها دموعها، ثم انتبهت سريعًا إلى حفل الزفاف فجاهدت دموعها سريعًا وعادت إلى الحفل، ورسمت ابتسامة باهته لعلّها تداري حزنها عن أعين الناظرين.

انتهى حفل الزفاف، وعادت فريدة مع والدتها، ورغم أنّ شريفة منهكة إلا أنّها كانت تشعر بابنتها، فدخلت غرفتها، فوجدتها تبكي بحرقة، فأخذتها في حضنها في حنان بالغ، وقالت بإشفاق:

- أنا عزمته عشان عارفة قد إيه انتِ بتحبيه، قلت يمكن المشكلة تتحل.. لو أعرف إنه هيزعلك ماكنتش عزمته يا حبيبتي.

ـ هو مازعلنيش.. أنا ببكي لأني كنت سخيفة قوي معاه.. أنا ما أعرفش ليه عاملته كدا رغم إني بحبه.. بحبه قوي!

حكت فريدة لوالدتها ما دار بينها وبين يحيى وهي تبكي بحرقة بالغة، تحكي وهي لا تعلم لماذا تبعده عنها وهي تخاف بعده، ولا تقوى على البعد رغم أنّها تخاف قربه.. لماذا تقف في منتصف الطريق لا قدرة لها على العودة ولا طاقة لها على الاستمرار معلقة بمشاعر متناقضة ومتضاربة تمزقها دون رحمة ودون شفقة، حكت لوالدتها أنّها تحترق بين قلبها وعقلها، بين حبها وخوفها.

حضنتها أمها لعلّها تحمل عنها شيئًا من عذابها، وقالت:

ـ وهو كمان بيحبك، لو خايفة من زعله هو بيحبك وأكيد هيسامحك، لكن أنا رأيي يا فريدة إنه اتغير ويا ريت تديله فرصة.

صمتت دقائق وكأنّها تفكر في نصيحة أمِّها المتكررة، هذا رأيها الذي أخبرتها به سابقًا، ولكن فريدة ما زالت تتمزق بين مشاعرها وأفكارها، ولم تصل إلى حلٍّ لمشكلتها، فقالت:

ـ أنا تعبانة قوي يا ماما.

ابتسمت شريفة، وقالت بحنانها الذي لا ينتهي:

ـ روحي يا حبيبتي اغسلي وشك وتعالي نامي في حضني زي زمان، ربنا يعمل اللي فيه الخير.

....

لم يهدأ طوال ليلته، عنادها يستنفر غضبه فلا يبقي ذرة في كيانه إلا وأصبحت جمرة من نار، ولكن نار غضبه لا تحرق إلا قلبه وحده، تنسف أعصابه وتمزق راحته تمزيقًا، ولكن كل هذا لا ينقص من نهر عشقها في قلبه قطرة، كلما زاد عنادها ازداد عشقه لها، ازداد تمسكه بها، لأول مرةٍ يستعصي عليه قلب امرأة ولكنّها ليست مثل أي امرأة، إنّها حبيبته، بل أكثر من حبيبته، إنّها روحه ونبض قلبه، جنون أفكاره، ونغمات ألحانه، وريشته وألوانه...

كل جميل في عينيه، حلو الكلام في شفتيه، قمر لياليه الطويلة، وأنشودة القيم الأصيلة، وأشواقه الحارة المثيرة، الحلم واليوم والمستقبل، شمس أيامه وقمر لياليه وسر اشتياقه، وكل ما يعنيه، هي كلّ شيء، وبدونها الحياة لا تعني شيئًا، أيامه دون عينيها عدم، آه لو تعلم.. آه لو تسمع.. آه لو تطلق العنان لمشاعرها الحبيسة، تعذب قلبها وتعذبه بلا رحمة ولا يدري كيف تثق به.

أرهقه السهر والتفكير؛ فاتجه إلى لوحة فارغة وأحضر ألوانه، ولكن لم يرسم شيئًا، ربما لأول مرة لم يستطع الرسم أنْ يطفئ غضبه وينتزع ضيقه من بين الضلوع! جلس حائرًا سارحًا وإذا بفكرة تلمع أمام عينيه، فخرج مسرعًا إلى سيارته بعد منتصف الليل، وتوجّه إلى استديو يملكه أهمله منذ فترة طويلة بعدما انصب كل تركيزه على الرسم وأهمل الموسيقى والألحان، ووجد في الأنغام والألحان ما يكفيه وما يعينه على ألمه، وقضى طيلة الليل يسجل لحنًا وضع فيه كلَّ أحاسيسه ومشاعره في هذه الليلة. أشرقت شمس يوم جديد، وانتهى من اللحن فأرسله في رسالة إلى ملهمته ومعذبته، ثم عاد إلى الفيلا لينام بين لوحاته عنها.

....

تمر الأيام، واستغنت باللحن عن ضجيج العالم، وأصبحت تسمعه باستمرار ولا تسمعه لأحد، إنه كمحادثة خاصة سرية بينه وبينها، إنّها رسالة غرام موسيقية لا يفهمها سواها، لقد جمع أشواقهما وآلامهما وحنينهما واتفاقهما واختلافهما في جمل موسيقية بليغة لا تحتاج إلى كلمات تصفها، ورغم هذا لم ترد ولو بكلمة واحدة على رسالته الموسيقية، أو رسائله المتوالية التي لا تنقطع يوميًّا، رسائل عديدة ما بين أغنيات العندليب وأشعار وألحان، تقرأ كل الرسائل ولا تكتب شيئًا؛ لأنّها تحبه وتخاف قربه، تظن أنّ بعدها عنه يحمي حبهما أكثر من قربها منه، هكذا تفكر، هكذا ترى حكايتها معه، حكاية عشق مؤلم، عشق يخنقنه الخوف، أحيانًا كانت تتذكر كلمته الأخيرة لها حينما قال لها: «انتِ مجنونة»، تتذكر الكلمة وتبتسم وتقول لنفسها مجنونة بيك وبخوفي منك. لم يكن بعدها عن يحيى هو كل قراراتها، بل قررت أنْ تترك عملها في البنك وتبحث عن عمل آخر ومجال آخر، ورغم اعتراض أسرتها إلا أنّها قررت وصممت على التنفيذ، ولم تبالِ بنصائح أحد، تركت عملها وتركت فيه ذكريات كثيرة، ولكن ما زال يحيى بكلِّ ذكرياته معها يرافقها ولا يغيب عنها لحظة، كأنّها تتنفس حبه، لو توقفت عن حبه ستموت، وأصبح وقتها كله في البيت. زاد وقت الفراغ وما زال عقلها يحاكم قلبها، وقلبها يحاكم عقلها في محاكمة مستمرة ربما لا تتوقف حتى في نومها. تعودت على هذا الصراع النفسي، تعودت أنْ تحيا بهذه المشاعر المتضاربة على أمل أنْ تلتحق بعمل ينقذها من هذا الصراع النفسي... ما زالت تفكر في عمل جديد، ولكنّها تريد شيئًا غير تقليدي، عملًا يحتل كامل وقتها وتفكيرها، عملًا ينسيها كلَّ شيء حتى نفسها، ربما بعد كل هذا تنسى يحيى!

....

الفصل السابع عشر

لم ينسَ الدكتور عادل الحبَّ القديمَ، ومنذ زواج ابنه وهو مشغول بحلمه القديم، ذاك الحلم الذي بُعث إلى الحياة بكلِّ عنفوان الصبا، فأصبح متمرّدًا عليه وعلى صمته الطويل، ما عاد هناك عمر للانتظار، وماذا ينتظر، ولماذا يتردد والأيام تحيي الماضي بكلِّ جماله، وكلِّ روعته، وكأنّ السنوات الطويلة الماضية لم تكن، لماذا يهرب من حقيقة يعلمها علم اليقين، هو ما زال يحب شريفة، وقلبه يحدثه أنّ له في قلبها مكانًا لم يشغله غيره حتى الآن، ما زال في عينيها بريق الماضي لم يختفِ، لقد انتهت كل العقبات التي فرقتهم في الماضي فماذا ينتظر، يحتاجها الآن ربما أكثر من الماضي، وهي أيضا تحتاجه، كلاهما يحتاج الآخر، يحتاجها واحة السعادة والحب بعد سنوات صبر ومعاناة، وهي أيضا تحتاج وجوده في حياتها الباردة كي ترتاح من سنوات الوحدة والحرمان. كان يعلمُ جيّدًا ماذا يريد، ولكن لا يعلم هل ستوافق.. فكر أنْ يصارحها بما في قلبه وبرغبته في الزواج منها، ولكنّه كان يخشى رفضها ورغم يقينه أنّها تحبه، لكن كان على يقين أنها سترفض أنْ تفكّرَ في نفسها قبل أن تتزوج فريدة، هكذا شريفة.. لا تفكر في نفسها أبدًا، أمومتها تغلبت على كلِّ عواطفها، إذن فلن يساعده في تلك المعضلة إلا فريدة، ولم يتردد في أن يطلبها هاتفيًّا ويحدد موعدًا للمقابلة في مكان عام بعيدًا عن شريفة. قابلها وحكى لها عن عادل الذي لا تعرفه، عن شاب صغير عشق والدتها، ولكن جدها حرمه من حب عمره دون أسباب مقنعة، أخبرها أنّه لا بد من حكمة أن يجمعهما الله بعد كل هذه السنوات. أفاض في حديثه عن حبِّه لوالدتها، وعن عذاب الماضي لعلّها تدرك أهمية زواجه من شريفة، وحدّثها عن تضحيات والدتها من أجلها وأجل أختها التي ربما لا تعرفها حينما رفضت الزواج منه بعد وفاة زوجها. كانت فريدة تستمع بإنصات وتتعجب أنّ حب الدكتور عادل ظلّ حيًّا في قلبه طوال سنوات الفراق والبعد، ما زال يحب والدتها كأنّها الفتاة الصغيرة التي كانت تحمل حقيبتها إلى المدرسة الثانوية، كانت تصدق كلَّ كلماته؛ فحبُّه واضحٌ وضوحَ الشمسِ لا ينكر. كان عادل يتكلم وعيناه تقرأ في ترقب رد فعلها، وبداخله سؤال هام هو هل فريدة تقبل زواج أمها؟

كان يتابع إنصاتها وابتسامتها الهادئة، ويبتسم كأنّه يمنّي نفسه بقبولها أفكاره وأحلامه، ربما لو ترفض كانت انفعلت وبدا عليها الضيق، حكى كلَّ ما في قلبه دون تردد، ولما انتهى من كلِّ ما يريد صمت وصمتت هي أيضًا، وكأنّها شردت بفكرها وعقلها بعيدًا عنه، صمتت وغابت ابتسامتها مما أثار قلقه، فقال بصوت قلق:

ـ فريدة، جايز تكوني اتفاجئتِ بكلامي، وجايز تكوني بتقولي هو الراجل العجوز دا لسه بيدور على الحب.

فابتسمت وقالت:

ـ عجوز إيه بس! حضرتك بالكتير أخو شريف الكبير، بالعكس أنا سعيدة إن في حب كدا ووفاء كدا، أكيد ماما تستاهل إنك تحبها كل الحب دا طول السنين دي.

ـ مامتك دي ست الستات، ولو أحبها فوق عمري ألف عمر بردو شوية.

ـ ياه يا عمو.. يا سلام على حب زمان! الحب دا مابقاش موجود دلوقتي.

ـ بالعكس، الحب موجود في كل زمان.

ـ تفتكر؟!

ـ متأكد، بس ساعات يبقى الحب قدامنا ومش شايفينه أو خايفين نشوفه.

انتهت المقابلة وكلمته الأخيرة تتردد في أذنيها طوال طريق العودة، منذ شهرين وهي تستسلم لخوفها من حبِّها ليحيى، استطاعت أنْ تبتعدَ عنه، لا تكلمه، ولكن لم تستطع أنْ تمنعَ قلبها من حبِّه، وكأنّ حبَّه في قلبها يقوى بالبعد، اكتفت بقراءة رسائله وأشعاره وسماع أغنيات العندليب كلَّ ليلةٍ في رسائله، كما لو كان مرسال الغرام بينهما وحرمت نفسها من لقائه.. إلى متى ستظل تعذب نفسها وتعذبه؟

عادت إلى البيت ونظرت إلى المساء، وجلست إلى جوار والدتها، وتركت أم كلثوم تشدو على هاتفها بأغنية تعلم أنّ والدتها تحبها كثيرًا، أغنية «أنت عمري»، فقالت شريفة:

- سيدي يا سيدي على الروقان، شكلك مبسوطة النهاردا.

ـ فعلًا.

ـ خير؟ فرحيني.

ـ في عريس طيب وجميل وابن ناس وعارفينه كويس عايز يتزوج مامتي حبيبتي.

فوقفت منزعجة، وقالت بانفعال:

ـ إيه الكلام اللي بتقوليه دا؟!

ـ اقعدي بس يا ماما.. إيه اللي ضايقك؟!

ـ هو انتِ مش واخدة بالك انتِ بتقولي إيه.. أنا أتجوز؟!

ـ وليه لا؟

ـ جواز إيه يا فريدة.. خلاص أخدت نصيبي ومافيش أحلى منه نصيب، كفاية عليّ انتِ وأختك، ومش عايزة حاجة من الدنيا غير إني أطمن عليكِ انتِ كمان مع ابن الحلال اللي يصونك.

ـ لا يا ماما، انتِ ما أخدتيش غير الوحدة والتعب، اترملتِ في عز شبابك.

ـ فريدة، ماتفتحيش الموضوع دا تاني، وأنا ليا كلام تاني مع عادل.

ـ بس أنا ماقلتش إنه دكتور عادل.

فارتبكت شريفة، ثم قالت:

ـ أمال مين؟!

ـ هو العاشق الولهان، طب ما انتِ عارفة أهو، هو إيه عيبه بس؟!

- عادل مافيهوش عيب، لكن دايما المشكلة عندي.

ـ زمان كان جدي، دلوقتي فين المشكلة؟

ـ كل حبي ومشاعري ليكم وبس، مابقاش عندي حاجة تانية لأي حد، تصبحي على خير.

هرولت شريفة إلى حجرتها لتنهي هذه المناقشة، دخلت حجرتها وهي مشتتة وتتقاذفها مشاعر متضاربة، لا تعلم إن كانت غاضبة أم سعيدة أم متفاجئة أم خائفة من غضب بناتها، كل ما تعرفه أنّ عادل تسرع، وما كان يجب أنْ يتّخِذَ هذه الخطوة منفردًا. فكّرت أنْ تتّصلَ به وتلومه بقسوة، ولكنّها تراجعت؛ لا يجب أنْ تحدّثَه الآن قبل أنْ تهدأَ تمامًا وترتب أفكارها وتتحكم في انفعالاتها. حاولت أنْ تهدأ، وتساءلت لِمَ كل هذا الانفعال؟

من حقِّه أنْ يطلب الزواج منها، ومن حقّها الرفض وبكلِّ بساطة ينتهي الأمر، نعم ليس هناك شيئًا يدعو للانفعال. هكذا قاومت غضبها وأغمضت عينيها دقائق وأطلقت العنان لأفكارها وخيالها، فإذا بها تتخيل أنّها تزوجته، كيف ستكون شكل حياتها معه، لا بد أنّها ستذوب في الحبِّ الذي لم تعرف لونه ولا مذاقه طوال حياتها؛ زواجها من والد البنات زواج تقليدي لم يرتق إلى الحب في أيّ يوم، ولكن عادل في حياتها هو الحب الذي لم يتوج بالزواج، وها هو يعود عادل بعد كل هذا العمر ليحيي مشاعرها المدفونة في صراعات مع الأيام والظروف. عاد من جديد ولكن مثلما قرارها في الماضي كان لوالدها، اليوم القرار أيضًا ليس قرارها، قرارها وقلبها وعقلها في قبضة أمومتها التي لا تقبل أنْ تهتزَ صورتها في أعين بناتها ثانية واحدة. عادت إلى واقعها، وقالت لنفسها: مستحيل، حياتي لبناتي. وجلست تتذكر فريدة وهي تتحدث عن الدكتور عادل، وكيف أنّها تبدو مرحّبة تمامًا بهذه الزيجة، ثم عادت تتساءل: هل حقًّا زواجي لا يضايقها؟ ثم أجابت في اللحظة ذاتها: بالتأكيد لا، حتى لو كانت فريدة تبدو موافقة فهى تقبل فقط؛ لأنّها حانية رقيقة، لكن هي تثق أنّ ابنتيها لا يرغبان أنْ يشاركهما أحد في قلبها، أما علياء لو علمت سترفض، هي تعرفها جيّدًا، لن تقبل أبدًا، ربما تتأثر علاقتها بزوجها، كيف لم يفكر عادل في كلِّ هذا قبل أنْ يبوحَ بأسرارِ الماضي؟!

أفاقت على الحقيقة أنّ الأمر ليس بالسهولة التي يتصورها عادل، ظلّت طوال الليلة في حديث طويل مع نفسها، انتهت إلى إغلاق أيِّ باب للخلافات بينها وبين ابنتيها.

....

على غير العادة منذ أسبوعين لم يرسل لها أيّة رسائل، وهي ما زالت تأبى أنْ تتواصلَ معه، ولكن هذا لم يمنع انشغالها به وقلقها عليه، ربما غيابه الغامض جعل الأفكار تقذف بها بين دروب الشك والحيرة والقلق إلى مدى فاق قدرتها على التحمل، وبدأت تفكر أنْ ترسلَ له رسالة لتطمئن عليه، فقط تطمئن أنّه بخير، ربما كان مريضًا، وعاد الشك في قلبها يتحدث بأحاديثه المؤلمة وماذا لو كان نسيها وانشغل قلبه بوجهٍ جديدٍ للوحةٍ جديدةٍ كما اعتاد، وهنا بدأ صوت عقلها يعلو ويحذرها أنْ تنتقصَ من كرامتها، أن تفعل مثلَ كلِّ من عرفهن، هن من يهرولن خلفه إلى أن يملَّهنّ ويبحث عن غيرِهِنّ، وأصبحت في صراع بين كبريائها وحبِّها وقلبها وعقلها، صراع انتهى إلى اللا شيء، لم تكف عن التفكير فيه، لم يهدأ قلقها عليه، ولم تقدر أنْ تتواصل معه ولو برسالة مكتوبة، إلى أنْ جاءتها رسالة مكتوبة من ندى، دون أن تفكر فتحت الرسالة وقرأتها وهي على يقين أنّ فيها إجابة على أسئلتها. قرأت الرسالة باهتمام فلن تكون جارحة لها أكثر مما سبق، الرسالة لم تكن فيديو كما سبق كانت رسالة مكتوبة، كانت تقول:

الحقيقة وشك عليه حلو قوي، الخسائر نازلة ترف على الشركة، وهتتباع أو باباه هيتحبس، ما شاء الله عليكِ.. جبتيه الأرض، مبروك عليكِ يحيى.

كانت الرسالة مذهلة ومرعبة في الوقت ذاته، متى حدث كل هذا! دون أن تفكر في أيّ من حساباتها المعقدة وجدت نفسها تطلبه فورًا، فردَّ عليها سريعًا:

ـ فريدة! انتِ بجد بتكلميني ولا أنا بيتهيألي؟!

ـ يحيى، انت كويس؟!

- الحمد لله.

- ممكن أشوفك؟

- يا ريت، أنا محتاجلك قوي.

- ممكن النهاردا؟

ـ يا ريت حالًا!

ـ أوكي، في نفس المكان.

وفي المكان الهادئ نفسه على النيل التقيا بعد غياب طويل، كان شاحب الوجه مطلقا لحيته، يبدو مثقلًا بهموم كثيرة، مرهقًا إلى حد الذبول، ولكن ما إن رآها حتى ابتسم ابتسامة متفائلة لتضفي على وجهه وملامحه الحزينة أملًا جديدًا. كانت ترتدي فستانًا طويلًا رماديًّا، وشعرها الأسود الطويل ينساب ببساطة ورقة، ووجها بجماله الطبيعي غير مثقل بمساحيق التجميل يبدو أكثر جمالًا وعيناها السوداوان تلمع بشوقها إليه وخوفها عليه. جلسا معًا وأبدى سعادته بأنّه يراها، قائلًا:

ـ أنا متهيألي إني بحلم.. يااااه! ماتعرفيش أنا محتاجلك قد إيه، وحشتيني.

- طمني عليك يا يحيى، أنا جاتلي رسالة قلقتني عليك من ندى.

- ندي تاني! أقسم بالله ما شفتها.. أنا في دوامة وظروف ربنا بس اللي يعلمها.

- هي المرة دي بتتكلم عن موقف الشركة وإفلاس وحاجات كدا.

- آه، شمتانة فيا يعني، صح للأسف في خساير كبيرة ومضطرين نبيع الشركة ونسدد الديون.

ـ يحيي المهم انت، الفلوس بتروح وتيجي، هتعمل بعدين شركات يا حبيبي.

ابتسم يحيى، وقال:

ـ بجد أنا حبيبك؟ يعني مش خايفة مني؟!

- أنا عمري ما أنكرت إني بحبك يا يحيى.

ـ فريدة، احنا بعد ما نسدد الديون مش عارف هتبقى ظروفي إيه، وخايف أكون هبدأ من الصفر.

- مين قال إنك لسه هتبدأ، انت بدأت مشوارك، انت رسام عظيم وكمان ملحن موهوب جدًّا، أي ظروف هتعديها يا يحيى، أوعدني إنك هتعدي كل دا.

- جوايا تأنيب ضمير فظيع، حاسس إني مسئول عن ضياع الشركة، كنت عايش لنفسي والحمل كان

تقيل على بابا في السن دا، خايف يجراله حاجة.. الموقف صعب جدًّا عليه.

- طول ما انت جمبه هيبقى بخير.

استطاعت بكلماتها البسيطة أنْ تهوّنَ عليه خسائره المادية الفادحة، ورغم كل مشاكله المتداخلة شعر أنّ مكسبه الوحيد في هذه الأزمة أنّها قربت فريدة منه بعدما ظنّ أنّه افتقدها للأبد، كأنّها الأمل الوحيد في أيامه القاتمة ونور الخلاص في أزمته الطاحنة.

....

تمر الأيام، ويحيى مشغول ليلًا ونهارًا في أزمة الشركة إلى أن أنهى كل شيء، تم سداد الديون كافة، ولكن والد يحيى كان في أزمة نفسية كبيرة، لقد خسر الشركة، وأغلب ثروته ولم يتبقَ له إلا فيلا واحدة، ومبلغ من المال ربما يبدو للعامة هذا المبلغ جيّد جدًّا، ولكن كلما يتذكر ما فقده من ملايين يتملكه اليأس والألم، أصبح في عزلة بالغة، لا يغادر غرفته، وبدأت حالته الصحية تتدهور شيئًا فشيئًا، وخلال بضعة أسابيع بدأ يحيى يدخل في دوامة جديدة مع والده بين الأطباء في مختلف التخصصات، كل يوم يشكو من ألم جديد، وكأنّه كبر مئة عام فوق عمره، وكذلك يحيى شعر أنّه أصبح شخصًا آخر غير نفسه، شخصًا يعيش وفوق كاهله هرم من الشعور بالذنب والمسئولية عما طال والده من أزمات مالية وصحية متتالية، ولكن هذه الدوامة لم تطل أكثر من شهر، فقد رحل والده بأزمة قلبية مفاجئة، وترك ليحيى شعورًا هائلًا من الألم والوجع، وإحساسًا مضاعفًا بالذنب يفوق احتماله وكأنّ التجارب الصعبة المتلاحقة التي مرّ بها جعلت منه يحيى آخر، ما عاد يهتم بشيء، ولا يشغله شيء، حتى فريدة أصبحت هي من تحاصره بالمكالمات وهو الذي يكتفي برسائل مكتوبة، كأنَّ حزنه ابتلع كلَّ كلامه، وما أصبح قادرًا على الكلام ولا الخروج من صومعة أحزانه. مضى أكثر من شهر وهو شبه مقاطع للحياة وضجيجها، ربما لم يبق على صلة بأحدٍ إلا فريدة، ولكن في حدود قليلة لم تكن كافيه لتطمئن قلبها عليه، كانت كثيرًا تطلب منه أنْ يتقابلا، ولكنّه كان يعتذر ويخبرها أنه لا يريد أنْ تراه وهو في هذه الحالة. كانت تقبل أعذاره؛ فهي تشعر بحزنه البالغ وألمه الهائل، لكنّها كانت على يقين أنّه قوي وسوف يتجاوز كل هذه الأزمات.

كانت تواسيه بكلماتها العذبة، وصوتها الرقيق، وتبعث في روحه المتعبة أملًا جديدًا، فهي تريده أنْ يخرج من هذه الأزمات أكثر قوة وأكثر نضجًا وأكثر رغبة في التحدي، تناست كلَّ مخاوفها السابقة، ولم يعد يشغلها إلا خوفها عليه، إنّه في مفترق طريق في رحلة أيامه، ولا بد أنْ تساندَه كي يمضي في طريق النجاح الذي يستحقه، بها ولها سينجح.

....

تمر الأيام هادئة جميلة بين شريف وعلياء، كل منهما كان يعرف شخصية الآخر جيّدًا، بكلِّ طباعه الجيد منها والسيئ، كان شريف يقبل عصبيتها أحيانا وجنونها أحيانًا، ولكنّه كان يعرف كيف يعيدها إلى هدوئها وحنانها، كان يعرف كيف يعوضها عن ساعات انشغاله الطويلة بيوم يقضيه معها ولها أسبوعيًّا كما تريد، هي من تضع خطة ذاك اليوم، وأماكن النزهة والسهر، كانت علياء تستعد لهذا اليوم طوال الأسبوع ويوميًّا تعدل في برنامج هذا اليوم وهي تعلم أنّ شريف لن يعترض بل سيشكرها كثيرًا على هذا اليوم الجميل الذي يمحو كلَّ معاناة الأسبوع وإرهاقه، وتعلمت هي كيف تتقبل انشغاله وساعات عمله الطويلة، بل أصبحت هي من تطلب أنْ تعرفَ تفاصيل يومه، وأسماء مراضاه، وباتت تحفظهم وتسأل عن تحسنهم وتبتسم فخرًا بزوجِها الذي أنقذ كل هؤلاء، فباتت تعشق زوجها بكلِّ تفاصيله وكل حكاياته، وأكملت السعادة بحدوث الحمل سريعًا وأصبحا ينتظران معًا هذا الحدث السعيد، وأصبحت علياء تستعد لأنْ تكون أمًّا، فكما أصبحت زوجة مثالية عليها أنْ تصبح أمًّا مثالية، وهذا لن يحدث من فراغ، بل بالقراءة والاطلاع، أصبحت تقرأ كثيرًا عن نمو الأطفال والتعامل معهم، وبات هذا الحدث الأبرز والأجمل في حياتها هذا الجنين الذي لم تره بعد يشغل تفكيرها ويمتلك قلبها قبل قدومه، كل يوم تختار اسم ولد واسم بنت وفي اليوم التالي تبدل الأسماء، وكل يوم تختار اسمين جديدين وفي أعماقها يقين أنّها لن تستقر على اسم طفلها إلا يوم ولادته. كانت سعيدة بحياتها وإيمانها أنّ السعادة قرار، كل منّا يستطيع أنْ يصنعَ سعادته إنْ أراد، فقط الأمر يحتاج إلى حكمة في التعامل مع الواقع.

الفصل الثامن عشر

استيقظت على رسالة في هاتفها من يحيى يطلب لقاءها في نفس الموعد ونفس المكان، أخيرًا شمس لقائهما تشرق بعدما عزّ اللقاء، منذ وفاة والده وهو لا يغادر سكنه ومقيم في صومعة حزنه، أخيرًا سيخرج للحياة والناس! أخيرًا ستقابله، اشتاقت له كثيرًا، اشتاقت إلى صوته، كلامه، نظراته، إلى كلِّ تفاصيل وجهه، أحاديث الهاتف لم تعوضها شيئًا، فقد افتقدته كثيرًا وهو أغلى ما في أيامها. أشرقت ملامحها بنور اللقاء قبل أنْ تراه، وبدأت تفكر ماذا ترتدي وكيف تطل، ووقفت أمام دولابها تتخير بين ثيابها أفضلها وأجملها، ثم عادت تتذكر أنّ الألوان الفاتحة لا تليق بحزنه وعليها أنْ تحترمَ مشاعره، فبدأت تقلب في الألوان القاتمة، أيهما الأجمل والأنسب إلى أنْ استقرت على فستان أسود فيه نقوش بيضاء صغيرة في نصفه العلوي فقط إنه أنسب ما عندها لهذه المقابلة وإن كان ليس أجملها، وبدأت تفكر في مكياجها وشعرها وحقيبتها وحذائها وعطرها وإكسسوارها. قضت ساعات تتخير كيف تكون طلتها عليه بسيطة، لكن أنيقة جميلة دون تكلف، إلى أنْ اقترب الموعد وأصبحت جاهزة تمامًا، ووقفت نصف ساعة تتأمل مكياجها بعد أنْ أتمّته لعلّها تجد شيئًا غير مناسب إلى أنْ اطمئنّت أنّ كل شيء على ما يرام، وذهبت إلى اللقاء بلهفة مرسومة في كلِّ ملامحها، في ابتسامة عينيها حينما رأته، في نبرة صوتها وهي تنطق اسمه وكأنّها ترسم حروف اسمه وتنطقها بدقات قلبها، وليس بالكلمات. استقبلها كذلك بنظراته العاشقة التي تعرفها واعتادت عليها في كلِّ مرّةٍ تقابله فيها، ولكنّه كان سارحًا، حائرًا، ابتسامته العاشقة ممزوجة بحزن عميق، حاولت أنْ تخفّفَ عنه قدر ما استطاعت، ولكن شعرت أنّ أحزانه أكبر من كلامها وربما أقوى من حبِّها، كان قليل الكلام، ولكن في عينيه كلام أكثر بكثير، فقالت بعطف:

ـ مالك يا يحيى.. في حاجة ما أعرفهاش؟

ـ والله ما عارف مالي.. أنا مخنوق.. أنا مش أنا، إحساسي بالذنب هيجنني.

ـ جايز لو كنت مركز مع والدك في الشركة بردو كانت حصلت الخسائر دي، وفي النهاية انت تقدر تنجح وتعوض.

ـ وبابا أعوضه ازاي؟!

ـ ربنا يرحمه يا يحيى.. أكيد باباك كان عايزك تكون ناجح في حياتك ولو بتحبه تنجح وتكمل مشوارك في الرسم والموسيقى.

ـ بحاول، لكن مش قادر.

ـ اوعدني إنك تقدر وتحاول ألف مرة لغاية ما تنجح.

ـ أوعدك يا فريدة، بس في حاجة مهمة عايز أقولك عليها.

ـ خير؟

ـ أنا هسافر بكرة لشادي ابن عمي، أقعد شوية معاه في إنجلترا، أغير جو.

صمتت وراحت ابتسامتها، وبدت دهشتها ترسم ألف سؤال وسؤال، فانتبه إلى تأثير مفاجأته عليها، فقال متسائلًا:

ـ مالك يا حبيبتي؟!

ـ أنا بكلمك كل يوم فون أو واتس، ليه ماقلتليش إنك هتسافر.. بتقولي بعد ما فكرت وقررت وحجزت طيران ومسافر بكرة؟ طيب ما كنت سافرت وكلمتني من هناك عشان وقتك.

- ماقولتلكيش عشان هترفضي وتخليني أتراجع وأنا محتاج أسافر، محتاج أهرب شوية.

ـ انت هتهاجر يا يحيى؟!

ـ أهاجر إيه بس.. انتِ بتفكري ازاي، طيب لو عايز أهاجر همشي من غيرك؟ أنا مسافر أسبوعين شهر بالكتير.

عادت لصمتها ولمعت الدموع في عينيها واحتواها شعور بالفقد، شعرت أنّها افتقدته أنه ضاع منها ربما للأبد. فعاد يقول:

ـ إلا دموعك يا فريدة، لو السفر هيضايقك للدرجة دي مش هسافر، والله مش هسافر عشان خاطرك.

ابتسمت وقالت:

ـ خلاص يا يحيى، لو السفر هيسعدك سافر بس اوعدني إنك هترجع.

ـ أوعدك إني هكلمك كل يوم وهفكر فيكِ كل ثانية وهرجع عشان أنا قلبي معاكِ وماحدش يعيش من غير قلبه، هتودعيني بكرة في المطار؟

هزّت رأسها بالموافقة، وعادت إلى البيت بألمٍ يشق قلبها، وخوف يعصف بها، وعاد الخوف يستبد بها من جديد؛ تخاف الوداع.. تخاف البعد.. تخاف الظروف، أهي الحاسة السادسة تنبّئها بشيء تجهله أم أنّه مجرد الخوف من الشوق في غيابه، ماذا حدث لها؟ إنّها لا تفهم نفسها ولا تفهم مشاعرها، كل ما تعرفه أنّ قلبها منقبض من هذا السفر، خائف من هذا الغياب!

جاء يوم السفر، وودعته بابتسامة باهتة حزينة وبريق عينيها منطفئ، بدموعها التي تشكو حالها وخوفها من الوداع، ودّعها بألف نظرة عشق وألف وعد أنّه سيعود لها سريعًا، ألف قسم أنها ستعلم كل كبيرة وصغيرة عنه، وطلب منها أنْ تخبرَه بكلِّ شيء عنها، أن تعتني كثيرًا بنفسها إلى أن يعود ليعتني بنفسه بها. ودّعها بكلمات عشقه: بحبك وهحبك لآخر يوم في عمري.

سافر يحيى بأحلامها، وأمالها، وراحتها، وابتسامتها، ولم يترك لها إلا خوفًا يمزقها ووعودًا تتنفسها.

....

جاءت علياء في زيارة معتادة لوالدتها، وظلّت تحكي طويلًا عن متاعب حملها ووالدتها تستمع وتبتسم وتقول لها مازحة:

ـ انتِ فاكرة الأمومة من غير تعب؟ أمال ليه الجنة تحت أقدام الأمهات؟!

وظلّت شريفة تمنحها نصائح ذهبية للاعتناء بصحتها وصحة جنينها، بينما فريدة تجلس معهم سارحة في عالم آخر. انتبهت علياء إلى توتر فريدة وشرودها، وسألتها: ـ لماذا كل هذا التوتر.. لماذا كل هذا الخوف؟! أيام ويعود يحيى!

حاولت علياء أنْ تهوّنَ الأمر على أختها، بل جاءت لها بفرصة عمل وصفتها بالذهبية، أن «رامي» ابن خال شريف يعرض عليها فرصة عمل في الجريدة التي يعمل بها، نصحتها علياء بأنّ العملَ هو الذي يملأ وقت فراغها، ويزيل كلّ هذه المخاوف والهواجس التي تسيطر عليها، بينما رحبت شريفة بهذا العمل كثيرًا وظلّت تعدد لفريدة فوائد العمل، بل طلبت من علياء أنْ تحدّدَ مع رامي موعد استلام العمل، أما فريدة تسمع آراءهما ولا تبدي رأيًا، ومع إلحاح علياء ووالدتها عليها وإصرارهما على الموافقة، طلبت منهما أنْ يتركا لها فرصة للتفكير ولو يومًا واحدًا، فقد كانت مقتنعة برأي والدتها وأختها، كانت تعلم أنّ العمل سيرحمها من تلك الظنون والمخاوف التي تؤرقها، وهذا لم يكن خفيًّا على علياء، ابتسمت علياء وقالت لها:

ماشي يا ستي.. لازم تاخدي موافقة يحيى بس ماينفعش تعوديه على كدا.. جوزك على ما تعوديه يا فريدة.. أنا مش عارفة مين فينا ينصح مين، يا ماما انتِ متأكدة إن فريدة أكبر مني؟!

وكعادتها قلبت علياء الحوار إلى دعابة ومزاح لا ينقطع، وقضت اليوم كله مع أختها ووالدتها لانشغال زوجها في العمل، وفي المساء عادت علياء إلى بيت الزوجية، بينما ظلّت فريدة تترقب هاتفها في انتظار مكالمة يحيى، إلى أنْ رأت هاتفها ينير برقمه، لم تنتظر إلى أنْ يضج رنين الهاتف، فردّت سريعًا:

ـ ألو.

ـ ازيك يا روحي؟

ـ عامل إيه؟ يا رب يكون مودك اتحسن.

- فعلًا.. أنا ارتحت كتير وشادي الحقيقة عاملي برنامج هايل هنا بس ابتديت أزهق.

ـ بجد.. هترجع قريب؟! انت مسافر من أسبوع بس.

ـ وحشتيني، أنا مش هسافر تاني أبدًا غير لما نتجوز عشان تكوني معايا في كل مكان وكل لحظة.

ـ يا ريت يا يحيى ترجع دلوقتي قبل بكرة.

ـ حاضر، راجع قريب جدًّا إن شاء الله، أنا رغم إن مودي اتحسن كتير بس قلبي مقبوض هنا مش عارف ليه، جايز زهق، جايز مش واخد على الغربة بس الأكيد عشان أنا بعيد عنك.. أنا عرفت هنا إن السعادة عمرها ما تكون في مكان انتِ مش فيه.

ـ ياه على كلامك يا يحيى، بعد الكلام دا لازم ترجع على أول طيارة.

ـ حاضر.

ـ كنت عايزة آخد رأيك في شغل معروض عليّ، بفكر أوافق عشان أخلص من القلق والملل، فعلًا سفرك دا موترني.

ـ شغل إيه؟

- شغل في الجريدة اللي بيشتغل فيها رامي قريب شريف.

فقال بانفعال مبالغ فيه:

ـ انتِ ازاي توافقي على حاجة زي كدا؟!

ـ أنا موافقتش، أنا بقولك قبل ما أقول أي رأي.

- هو رامي دا مش اللي كان بيلف ويدور حواليكِ في الفرح، خلاص مابقاش في شغل غير مع البني آدم دا؟! ماتشتغليش خالص يا فريدة.

صمتت ولم ترد على انفعاله بانفعال، لم توافق ولم تتحدَ، صمتت حتى يبتلع إعصار ثورته ويهدأ قليلًا، وما زالت صامتة إلى أنْ أربكه صمتها، وظنّ أنّ الاتصال انقطع، فقال بلهفة:

ـ فريدة، انتِ سامعاني، ألو.

ـ سامعاك.

- زعلتِ مني.. مش كدا؟!

ـ ماينفعش تشك في حبي ليك يا يحيي، لازم تثق فيا.

ـ ما اسمهاش مش واثق فيكِ، أنا بثق فيكِ أكتر ما بثق في نفسي، اسمها بغير عليكِ أيوه بغير عليكِ جدًّا، ولو أطول أخبيكِ جوا قلبي وماحدش يشوفك غيري هعمل كدا وبعدين رامي دا بالذات ماينفعش تشتغلي معاه، دا كان مبهور بيكِ، أنا أفهم نظراته كويس، انتِ فاهماني؟

ـ خلاص نأجل الموضوع دا لما ترجع.

ـ بحبك.

....

اعتذرت فريدة لأختها عن قبول العمل في الجريدة، وطلبت منها أنْ تشكرَ الأستاذ رامي على اهتمامه وتعتذر له، وحاولت علياء أنْ تقنع أختها أنْ تتجاهل يحيى وطلباته الغريبة، وظلت تلومها على هذا الخضوع لكلِّ أوامره، رغم أنّ ما بينهما لم يأخذ أي صفة رسمية حتى الآن. كانت علياء غاضبة من يحيى، وربما بدأت تلفت نظر أختها إلى عيوب يحيى، إنه ليس فقط متعدد العلاقات ومتقلب القلب، لكنّه أيضًا عصبي ومستبد بالرأي، حذرتها من أنْ تغمض عينيها عن كلِّ هذه العيوب، كانت تحذيرات حادة عنيفة مما أثار استغراب فريدة، وسألتها كيف تحول رأيها من المساندة إلى الهجوم، لقد كانت علياء تعارضها في خوفها من نزواته، ودائمًا تقول لها امنحيه الفرصة، واليوم تحذرها منه بشدة كأنّها تتكلم عن شخص آخر، كيف تبدل رأيها من المساندة التامة إلى الهجوم الشديد في فترة وجيزة؟

فأجابتها أنّ تعامله مع أزماته الأخيرة أكّدَ لها أنّه شخصية غير قادرة على مواجهة الأزمات والصعاب،

وفوق كل هذا هو إنسان مستبد الرأي إلى درجة لا تحتمل. استمعت فريدة إلى رأي أختها، وأصرت على أن لا تقبل العمل الذي رفضه يحيى؛ إنّها تحبه ومستعدة أنْ تخسر ألف عمل، ولكن غير مستعدة أن تخسره، لكن علياء أبلغت رامي أنّ أختَها لم تتخذ قرارًا بعد، وطلبت منه أنْ يمنحَها بضعة أيام للتفكير ما أرادت علياء أنْ تضيع فرصة العمل على فريدة، وربما كانت تفكر في أبعد من ذلك، كانت تعلم أنّ رامي شديد الإعجاب بفريدة، وأنّه يسأل عنها شريف كثيرًا ورغم أنّ شريف أخبره بأنّها تحب يحيى ولولا وفاة والده كان حبهما سيأخذ صفة رسمية إلا أنّه ما زال يسأل وينتظر أنْ يعرف هل يكمل يحيى حكايته معها أو يبتعد وهنا تلوح فرصته. لم يبح رامي بكلِّ هذا الكلام، ولكنّه كان يلمح لشريف بإعجابه بها، وكان يتمنى لو سبق يحيى إلى قلبها، ولكن القدر له أحكامه، وما زال ينتظر أن تتبدل الظروف لصالحه، علياء عرفت عن رامي الكثير، إنه في السادسة والثلاثين من عمره، صحفي ناجح، منفصل بعد تجربة زواج لم تستمر إلا عامين فقط، وليس لديه أبناء من هذه الزيجة، شاب مهذب جدًّا، وسيم، ربما كانت تراه يشبه صلاح ذا الفقار في شكله، وربما خفة الظل، بل كانت دائمًا تقول له ذلك على سبيل الدعابة وهو أيضا يستقبل ذلك بضحكة واثقة، ويقول:

ـ طول عمري أقول كدا بس مافيش مخرج عايز يكتشفني.

وقته كله لعمله، وهذا سر نجاحه، إمكانياته المادية جيدة جدًّا، كانت علياء تراه زوجًا مناسبًا جدًّا لفريدة، ربما أصبحت تراه أفضل من يحيى، ولكنّها تعلم أنّ قلب فريدة ملك يحيى، ولعلّ الأيام فقط من تجيب على إخلاص يحيى وصدق مشاعره نحو أختها.

....

استيقظت ندى على أزمة صحيّةٍ عاصفة تكاد تنهي حياة والدها؛ فاقد الوعي في غرفته، نقل فورًا إلى المستشفى ودخل غرفة العناية المركزة في حالة سيئة، وجاءها طبيب أربعيني يسألها منفعلًا:

ـ هو مريض ضغط؟!

-أيوه.

ـ إيه الدواء اللي بياخده؟

ـ ما أعرفش اسمه.

- واضح إنه مش منتظم على العلاج، صح؟

ـ مش عارفة.

ـ حضرتك مين عايش معاه عشان نسأله؟

ـ أنا بنته الوحيدة وعايشة معاه.

ـ طب مش تهتمي بيه شوية.. يعني مش معقول كدا!

ـ هو حالته إيه يا دكتور؟!

ـ جلطة يا هانم، الضغط عالي جدًّا، السكر عالي جدًّا، انتي ازاي سايباه يهمل في نفسه كدا؟! احنا هنعمل اللي نقدر عليه بس الحالة متأخرة، متأخرة جدًّا!

انصرف الطبيب منفعلًا، ووقفت وحدها تبكي وتسأل نفسها بغضب: أنا من امتى بهتم بحد غيري؟!

انهمرت دموعها، وضميرها يحملها المسئولية عما انتهى إليه حال والدها، وبدأ الخوف يستبد بها، ويرسم ملامح الساعات القادمة، حالة والدها سيئة، وراحت تتخيل ماذا لو أصابه مكروه، ماذا لو فقدته؟ فكادت تضرب رأسها في أقرب حائط، وقالت لنفسها أنا السبب، كأنّها لحظة استفاقة من مشكلات وهمية كانت تدور فيها، مشكلات هي تصنعها بيدها وتشنق بها نفسها لتعيش وهم أنّها تتحرر من هذه المشكلات، وتبدو في نظر نفسها بطلة ،لحظة مواجهة لنفسها، سألت نفسها ما الذي كان يلهيها عن الاهتمام بصحة والدها، يحيى؟ العمل؟ ما كان يشغلها عن والدها؟! لقد انتقمت من يحيى وانتهى أمره، وما عادت تتذكره ولا تتابع أخباره، وآخر ما علمته عنه انهيار شركته، عندها شعرت أنّ اللهَ انتقم لها منه، ولكن في الحقيقة يحيى لم يكن مشكلة في حياتها، هي من أقنعت نفسها أنه يتجاهلها ويجرحها، رغم أنه لم يعدها بالحب، هي من أوهمت نفسها أنّها تستحق حبّه، وربما أوهمت نفسها أنّها تحبه؛ لأنّها بكلِّ صدق لا تثق بأنها تحبه، وإن كانت تحبه لماذا كان همها أن تنهي ما بينه وبين فريدة دون أن يشغلها كثيراً، كيف تحل محل فريدة في قلبه، لو كانت تحبه لماذا لم تفكر كيف

تنقذه من أزمته المالية العاصفة التي أطاحت بشركته، وبدأت تسأل نفسها هل كنت أحبه؟

وفي لحظة الصدق هذه، اعترفت لنفسها أنّ مشاعرها نحوه لم تكن حبًّا، بل كانت رغبة في الامتلاك، تريد أنْ تمتلكه مثل أي شيء تمتلكه، تتركه وقتما تريد، ولكن هو لا يتركها، ولا يرفضها وقتما يريد، هذه هي الحقيقة التي غابت عنها طوال عمرها، ولم تعترف بها إلا الآن، لقد تلاشى يحيى من ذاكرتها وأفكارها، وما عاد يعنى لها شيئًا، وما مر في ذاكرتها منذ فترة طويلة إلا عندما جاءت لحظة الصدق هذه، لحظة الحقيقة التي أنكرتها عمرها كله، هي لم تحب يحيى، ولم تحب حتى أباها، ماذا فعلت من أجله؟ عاش عمره كله ينشغل بها وبسعادتها، ولكنّها لم تسعده قطُّ، ولم تسعد حتى نفسها، وفي لحظة شعرت أنّها وحيدة، لا أحد بجوارها في هذه الأزمة، تقف وحيدة، لا تعلم مصيرها ولا مصير والدها، لحظات قاتله تمر عليها ،الثواني تمر كأنّها طعنات تقتل أحلامها، تقطع جسدها ومشاعرها، تخاف من كلِّ لحظة قادمة، ربما تأخذ منها أعزَّ شخص في حياتها، ليس فقط أعز شخص، بل كل الناس في حياتها، هو كل حياتها، ليس هناك غيره لها في هذه الحياة، وبين ملايين البشر... جلست تبكي وتسأل الله أنْ يرحمَها من هذا العذاب وأن يشفي والدها.

....

الفصل التاسع عشر

مضت ثلاثة أيام وهي تحاول أنْ تتواصلَ معه، ولكن لا فائدة الهاتف مغلق، ثلاثة أيام وقلبها يحدثها أنّ يحيى في خطر، لماذا اختفى فجأة بعدما أخبرها أنّه سيعود وملّ الغرب والغربة. أُغلق هاتفه وأغلقت معه كلّ أبواب السعادة أمام عينيها، الأفكار السيئة تحاصرها، وقلبها يتضاعف قلقه مع دقات الثواني إلى أنْ أصبحَ القلق فوقَ احتمالِها، لا تعرف أحدًا من أقاربه أو أصدقائه هنا، ولا تعرف كيف تتواصل مع ابن عمه الذي كان يستضيفه، لا تعرف إلا اسمه فقط، ما حدثها عنه إلا بجمل مختصرة، لا تعلم أين يقطن في لندن أو في أي مستشفى يعمل هناك لم تفكر كثيرًا، دون أنْ تدري وجدت نفسها تطلب ندى هاتفيًّا لعلّها تدلها على طريق للتواصل مع يحيى، ورغم أنّ هذا أمل ضعيف جدًّا؛ لأنّها تعلم كم أصبحت ندى تكرهها، إلا أنّها ستحاول ولا تعبأ كثيرًا بنتيجة تلك المحاولة، لم ترد ندى على اتصالها، فعادت وكررت المحاولة بعد ساعة، فردت عليها:

ـألو.

ـأنا آسفه لو بزعجك.. أنا ليا رجاء، وأرجوكِ تسمعيني.

-خير؟

-يحيى سافر إنجلترا عند ابن عمه وتليفونه مقفول، ومش عارفة أوصله، تعرفي أي حاجة عن دكتور شادي ابن عمه؟

-انتِ قلقانة ليه قوي كدا، إيه المشكلة إن تليفونه مغلق؟ هو مغلق ليه قد إيه؟

-من تلات أيام.

- تلات أيام بس؟! عادي جدًّا، لازم تفهمي إنه مجنون.. تلاقيه بيرسم وناسي الدنيا وناسي نفسه.

ـ أنا آسفة إني أزعجتك.

- فريدة، ماتقلقيش هيكلمك، على فكرة هو بيحبك قوي، و... الفيديو... هو فعلًا كان سكران وأنا كنت عايزة أفركش حكايتكم، ومحصلش بينا أي حاجة، وعايزة أقولك إن يحيى علاقته بشيرين انتهت من زمان، أما بالنسبة لشادي أنا ما أعرفش عنه أكتر من اللي انتِ تعرفيه.

صمتت فريدة، وكأنّها فقدت آخر أمل لها، صمتت وهي تفكر ماذا تفعل، فقالت ندى:

ـ فريدة، لو عرفت حاجة هبلغك، يا ريت تسامحيني.. بابا في العناية المركزة.. سامحيني.

- ربنا معاكِ يا ندى.. إن شاء الله يقوم بالسلامة.

....

تتوالى الأيام، وكل يوم تنتظر فيه أملًا جديدًا، ولكن لا جديد! مضى شهر على اختفاء يحيى من حياتها، اختفاء أفقدها معنى الحياةِ فأصبح اختفاؤه هو العذاب بكلِّ معانيه، هو الكابوس الذي أصبح واقعًا لا تعرف كيف تستفيق منه.... والأسئلة نفس الأسئلة والحيرة نفسها لا تتغير أين هو؟ أين اختفى؟ وماذا حدث له؟ أصبحت تعيش كلَّ أيامها داخل حجرتها، تختبئ من الجميع بعذابات قلبها وحيرتها وخوفها، تفترش جراحها سريرًا ودموعها غطاءً، والخوف صار هواءها، والقلق صار سماءها المظلمة، لا تريد أنْ تسمع كلام الجميع، لن يريحها إلا أنْ تعرفَ الحقيقة، ولا أحد يعرف الحقيقة، ما عادت حتى تحتمل نظرات الجميع لها، لا نظرات الشفقة عليها ولا نظرات اللوم لها، كل شيء يؤلمها، حتى الضوء صار يكشف أمام عينيها عذابها كأنه وحش يفترسها دون رحمة، باتت أيامها كلها في فراشها في إضاءة خافتة جدًّا لا تريد أنْ ترى ولا تسمع إلا نفسها، فهي ونفسها في نقاش لا ينام وضجيج لا يهدأ. صوته يلازمها، ووعوده تتردد في أذنيها كأنّه معها في وحدتها، أحيانًا يخيل لها أنّه يهمس في أذنيها: هتستنيني يا فريدة مهما أغيب، توعديني. وربما ترد عليه لتعده بأن تنتظره ، ربما تسأله عن سر غيابه وموعد عودته، ولكن عندها لا يجيب حتى في خيالها، لا يجيب ويبقى غيابه سرًّا عظيمًا، وخنجرًا في القلب لا ينهي حياتها ولا يسمح لها أنْ تحيا!

الأيام تمر وما زالت هي وأفكارها وخيالها العاجز عن حلِّ اللغز في دوامة من العذاب، ولا ينتهي كل ما تفكر به إلا إلى شيء واحد أن تنتظره، أن تنفذ رجاءه، ويا له من رجاء ويا له وعد!

أثارت أحوال فريدة انزعاج أسرتها، كانت والدتها لا تعلم كيف تخفف مأساتها وتهون عليها فقدها ليحيى، الأصعب من الفقد أنّها لا تعلم كيف ضاع منها حبيبها هل هو ضحية أم جاني؟

هل هناك ما يمنعه، أم أنه طوى صفحتها من أيامه بكلِّ سهولة؟

شريفة لا تعرف إجابة، ولا أحد يعرف إجابة، لكن الأكيد أنّ ابنتها تذبل أمامها يومًا بعد يوم، تحترق من الحيرة والخوف والألم، تخاف منه وتخاف عليه وتتمزق بين الشكوك والمخاوف، كانت شريفة تجلس تحدث نفسها، وتقول:

حظك قليل يا بنتي زي أمك تمام، ومافيش فرحة بتكمل معاكِ يا حبيبتي!

كانت شريفة تشعر بعذاب ابنتها، وتسأل نفسها لماذا يحدث معها كلُّ هذا؟ تعذبت في الزواج التقليدي، وتعذّبت أكثر حينما أحبت، كانت تتمنى لو تفهم لماذا اختفى يحيى من حياة ابنتها بهذه الطريقة المريبة، لماذا يؤلمها بكلِّ هذه القسوة رغم أنّها تناست كلَّ عيوبه، ووقفت بجواره في أزمته، كان كل همها أنْ يتجاوزَ محنته، ولم تفكر لحظة فيما تبقى له بعد أنْ ضاعت ثروته، كل ما كان يهمها هو أنْ يخرج من أزمته أقوى، وبعد كل هذا تركها بجرح عميق يحتاج لسنوات كي يلتئم!

كانت علياء تحاول أنْ تهوّنَ الأمرَ عليها إلى أنْ نفد صبرها، فاقتحمت خلوتها وقالت لها:

ـ تلات شهور وانتِ موقفة حياتك، هتفضلي كدا لغاية امتى؟!

ـ تلات شهور ولا تلات سنين.. أنا مش عايزة حد يشيل همي، أنا مرتاحة كدا.

ـ يعني إيه مرتاحة كدا؟! انتِ لازم تفوقي وتفكري بعقلك شوية، كل حاجة واضحة بس انتِ مش عايزة تفهمي ولا تشوفي، يحيى خلاص استقر في أوروبا وعايش حياته.

نظرت لها فريدة باندهاش وترقب، وقالت بلهجة حادة غاضبة:

ـ انتِ جبتِ الكلام دا منين؟! انتِ تعرفي حاجة ما أعرفهاش؟!

ـ مش أنا بس اللي عارفة، كل الدنيا عارفة يحيى إيه وكان عايش حياته ازاي.. زمانه نسيكِ وعايش كل يوم مع واحدة.

ـ جبتِ الكلام دا منين، ولا انتِ عايزة تشوهي صورته قدامي وبس؟! حرام عليكِ ماحدش عارف حصله إيه.

ـ هيحصله إيه يعني؟! مات مثلًا، كنا سمعنا؛ الموت مابيستخباش، كان ابن عمه جابه ودفنه هنا.. يحيى عايش وزي الفل، شوفي حياتك بقا.

ـ كفاية يا علياء.. ماتجبيش سيرته تاني أرجوكِ.

ـ لا مش كفاية، تقدري تقوليلي ليه مقالكيش أي معلومة عن ابن عمه دا، بيشتغل فين ولا عايش فين بالضبط، ليه ماقالكيش اسم أي حد من أهله ولا أصحابه، دا لما اختفى ما عرفتيش تسألي مين عنه، هو كان عايز ينهي الحكاية بس عمل قفلة مبتكرة، قفل التليفون وخلاص، كل حاجة خلصت، دا ماعندوش قلب ولا يستاهل إنك تفتكريه ثانية.

وكأنّ كلمات علياء طعنات في قلبها الموجوع، طعنات أفقدتها حتى القدرة على الألمِ حديث علياء يحمل الكثير من المنطق والعقلانية، ربما ليس لديها القدرة أنْ تنسفَ هذا التفكير العقلاني بتفكير عقلاني مثله، ولكن حتى عقلها غير قادر على استيعاب كل هذا، هل كان في حاجه إلى كلِّ هذا لينهي ما بينهما، الأمر لا يحتاج إلى كلِّ ذلك، كان يكفي أنْ يقولَ لها إنّه فقد إحساسه بها، إنّ قلبه تغير، إنه لا يحبها، كان يمكن أنْ يقول ذلك في أقل من دقيقة وينهي المحادثة، كان يمكنه أنْ يكتبَ ذلك في رسالة، هل خاف من رد فعل الحبيبة الضائعة الجريحة؟!

وماذا كان يمكنها أنْ تفعلَ أكثرَ من أنْ تهذي ببعض الكلمات؟

لا، لا يمكن، كلام علياء يبدو منطقيًّا في الوهلة الأولى، ولكن بعد التفكير يبدو ضعيف الحجة، غير مقنع لقلبِها ولا عقلها حتى، وكيف يحكي لها عن الناس وهي كل الناس، كيف يضيع ثواني العشق الثمينة

في كلماتٍ بخسة عن آخرين، كل أوقاتهما معًا كانت خارج هذه الدنيا، دنيا عشق خاصة لا تتسع إلا لأحاديث العشق والهوى؛ لأنّه يحبها حُبًّا مختلفًا، حبًّا لم يمر على قلوب قطُّ، ما بينهما لن يفهمه غيرهما، ولن يصدقه سواهما. ما زالت صامتة، تفكر في صمت قاتل، وعلياء تترقب صمتها كأنّها تحاول أنْ تقرأَ ما يدور في عقلها، علياء مصممة ألا تتركها إلا بعد أنْ تكسب المعركة وتردها إلى الحياة من جديد، فقالت لها:

ـ صدقتيني يا فريدة.

فنظرت فريدة إليها بتحدٍّ بالغ:

ـ لا، يحيى عرف بنات كتير وساب بنات كتير، ولو كان عايز يسيبني ماكانش محتاج يسيب البلد كلها، لا، يا علياء، يحيى حصله حاجة، في حاجة مش كويسة حصلت بعدته عني، بس هيرجع، أكيد هيرجع، أنا إحساسي مايكدبش عليّ، انتِ مش فاهمة ولا عارفة مين يحيى ولا بيحبني قد إيه.

- يرجع لمين، هو فاضله إيه هنا، أبوه ومات، وفلوسه ضاعت، زمان حاجة ودلوقتي حاجة.

ـ خلاص يا علياء، هو سابني، وساب مصر كلها عشاني ارتاحتي، ممكن تسيبيني في حالي؟! ارحميني.

ـ يا ريت انتِ ترحمي ماما، دي تعبانة من امبارح وانتِ عايشة معاها ومش حاسة بيها.

ـ مالها ماما؟!

قفزت من فراشها وهرولت إلى غرفة والدتها، وجلست بجوارها وتساءلت في لهفة عن صحتها، فأخبرتها والدتها أنّها تعاني من ارتفاع في ضغط الدم، وطلبت نصيحة الطبيب بالأمس بعد أنْ أنهت عملها، فطمأنتها أنّها تحسنت على الدواء، بينما شعرت فريدة أنّها أخطأت كثيرًا في حق والدتها، وما كان يجب أن تنساها مهما بلغت مشاكلها. قبلتها بحنان بالغ، وظلّت تعتذر لها عن تقصيرها، وقالت لها إنّها ستبيت بجوارها ولن تتركها تذهب إلى الطبيب وحدها الزيارة القادمة، وإنّها المسئولة عن إعطائها الدواء في موعده، ولن تسمح لها أنْ تنسى الدواء أبدًا فابتسمت أمها وأخبرتها أنّها لا تريد منها إلا أنْ تهتم بنفسها وصحتها، وأن تنتبه إلى حياتها وتتجاوز كل الظروف.

وعلياء تراقب قلق فريدة على والدتها، وتتأمل وصلة الحب والأحضان والقبلات وهي سعيدة أن هناك شيئًا استطاع أنْ يخرج فريدة من قلعة أحزانها الحصينة.

فقالت بابتسامة ساخرة:

ـ طيب أسيبكم تحبوا في بعض وأروح أنا.

....

تغيرت حياة ندى بعد أزمة والدها الصحية التي انتهت بشلل نصفي، وأصبح قعيدًا في منزله، ووجدت ندى نفسها مسئولة عن والدها وصحته وأعماله، وأصبحت حياتها جادة جدًّا، تسابق الزمن من أجلِ أنْ تفهمَ كلَّ كبيرة وصغيرة في الشركة، لن تسمح أنْ يضيعَ كفاح والدها هباءً، لن تسقط الشركة، ستفعل المستحيل من أجلِ أنْ تسعد والدها بنجاحها في إدارة أملاكه، وفي زحام العمل لم تنس والدها قطُّ، هي من تتابع بنفسها انتظامه في تناول الأدوية، وهي من ترافقه في زيارات الطبيب المعالج، الدكتور «أسامه الراوي» إنّه هذا الطبيب الذي عالجه من الجلطة، كانت ندى دائمًا ترسم على وجهها الجدية التامة كلما ذهبت مع والدها إليه، وترمقه بنظرات حاسمة، كأنّها تتقمص شخصيته وتبادله ذات نظراته الحادة، وجهه جاد لدرجة تفقد ملامحه كل التفاصيل، لا تستطيع أنْ تحدّدَ إنْ كان غاضبًا أو هادئا حزينا أو سعيدًا، حتى ابتسامته تبدو مصطنعة إلى حد كبير، إنّها نصف ابتسامة لا تكاد تكشف عن أسنانه حتى يسحبها فورًا كأنّه نادم عليها. كان شابًّا أربعينيًّا، طويل القامة، أسمر البشرة، يحتفظ بلحية خفيفة، أصلع، معتدل القوام، كانت تراه أشبه بابتسامته غير المكتملة، ترى شخصيته أمامها غير واضحة، كانت تظن أنّ وراء ملامحه العابسة ونظراته الحاسمة شخصية أخرى يخفيها عن مرضاه، وربما عن الناس جميعًا، أحيانًا كان يخطر على بالها وتسأل نفسها من هو، ولكن سرعان ما كانت تقول لنفسها يكون من يكون، ولماذا أهتم، حقًّا لا تعلم لماذا تهتم، ربما شخصيته الجادة تثير فضولها، ربما لم تعتد على هذا النوع من البشر، من يعملون بكلِّ كيانهم حتى يذوبوا في عملهم فلا يبقى لحياتهم الشخصية شيء، ولكن هذه الإجابة لم تكن ترضيها، بل كانت تستفز فضولها أكثر، وتوقفت أمام سؤال آخر   ترى ماذا في حياته الشخصية؟

هل هو متزوج؟

وكيف تتحمل زوجته هذا الوجه العابس، كيف تحتمل هذا الزوج الصامت؟! يعود لها بهموم مرضاه، ومشكلات عمله حتى أصبحت شخصيته نفسها أكبر مشكلة.. يا لها من مسكينة تستحق الشفقة والعطف! مسكينة من تحيا مع رجلٍ لا يبتسم أبدًا تنحصر كلماته بين التأنيب والتوجيه، يا لها من زوجة مقهورة، ربما يحدد لها موعد نومها ويقظتها، وعدد مرات خروجها، وعدد مرات أكلها ويحسب أنفاسها ويسمع دقات قلبها في اليوم بضعة مرات، لا بد أنّه يعاملها كأنّها مريضة مثل مرضاه الكثر ولكن طرأ عليها سؤال آخر، ولماذا لا تكون له شخصية أخرى تمامًا خارج العمل.. إنه يبدو أصغر من سنه، محتفظًا بشبابه إلى حد بعيد، ثم عادت تسأل نفسها وما شأني أنا بهذا كله؟ ولماذا أفكر فيما لا يعنيني؟!

أسئلة لا تعرف لها إجابة، وليس من الضروري أنْ تبحثَ عن إجابة، عليها أنْ تفكّرَ في العمل، ثم العمل ولا شيء آخر....

ولكن يبدو أنّ القدر يحمل شيئًا آخر؛ تفاجأت باتصالٍ هاتفيٍّ منه، يسألها فيه عن صحة والدها، طمأنته أنّه بخير، وهي في حيرة واستغراب، هو الطبيب المعالج له وهو من يعلم كلَّ تفاصيل حالته، ووالدها كان في زيارةٍ له منذ عشرة أيام، لأوّلِ مرّةٍ يتواصل هو معها، هي دائمًا من تزعجه باتصالاتها خاصة بعد أنْ منحها هاتفه الخاص بعيدًا عن رقم العيادة للتواصل معه مباشرة في حالة حدوث أي طارئ.. أعطاها الرقم وهو يؤكد أنّ هذا الرقم لا يعطى إلا للمرضى الذين يعتبرهم جزءًا من عائلته، قال ذلك محتفظًا بلهجته الصارمة، وملامحه الجادة ونصف الابتسامة المعتادة، ربما ازعجها هذا الاتصال، وظنّت أنّه سيخبرها عن تطور مرعب في حالة والدها خشي أنْ يقوله أمامه مباشرة، لكن الحديث كان عاديًّا، ولم يضف أيّ جديد، ولم يعد إلا التعليمات المعتادة. استمعت في إنصات شديد وهي في انتظار أنْ تعرف سرَّ هذا الاتصال، ولكنّه لم يقل شيئًا، أنهى المكالمة دون أنْ يريحها ويكشف لها سر الاتصال، ظلت تفكر إلى أنْ أقنعت نفسها أنّه من شدّةِ حبه للعمل، يبحث عن مرضاه بنفسه ليكرّرَ تعليماته ويعيد تحذيراته.. يا له من عاشق لعمله إلى درجة الجنون!

عادت إلى المنزل بعد يوم عمل شاق جدًّا، واطمأنت كعادتها على والدها وعلى تناوله للأدوية، ولكن كان يبدو أنّ والدها يريد أنْ يحدّثَها في أمرٍ هامٍّ.

جلست إلى جواره وهي تظن أنّ هناك شيئًا يغضبه من طريقة إدارتها للشركة، ولكنّه فاجأها بشيء لم تتوقعه على الإطلاق، أخبرها أنّ الدكتور أسامة الراوي يريد الزواج منها كان والدها سعيدًا جدًّا ومقتنعًا به تمامًا، يرى فيه الطبيب الناجح، الخلوق الذي لا غبار على أخلاقه أو شخصيته، أخبرها أنّه علم عنه الكثير وعن عائلته، والده كان قاضيًا جليلًا، وعائلته عائلة كبيرة، وهو طبيب ناجح جدًّا، سبق له الزواج، ولكن لم يدم الزواج أكثر من ثلاثة أعوام، ليس لديه أبناء، كان والدها يتحدث عنه بحماس بالغ وإعجاب شديد وانبهار قوي، وأدركت أنّه موافق بشدة ويتمنى موافقتها على الزواج منه، طلبت من والدها أنْ يمنحَها وقتًا كافيًا للتفكير حتى لا تفشل في الزواج مرة أخرى.

لم ينتظر «أسامة الراوي» طويلًا، في اليوم التالي اتصل بها هاتفيًّا واستفسر صراحة عن رأيها في الارتباط به. ارتبكت ولم تعرف ماذا تقول، صمتت طويلًا، فسألها إن كان هناك شخص آخر في حياتها، فردّت سريعًا أنّ حياتها كلها للعمل، فطلب منها أنْ يتقابلا ليخبرها بالكثير عن نفسه. وافقت أنْ تقابله، كان فضولها أنْ تبحرَ في شخصيته الغامضة أكبر بكثير من اهتمامها برفضه أو قبوله كزوج، أرادت أنْ تعرف من هو، ما سر ابتسامته المبتورة، ووجهه الحاد الملامح. وجاء موعد اللقاء، جلسا معًا في مكانٍ مفتوح بين أحضان الطبيعة والأشجار والزهور والقمر مكتمل يبعث نوره الراحة في القلوب المتعبة، جلس أمامها محتفظًا بوقاره وشخصيته الرزينة، وهي تجلس في كامل أناقتها، وكامل زينتها تترقّبُ حديثه الذي سيكشف عن شخصيته، كانت تتأمل ملامحه الصارمة الحادة، وابتسامته الهادئة التي سمح لها أنْ تكتملَ في هذه الجلسة، وعيناه اللتان تفحصها بحرص وتتمحصها على استحياء... بدأ الحديث قائلًا:

ـ أنا معجب بيكِ من أول ما شفتك، وكنت منتظر أتأكد من مشاعري ناحيتك.. مابحبش أعمل أي خطوة بسرعة، أي خطوة في حياتي لازم تكون بعد دراسة دقيقة.

ـ أنا عمري ما حسيت إنّك معجب بيا أبدًا!

- ماكنش في أي مقابلة بينا خارج نطاق شغلي، وأنا في شغلي بكون دكتور وبس.

ابتسمت وكتمت ضحكة عريضة كادت أن تعلو، وربما تستفزه بشدة، فتساءل باستغراب:

- بتضحكي على إيه؟!

- بصراحه افتكرت التكشيرة إياها وانت في العيادة.

ابتسم ابتسامة عريضة، ثم قال:

- هو أنا ببقى وحش قوي كدا؟!

ـ ما أقصدش يا دكتور.

ـ التكشيرة دي مش بس بسبب الشغل، في تجربة سيئة مرتبطة بجوازي اللي فات.. كنت مرتبط بطبيبة، كان أهم حاجة عندها شغلها، لدرجه إنها رفضت يكون بينا أولاد لغاية ما تاخد الدكتوراه، وبعد كل دا اعترفتلي إنّها بتحب حد تاني ومش عايزة تكمل معايا، واحد اتعرفت عليه من النت، زوج غيري كان ممكن يتهور ويخسر حياته بس انا قررت إني أنهي التجربة دي وأركز في شغلي، كانت تجربة كئيبة وسخيفة، عشت معاها تلات سنين تعاسه لسه تأثيرها عليا لغاية دلوقتي...

بس على فكرة أنا إنسان عادي جدًّا، يمكن أبان جاد جدًّا أو زيادة عن اللزوم، لكن أعتقد لو قربنا من بعض، هتعرفي أسامة تاني خالص غير اللي في خيالك.

ـ طيب احنا كدا متفقين إننا محتاجين وقت نقرب من بعض، ونفهم بعض أكثر خصوصا إننا احنا الاتنين مرينا بتجربة فاشلة ومش قد فشل تاني.

ـ عندك حق، بس أنا متفائل وحاسس إننا هنكون زوجين متفاهمين جدًّا.

....

تمر الأيام وتتوالى الشهو، التحقت فريدة بالوظيفة التي رشحها لها رامي في الجريدة، كان عملًا جيّدًا، هادئا، ملأ وقت فراغها، ومنحها فرصة أنْ تهربَ من ألمها ولو لساعات معدودة. كانت تتناسى أثناء ساعات العمل بعضًا من أوجاعها، ويخفت ضجيج ذكرياتها فتستريح بعض الوقت من ألم الفراق، كانت سعيدة بهذا العمل الجديد، واقتنعت أنّ والدتها وأختها كانتا على صواب حينما أصرتا على هذا العمل بكل قوة، العمل يلتهم نصف يومها، وألم الفراق يلتهم روحها فيما تبقى من اليوم، لهذا كانت سعيدة بالعمل الذي خفف عنها بعضًا مما تعاني، لم يزعجها فيه إلا رامي، اهتمامه الطاغي بها أصبح

يحمل معاني كثيرة لا تستطيع أن تنكرها أو تتجاهلها، إنه ليس مجرد اهتمام، ليس مجرد إعجاب، بل أكثر من ذلك بكثير! لم يقل لها أحبك، لم يعلن عن رغبته في الزواج منها، لكن حبه لها كان شمسًا تشرق في ابتسامته كلما رآها، حبًّا تعلنه عيناه في كل نظرة، في كل لفتة، تعزفه شفتاه لحنًا رومانسيا كلما نطق اسمها، أو تحدث معها، لكنّه لم يصارحها بكلِّ هذا، وكانت تعلم لماذا لم يعلن لها حبه؛ يخشى أنْ تكونَ ما زالت تحيا في دوامة الماضي، يخاف أنْ يبوحَ بعشقه فتهرب منه بلا عودة، يخاف أنْ يبوحَ بحبِّه فيفتقدها كصديقة. كانت تقرأ في عينيه السؤال الذي لا ينطق به أبدًا: هل ما زلت تنتظرين عودة الغائب؟ كانت تقرأ السؤال في نظراته الولهانة الحائرة، وتسأله لنفسها فتجد الإجابة (نعم.. أنتظر الغائب).

ما زالت في انتظار من غاب عنها، ولكن ما زال حاضرًا في قلبها بألف ذكرى وذكرى غير قابلة للنسيان، كان يعلم أنّها ما زالت تحب يحيى، ورغم ذلك كان يحبها في صمت، لا تعلم لماذا يغرق في حب من طرف واحد، لماذا يعذب نفسه وقلبه بحب يائس، كانت تسأل نفسها ثم تضحك على سؤالها وتسخر من نفسها؛ لأنّها تفعل ما يفعله رامي بالضبط، وتعيد السؤال نفسه علي قلبها لعلّه يمل من عذابه، لماذا تنتظر رجلًا رحل دون أي أسباب؟

كيف لا ينقلب قلبها على هذا الحب؟

كيف لا تلعنه آلاف المرات؟

كيف لا تكسر قيود الذكريات؟

كيف تتحدي الزمن وتقنع نفسها أنّ هناك ما يمنعه من العودة ويوما ما سيعود؟

الأيام تمضي، يسابق بعضها البعض، لقد مضى على اختفائه عام ونصف تغير فيها كل ما حولها، وتغيّرت هي شخصيًّا، لقد أصبحت علياء أمًّا لطفلةٍ جميلة اسمها «شهد»، وازداد نجاح شريف وأصبح أكثر علمًا وشهرة، وازداد رامي نجاحًا وشهرة في مجال الصحافة، وازداد تعلقا بها وحبًّا لها، حتى هي حينما تفكر في حالها تدرك أنّها تغيرت أيضا، أصبحت أكثر عطاء للعمل وحبًّا له، تعلمت كيف تخفي ألمها عن الجميع، كيف تحبس دموعها طويلًا كيف لا تشكو ولا تتألم حتى لأقرب المقربين، تعلمت كيف تتنفس ألمًا دون أنْ يشعرَ أحد بألمها، كيف تصاحب العذاب دون أنْ تشكو أو تئن، تعلمت الكثير

والكثير، ولكن لم تتعلم كيف تنساه، ما زال صوته يصاحبها وأشعاره وموسيقاه تعزف على أوتار قلبها الجريح، أغنيات العندليب التي كان يرسلها لها كل يوم ما زالت تصاحب ليل حرمانها، تعلمت كيف لا تنطق اسمه أمام أحد وإن كان اسمه يتردد في قلبها بعدد دقاته وبعدد آهاته، تعلم قلبها كيف يبدو أمام الجميع بحارًا في عالم النسيان، وهي لا زالت تقاوم النسيان، ما زالت تتذكر كل كلمة.. كل لحظة.. كل فرحة بينهما، وتتذكر كيف اختفى دون كلمة وداع. أحيانًا كانت تقول لنفسها لماذا لا يكون تفكير علياء صحيحًا؟

لماذا لا يكون قد بدأ حياة جديدة؟

لماذا لا يكون قد طوى صفحتها من حياته، ولماذا لا تطوي قصته وتلقيها في بحر النسيان؟

ألف سؤال بلا إجابة، وألف نصيحة تنصح بها قلبها، ولكن ما زال قلبها عصيًّا عليها، لا يطيع لها أمرًا، ما زال قلبها يبحث له عن أعذار، قلب حبيس الانتظار، وكأنّها مسلوبة الإرادة، ليست صاحبة القرار، لا تعرف ما هو المصير، ولا أين المفر!

....

الفصل العشرون

تمر الأيام والشهور وأصبح الدكتور أسامة في كلِّ أيامها، رأت أسامة الإنسان الذي لا تعرفه، ولم تكن تتخيله، بقدر إخلاصه في عمله وبقدر حنانه وإخلاصه في مشاعره، هكذا المخلص.. تكون هذه سمته في كل تفاصيل حياته، وراء هذا الوجه الصارم قلب حنون معطاء شديد الإخلاص شديد البساطة، أذاب كل جلطات الهوى السابقة في حياتها بكل مهارة، شخصية تبدو صارمة، ولكن بداخله إنسان بسيط يسعد بأبسط الأشياء وأقلها، ويسعدها بكلِّ الأشياء التي تحبها، تناقصت المسافات بينهما شيئًا فشيئًا حتى تلاشت وذابت كلُّ العقبات والفوارق، بقدر مهاراته في الطب وبقدر مهاراته في الحب، استطاع أن يشغل أيامها، ويتسلل إلى وجدانها، ويمتلك قلبها. اعترفت لنفسها بأنّها تحبه، وما عادت تتخيل حياتها بدونه، بل شعرت أنها كانت تبحث عنه طوال عمرها، كانت تفتش عن ملامحه وشخصيته وقلبه الطيب في كل السنوات الماضية، لو كانت رأته سابقًا ما كانت تخبطت في حياتها، ما كانت تلهث عمر بأكمله خلف سراب، ولكن كل شيء له موعد، وجاء موعدها مع السعادة والاستقرار، السعادة التي طالما انتظرتها، آن الأوان أن تنجح في حياتها مع إنسان أحبَّها كما هي، وأحبته كما هو، كل منهما رضي بشخصية الآخر، ورآها تكمل نقصان شخصيته، وتملأ فراغ دنياه. أبلغت والدها بالموافقة على الزواج من الدكتور أسامة بعد أنْ تأكّدت من مشاعرها على مدار فترة طويلة جدًّا تخطت عامًا، وكانت فرحته كبيرة بهذه الموافقة، وتم الزواج في غضون أسابيع قليلة، وبدأت ندى حياة جديدة، حياة أساسها الحب والاحترام المتبادل، بدأت تكتب أيامها بلون عشق صادق ضلت طريقه طويلًا، وأخيرًا اهتدت إليه.

....

كان إصراره هذه المرة على المقابلة غير طبيعي، كان مصممًا على اللقاء بعيدًا عن العمل، أخبرها أنّ هناك مفاجئة كبيرة، ولا بُدّ أن يخبرها بها ويحتفل معها بهذه المفاجأة العظيمة. رفض أن يلمح بأيّ شيء عن المفاجأة، ولم يقبل منها أي مبررات أو أعذار، اضطرت فريدة أنْ توافق.

استعدت للقاء وهي سارحة في ما سيدور في هذه المقابلة، ذهبت للقائه وهي تترقب كلماته ومفاجأته، ربما كانت تخشى أن يصرح لها بحبه، حبه الذي لا يحتاج لكلمات تعبر عنه، كانت تخاف هذا الاعتراف ولا تعرف ماذا ستقول له حينها. وصلت قبل الموعد وعقلها شارد مضطرب من هذه المقابلة، وتخشى أنْ تكون مواجهة صعبة. جلست تنتظره، وصوت يحيى في أذنيها يتردد، لا تدري لماذا استحضرته الآن، وكأن قلبها يرفض هذا اللقاء وما سيدور فيه قبل أنْ يحدث، ولا تدري من أين جاء صوت عبد الحليم وهو يشدو أهواك فتذكرت يحيى حينما كان يغني لها بصوته تلك الأغنية، وكأن الذكريات حضرت معها وأصبحت أشخاصًا تجلس بجوارها وتتحدث إليها بأصوات متداخلة في أذنيها تزيد شتات أفكارها وارتباكها، حتى صور الماضي تتسابق أمام عينيها.. ذكرى من كلِّ لقاء بينها وبين يحيى تمر أمام عينيها في لحظات خاطفة، وتأخذها من المكان والزمان إلى الماضي البعيد، فأصبحت هنا بجسدها، أما عقلها وقلبها وروحها في مكان آخر يطوفون بين سنوات الحب الضائع.

ما زالت شاردة إلى أنْ أفاقت على صوت رامي يحييها، ردت تحيته بابتسامة رقيقة كان هادئًا ومبتسما ومتفائلًا. حاولت أنْ تتغلب على ارتباكها، حاولت أنْ تقتبسَ من هدوئه شيئا لعلّ الأمر يمر بعيدًا عما تخاف منه. بدأت الحديث متسائلة:

ـ يا ترى إيه المفاجأة؟

ـ مضيت عقد برنامج تلفزيوني توك شو في قناة كبيرة جدًّا.

ابتسمت وقالت بسعادة بالغة:

ـ ألف مبروك يا رامي، ربنا يوفقك، حقيقي مفاجأة، إن شاء الله البرنامج ينجح ويبقى أهم برنامج توك شو.

ـ أنا سعيد جدًّا، وقلت لازم تكوني أول حد يعرف الخبر دا.

ـ خبر عظيم وخطوة مهمة قوي يا رامي، بجد أحلى مفاجأة.

- تقريبا كل حاجة اتمنتها اتحققت، فاضل أمنية واحدة.

صمتت وهربت من نظراته، ثم تساءلت:

ـ يا ترى البرنامج اسمه إيه؟

ـ طيب مش عايزة تعرفي إيه الأمنية اللي لسه ماحققتهاش؟!

- طيب وليه تفكر في اللي لسه ماتحققش دلوقتي، خلينا في فرحة النهاردا.

ـ عشان الأمنية دي أغلى ما في عمري.. فريدة، انا بحبك.

صمتت وذابت ابتسامتها في حيرتها، صمتت وطال الصمت وهو يتأمل صمتها وحيرتها بهدوء، وكأنّه كان يتوقع رد فعلها، فقال وهو ما زال يحتفظ بابتسامته وهدوئه:

ـ فريدة، أنا عارف إنك حبيتِ يحيى قوي، بس تفتكري إنسان انسحب من حياتك واختفى فجأة بدون أي أسباب يستاهل الحب دا؟! مافيش أي مبرر في الدنيا يخليه يسيبك سنتين من غير ولا كلمة إلا انه يكون مات، وانا أعتقد وجايز أثق إنه عايش، صحيح ماعنديش معلومة عنه، لكن سلوكه طول حياته يفسر غيابه.

ما زالت صامتة وعيناها الدامعة سارحه بعيدًا عن عينيه كأنّها أضعف من أن تواجه عينيه بكلِّ حبِّها وصراحتها، فعاود الحديث قائلًا/:

ـ فريدة، بلاش تعذبي نفسك أكتر من كدا، عيشي، حبي، أنا عايز أشوفك سعيدة عايشة الدنيا بقلبك، نفسي تحبي حتى لو هتحبي غيري، صدقيني، نفسي أشوف ابتسامتك من القلب، فكري في كلامي.

- رامي انت إنسان رائع وناجح وأي بنت تتمناك، لكن انت تستاهل إنك تتحب، أنا مش عايزة أنسى بيك حد تاني، انت وقفت جمبي كتير ومش ممكن أظلمك.

- بس عمري ما اتمنيت غيرك، وبحلم باليوم اللي تحبيني فيه زي ما بحبك.. فريدة، أنا جمبك ومعاكِ عشان تبدئي حياة جديدة، إنما لازم انتِ تساعديني وتحاولي تكسري وهم الماضي، أنا مستعد أستنى عمري كله عشان تحبيني بس لازم تقفلي صفحة امبارح عشان تقدري تعيشي النهاردا.

عادت إلى البيت بحيرتها، حكت لوالدتها عن مقابلتها مع رامي، استمعت والدتها إليها بإنصات، ثم طلبت منها أنْ تطوي الماضي وتفكر في المستقبل، وتحدثت شريفة بإعجاب عن رامي الإنسان الصادق المخلص الناجح الذي يستحق أنْ تفكّرَ فيه وتحبه، كانت والدتها تعلم جيّدًا أنّها ما زالت تحمل ذكرياتها أملًا أنْ يعود الماضي للحياة، ولكن الأمس مضى ولن يعود، ولا يجب أنْ تظلَّ سنوات عمرها حبيسة أيام انقضت ولن تتجدد. تحدثت شريفة كثيرًا بقلب أمٍّ أرهقها القلق على مستقبل ابنتها، جلست بجوارها تحذرها من الأيام والعمر الذي يمضي وهي حائرة تائهة، الأيام لن تنتظرها وقطارها يدهس ولا يرحم. طالبتها شريفة أنْ تتمسّكَ بالحب الذي يفتح لها أبواب الحياة، وتنسى الحبَّ الذي ما جنت منه إلا العذاب.. ظلت شريفة تتحدث وفريدة لا تنطق، ليس لديها حجة الرفض ولا قوة القبول، القرار صعب جدًّا. أنهت والدتها الحديث قائلة:

ـ انتِ تستحقي السعادة، ورامي هو اللي يستحق حبك.

تركتها والدتها جالسة في فراشها حائرة، هنا في غرفتها يصحو الحنين ويستبد ولا يعبأ بالسنين والعد، فجلست تبكي، ثم أمسكت هاتفها، وعادت تقلب في رسائله الكثيرة، ما بين الرسائل المقروءة والمسموعة، وكلّما قرأت واستمعت، زادت دموعها وزادت حيرتها، كم هي كثيرة رسائل الحب والعشق بينهما! كم كثيرة الوعود والأمنيات، كم كثيرة الأغنيات، أغنيات قديمة وحديثة وأخرى غنّاها لها خصيصا، هكذا كان يعبر عن حبِّه، هكذا ملك قلبها، ثم رحل به وترك ذكريات تشهد على حب لا تعرف كيف انتهى ولماذا انتهى، وإن كان ما زال ينبض في قلبها فلماذا انتهى من قلبه؟!

وتوقفت عند أغنية أرسلها لها بصوت العندليب «زي الهوى»، حينما كانت تهرب منه بعدما عرفت علاقاته الكثيرة، وبعدما رأت الفيديو الذي أرسلته لها ندى، توقفت عند الأغنية وقامت بتشغيلها، ففاضت دموعها وامتزجت بابتسامة من الماضي الجميل، وقالت بصوت حزين:

ـ زي الهوى يا يحيى.

....

وتمضي الأيام ورامي يحاصرها باهتمامه ورسائله، ويطلب أنْ يراها بعيدًا عن العمل، تعتذر كثيرًا وتقبل أحيانًا، وما زالت تجاهد أن تنسى، لكن الذكريات أقوى منها، ورامي صبره عليها لا ينفد، وأمله في حبها لا ينقطع، حتى عمله الجديد وتألقه في الإعلام لم يشغله عنها. كان يحكي لها كثيرًا عن البرنامج، وينتظر رأيها بعد كل حلقة، يحدثها قبل الحلقة وبعدها، وهي تسانده في عمله بكلِّ قوة، ولكن لم تستطع أن تحبه رغم أنّه يبدو أمامها حلمًا لأيّ فتاة، أحيانًا كانت تشعر أنّها لا تستحق منه كل هذا، وأنّه يستحق فتاة أفضل منها، يكون هو أول أحلامها، وأول حكايتها، وأول لحظة عشق، تراه يستحق الكثير، وهي لا تملك من أمر قلبها شيئًا.

وفي ليلة جلست كعادتها تنتظر حلقة رامي المعتادة ومعها والدتها وعلياء وابنتها لسفر شريف لحضور أحد المؤتمرات الطبية. كانت ليلة صيفية جميلة، وظلت علياء تحدثها عن رامي وحبه لها، وحكت لها حديثه عنها مع شريف، بينما فريدة تستمع ولا تتكلم كعادتها، ظلت علياء تنصحها أنْ توافقَ على الخطبة لتجبر قلبها على النسيان، بينما فريدة غير مقتنعة أنّ ترتبط بأيِّ شكلٍ برامي قبل أنْ تنسى الماضي أمّا علياء فتقول لها بثقة تامة:

ـ لازم ترتبطي يا فريدة، اسمعي كلامي.

وفريدة تنظر باستياء وتصمت، فقلبت علياء شفتيها امتعاضًا، وقالت بصوت غاضب:

ـ مافيش فايدة.

أمسكت هاتفها وجلست تقلب فيه بعيدًا عن فريدة على أريكة أخرى، أمّا فريدة علقت بصرها على شاشة التلفاز في انتظار حلقة البرنامج، وفجأة انتبهت فريدة إلى أغنية تسمعها علياء وتغني معها بإعجاب شديد، الموسيقى ليست غريبة عليها، تعرفها جيّدًا، فتحركت مسرعة نحو علياء، وجلست بجوارها وتساءلت بلهفة:

ـ انتِ بتسمعي إيه؟!

- أغنية جديدة نازلة بس حلوة قوي، المزيكا تجنن.

فقالت فريدة بصوت مرتعش:

ـ علّي الصوت على الآخر يا علياء.

رفعت علياء الصوت، فانهمرت دموع فريدة، وقالت بصوت مختنق:

ـ يحيى.. دا يحيى.

فنظرت علياء في دهشة بالغة، وقالت:

ـ يحيى إيه؟! اللي بيغني اسمه تيام.

ـ لحن يحيى، شوفي اسم الملحن.

لم تفكر علياء في اسم الملحن من قبل رغم أنّها سمعت الأغنية أكثر من مرة، فقرأت اسم الملحن، وفعلا كان يحيى، يحيى فقط، فقالت علياء:

ـ مكتوب يحيى بس، جايز أي حد غيره.

ـ لا يا علياء، هو يحيى، اللحن دا سمعهولي وعندي على الموبايل.

قفزت فريدة لتحضر هاتفها، ثم قامت بتشغيل اللحن الذي علي هاتفها وعلياء ووالدتها تستمعان وتقارنان بين الموسيقى على هاتف فريدة وموسيقى الأغنية، فصاحت علياء:

ـ مختلف شوية يا فريدة، جايز مش هو.

ـ هو نفس اللحن، الفرق التوزيع.

- يعني البيه عايش حياته بالطول والعرض، وانتِ قاعدة مستنية يرجع، عرفتِ إننا صح، عرفتِ إنك ضيعتِ عمرك هدر؟!

فصرخت فريدة:

ـ كفاية.. كفاية يا علياء، أرجوكم سيبوني.

صمتت علياء ووالدتها، وهرولت فريدة إلى حجرتها ودموعها صرخات لا تتوقف... جلست تفكر

وحدها لماذا تركها كلَّ هذه السنوات إنْ كانت كلّ أموره جيدة؟!

لماذا يجرحها بهذه القسوة؟!

كيف ما زال يحيا ويتنفس ويعزف ولا تخطر على باله إطلاقا؟

لماذا لم ينهِ ما بينهما ويرحل؟

هل أحب غيرها؟

هل تزوج؟

ماذا فعلت كيف يتركها تموت ألماً وشوقًا؟!

لماذا أتقن دور العاشق إن لم يكن يحبها؟!

وإن كان كذلك لماذا اقترب؟!

لماذا ظهر في حياتها فجأة واختفى فجأة؟!

ألف لماذا غاضبة، ألف دمعة حائرة، ألف ألم يمزقها بلا رحمة....

كل الأسئلة بلا إجابة، ولن يجيبها إلا هو، ولا تظن أنّ لديه إجابة إلا أنّه ملّ لعبة العشق والهوى معها، وبحث عن لعبةٍ جديدة، الحب عنده لعبة، المشاعر عنده لعبة لا يعنيه يجرح أو يؤلم من، المهم هو، يقترب إنْ أرادَ ويبتعد إنْ أراد، ولا يهتم بما سيخلفه وراءه من ألمٍ ووجع، إلى هذا الحد كان بلا قلب! وإلى هذا الحد كانت ساذجة! اليوم فقط أدركت كم عذبت قلبها، وكم أشقت نفسها بحبٍّ كبير لمن لا يستحق لحظه اهتمام، لا بد أنْ تصل إليه، لا بد أنْ تراه، لا بد أنْ تمزّقَ الماضي أمام عينيه، وتهدم أسطورة عشقه في قلبها على رأسه ، سيخرج من حياتها في لحظة كما أخرجها من حياته في لحظة،

ولكن لا بُدّ من خروج مهين له بقدر ما عذبها وأوجعها دون رحمة، لا بُدّ أنْ تقول له إحساسها الآن، لا بُدَّ أنْ تقولَ له أكرهك بقدر ما أحببتك!

....

الفصل الحادي والعشرون

أنهى «رامي» برنامجه على الهواء، ثم اتصل هاتفيًّا بفريدة كعادته كي يستمع إلى رأيها في الحلقة، لكنّها لم ترد، كرّرَ الاتصال كثيرًا، ولكنّها لم ترد، بات ليلته يفكر لماذا لم ترد عليه؟ ماذا يشغلها عنه، بعدما ظنّ أنّه اقترب بعض الشيء من قلبها. بات ليلته قلقًا عليها، مشغولًا بها، ولم ينم إلا ساعتين ثم استيقظ مبكرًا، ما زال قلقه عليها يؤرّقه، إلى أنْ تفاجأ أنّها هي من تطلبه. ردَّ سريعًا فأخبرته بما كان يريد أنْ يعلمه، حكت له ما أوجعها البارحة، أخبرته بأنّ يحيى يعزف وينجح ونسي وعده ونسي حبه، حكت له بصوت جريح، صوت مهزوم باكٍ، ممزوج بالأنين جعلته يرى دموعها بقلبه ويتخيل حجم ألمها وعذابها، ظلَّ يستمع وهو يتألم معها، ولكن في قلبه بعض الارتياح مما حدث، ربما هذه الصدمة تكون لقلبها بداية الخروج من دوامة السراب، حاول أنْ يخفّفَ ألامها، وربما حاول أنْ يخفف ألمه هو أيضًا وهو يسمع حبيبته تتمزق ألمًا وحزنًا على رجلٍ آخر، سرح بخياله قليلًا في يحيى، يا له من قاس عديم الإحساس! سخط عليه كثيرًا، وتسائل باستغراب: مَنْ يفرط في كلِّ هذا الحب؟!

عندها شعر كم يغار منه ويحسده على كلِّ هذا الحب الذي لا يستحقه، يا ليتها تحبه ولو بعضا من هذا الحب! فالقليل من حبِّها كثير، وما أسعده لو أحبته. انتبه إليها وهي تقول له:

ـ رامي، أنا عايزة أعرف هو فين، عايزة أقابله، وماحدش غيرك هيقدر يساعدني.. انتَ تقدر توصل للمطرب دا بسهولة وتعرف فين يحيى.

صمت رامي، ربما تفاجأ من هذا الطلب الصعب، تريده هو من يبحث لها عن يحيى.. يا له من رجاء مؤلم! صمت طويلا، فأدركت صعوبة ما طلبت منه، فقالت:

ـ أنا آسفة، ماكانش يصح إني أطلب منك الطلب دا.

ـ فريدة، لو دا هيريحك هعمله، أنا قلت لك قبل كدا إن سعادتك تهمني، وسعادتك إني تتخلصي من حب يحيى، لكن هل إنسان زي ده يستاهل حتى العتاب؟! صدقيني خسارة فيه لأنه عديم الإحساس، الصفحة دي من حياتك لازم تقطعيها وتنسينها.

ـ أرجوك يا رامي تساعدني، وأوعدك إني مش بس هنسى الصفحة دي، هحرقها.

ـ حاضر يا فريدة ، إن شاء الله نقدر نوصله.

....

لم تكن شريفة تعرف كيف تخفف أوجاع ابنتها، ظنّت لبعض الوقت أنّ ذكرى يحيى بدأت تخفت في قلبها، وفي طريقها إلى الذبول، وما يحييها إلا صوت الأغنيات، وحنين الذكريات، كانت تعلق أملًا كبيرًا على أنّ «رامي» سيأخذها من عالم الذكرى إلى عالم الحب الحقيقي، من الوهم إلى الحقيقة، إنه الشاب الناجح المخلص المحب الذي تتمناه لها، حياته واضحة كالشمس، أيامه صريحة التفاصيل، نقية كالهواء العليل، لا قصص ولا أقاويل، ولكن أطلَّ يحيى من جديد على أيامها ليعيد لأنينها كامل قوته، وليأسها كامل سطوته، أيقظ كلَّ عذابها من غفلته، يا له من لعين أطل بموسيقى الغدر والخيانة، لحن أغنية ملأ به الوجود نجاحًا وتناسى أنّه ترك قلبًا ينزف شوقًا واشتياقًا إليه ويموت خوفًا عليه، كانت شريفة تشعر أنّها لو رأته ربما تقتله؛ إنّه لا يستحق الموت مرة واحدة، بل يستحق الموت آلاف المرات، بعدد دموع فريدة وآهاتها، ،بعدد ثواني حرمانها، بعدد ساعات اشتياقها، ما زالت ابنتها تتألم وهي لا تعرف كيف تساندها، منذ أنْ سمعت الأغنية وهي في حالة نفسية لا توصف لا يشغلها إلا أنْ تصل إليه، أن تواجهه، أن تقول له أكرهك وجهًا لوجه. ما زال رامي يحاول أنْ يعرف أين هو، وشريفة تتمنى من قلبها ألا يوفق في الوصول إليه.. نعم تتمنى ذلك بشدة؛ تخاف على ابنتها من هذه المواجهة، حذّرتها كثيرًا منها، ولكنّها مصممة على أن تقابله، أنْ تلعنه، أنْ تكسرَ قيود عشقه أمام عينيه. كم تدعو الله ألا تقابله، أن يتعسر هذا اللقاء، في قلب الأم يقين أنّ قلب فريدة المعذب أضعف من تلك المواجهة الثقيلة، وأعصابها المتوترة لن تحتمل، لكن لم تفلح هي ولا علياء ولا الدكتور عادل ولا رامي في إثنائها عن هذا التفكير، وما زالت شريفة تترقب كيف سينتهي الأمر،وتدعو الله أنْ تمرَّ الأزمة وتفيق ابنتها من هذا الوهم وتتخلص من هذا العذاب.

....

بينما هي جالسة في غرفتها، غارقة في أفكارها الكثيرة وأحزانها الثقيلة وجراحها التي لا تلتئم، وصوت العندليب عبر هاتفها يواسيها بكلمات أغنياته، تتوالى الأغنيات جبار، فوق الشوق، لست قلبي، وكل أغنية تعزف لحن أحزانها الذي لا ينقطع، كأنّه يعبر عن كلِّ ما في قلبها، اكتفت بصوته وكلامه ودموعها تجري مع كلِّ آهة يشدو بها كأنّها نفس الآهة التى تشق قلبها ألمًا، واذ بهاتفها يعلو رنينه، فنظرت إلى الهاتف باهتمام ولهفة لعلّه هو، تنتظر مكالمة هامة من رامي، تنتظر أنْ يفعلَ ما وعدها به وهي تثق أنّه سيفي بوعده، رغم أنه ليس كل من يعد يفي، ولكن رامي شخصية أخرى، رجل بمعنى الكلمة، ولكن الشخص المناسب جاءها في الوقت غير المناسب جاء بعدما ذابت في حبٍّ كاذب، ما ترك فيها إلا بقايا قلب، بقايا قلب تظن أنّه ما عاد يقدر على الحب والعطاء، ولكن هذا هو قدرها، ومن يفر من قدره؟!

ردت على رامي بلهفة وترقب، فأخبرها أنه سيأتي ليزورها ويخبرها بما عرف.

استعدت لاستقباله في دقائق معدودة، وعقلها يكاد يجن من أفكاره، ومن أسئلة حائرة لا يهدأ ضجيجها وقلبها يتمزق بين أوجاع لا يخف أنينها. جلست تنتظره ووالدتها بجوارها تعيش معها القلق والتوتر نفسهما، إلى أنْ جاء رامي.

جلست صامتة وهي تترقب حديثه بفارغ الصبر، لقد ملت الصمت.. ملت الصبر، وما تريد إلا الحقيقة مهما كانت قاسية، ستكون أرحم من عذابها الطويل، فسألت بانفعال:

ـ ساكت ليه يا رامي؟ قولي عرفت إيه.. هو أكيد له عنوان جديد في مصر!

ـ هو مارجعش مصر خالص، فريق إعداد البرنامج تواصل مع المطرب تيام وتكلموا معاه إننا عايزين نعمل لقاء مع فريق عمل الأغنية كله، رحب بالفكرة، ادانا رقم تليفون الموزع والشاعر، لكن قال إن الملحن عايش في أوروبا وماتواصلش معاه نهائي.

- وبعدين؟

ـ كلمنا الموزع ورحب بظهوره في البرنامج، وسألته عن الملحن قال إنه صديقه وعايش برة مصر، وبعتله اللحن واتساب، وكمان يحيى هو منتج الأغنية، وهو متحمل الدعايا، لكن خطوات التنفيذ كلها واختيار

الشاعر والمطرب عملها الموزع. طلبنا منه تليفونه عشان نعمل معاه لقاء خلال سكايب إذا كان مش عايز ييجي مصر.. قالي إن هو رافض يرجع مصر ورافض الظهور الإعلامي.

ـ يعني إيه.. ماوصلتش لحاجة؟!

ـ وصلت، أخدت رقمه وطلبت من الموزع ما يقولش حاجة ليحيى ويسيبنا احنا نقنعه بالظهور الإعلامي.

ثم أخرج رامي هاتفه وأخذ يقلب فيه، ثم قال:

ـ أنا هبعتلك الرقم واتس حالًا.

بينما هي صامتة شاردة بعيدًا، ربما وصلت بأفكارها إليه في بلاد الغرب، انتبهت على صوت والدتها وهي تقول بانفعال:

ـ ولا تكلميه ولا تعبريه، والله ما يستاهل، أنا مش فاهمة تكلميه تقوليله إيه.. دا عايش زي الفل، وبينتج أغاني لنفسه، كلم صاحبه وبيخطط لمستقبله وانتِ مشغولة عن نفسك بيه سنين.. كفاية كدا.. ربنا ينتقم منه.

بينما هي نظرت إليها بعينين دامعتين ولم تعلق، أمّا رامي أيد كلام والدتها بكلِّ شدة كان رأيه أنّ النبش في الماضي لن يفيد، وعليها أنْ تفكّرَ في حياتها كما فكر هو في حياته بكل تفاصيلها، وهي ما زالت صامتة تماما، فقالت والدتها:

ـ يا حبيبتي، هو مش هيرد على اتصالك، يعني حد يحب يسمع تهزيقه؟!

ـ هتصل من رقم جديد مايعرفوش.

ـ يمكن مش بيرد على أي أرقام من مصر.

ـ هيرد.

ـ ولو ماردش؟!

ـ هسافر له، رامي يقدر يجيبلي عنوانه هناك.

ـ لا، دا جنان رسمي.

فتدخل رامي في الحوار بعد أنْ انفعلت كلتاهما، وقال بهدوء:

ـ أرجوكِ يا طنط، سيبي فريدة تعمل اللي يريحها، كلميه يا فريدة بس اتمنى بعد المكالمة تكلمي قلبك وتقوليله اللي ينساك انساه.

نظرت إليه بعيونها الدامعة، وقالت بصوت مختنق:

ـ عندك حق، أوعدك إني أعمل كدا، شكرًا يا رامي، أنا تعبتك كتير جدًّا ومش عارفة اشكرك ازاي.

ـ تحبي نفسك وتخافي عليها، عشان انتِ تستاهلي كل السعادة، دي الحاجة الوحيدة اللي تعمليها لو عايزة تشكريني رغم إني ماعملتش حاجة استاهل عليها شكر.

انصرف رامي وأصبح عليها أنّ تستعد لتلك المواجهة الرهيبة التي لن تثنيها عنها أي نصيحة أو أي توجيه من أي حد، كان قرارها نهائيًّا لا رجعة فيه، لا بد أن تتحدث معه، لا بد أنْ يسمعَ منها كلمة أكرهك كما سمع منها كلمة أحبك، كلمة أكرهك هي ليست كلمة ستقال بالحروف، بل ستقولها بكلِّ ذرة في كيانها، بكلِّ دقة في قلبها، بكلِّ سنين يأسها، بكلِّ عذابات أيام الهجر القاسية، ولن يعنيها أعذاره، ولا تجاهله، ولن تحزن إن أغلقَ الهاتف في وجهها، بالعكس هذا سيثبت لها كم هو خائف من ذنبه لدرجة تعجز لسانه الموهوب في الكلام المعسول. كانت تتمنى لو تراه؛ ففي تعبيرات الوجه ونظرات العين كلام آخر لا يقال، كان يكفيها أنْ تنظرَ إليه نظرة احتقار حارقة، تحرق قلبه فلا يشفى بعدها أبدًا، ولكنّه جبان، فرّ منها بعيدًا.. فر بذنبه وخيانته بعيدًا عنها، ولكن الله لن يرحمه، إنّ الله سينتقم منه مهما بعد ومهما غاب، أينما يفر عذابه لها سيرحل معه، يلازم أنفاسه إلى أنْ يخنقه يومًا ما.

....

حاولت أنْ تجمع كل قوتها وترتب أفكارها وترتب جمل حديثها، كيف تبدأ، وكيف تسخر منه، وكيف تحتقره في كلِّ كلمة، وكيف تشعل بركان ثورتها ويمتد حريقه عبر الهاتف إلى مدينة الضباب فيزيد ضباب أيامه، ويخنقه ندمًا.

فكرت كثيرًا ورتبت كلامًا كثيرًا، وكلما قررت أنْ تجري حوار الغضب الآن تتراجع وتؤجل المكالمة ليوم لاحق، الأمر يحتاج شحن كل قواها وتجميع كل عذابها في بضع كلمات لبضع دقائق، يا له من عمل صعب جدًّا!

وأخيرًا اهتدت أنْ تكتب بعض الكلمات لتعينها على تلك الدقائق الرهيبة، وفعلت ذلك ودونت بعض الكلمات، ثم سرحت قليلًا تفكر كيف سيرد عليها، ماذا سيقول بمجرد أن يسمع صوتها، هل سينزعج وينهي المكالمة؟ أم سيكون أكثر وقاحة ويسخر منها ومن سذاجتها المفرطة؟ أم سيندم ويعتذر ويتوب ويرجوها أن تصفح؟ ماذا سيفعل.. لم تعد تستطيع التوقع، كل أفعاله خارج التوقعات، ما توقعت يومًا أنْ يطوف حولها عاشق هائم ولا أن يتسلل إلى مشاعرها بهذه القوة، ولا أنْ يختفي من حياتها بهذه الغرابة، ولا أنْ يظهرَ مرّةً أخرى بهذه الطريقة العجيبة، وهي في كلِّ هذا لا تفهم لماذا.. لماذا اقترب ولماذا ابتعد؟ ماذا كانت بالنسبة له ما بين القرب والبعد؟ ماذا كان في قلبه لها بين اللقاء والفراق؟!

اتخذت القرار، وقررت أنْ تفعل ما تريد، طلبته هاتفيًّا وفي يدها بعض الكلمات التي كتبتها، وبمجرد أنْ طلبت رقمه والرعشة تسري في يديها، بل في كلِّ جسدها أعصابها تنهار مع كلِّ ثانية، وقلبها تتسارع دقاته وهي في انتظار الرد، إلى أنْ جاءها الرد وسمعته يقول:

ـ ألو.

اهتزت يدها التي تمسك الورقة، فسقطت منها بكلِّ ما كتبت فيها، بكلِّ ما نسجت فيها من كلمات لوم وعتاب، وسالت دموعها، وتاهت كلماتها، وذابت في بحر من الألم وفي لحظة نسيت كل ما حضرت وحفظت من كلمات، فإذا بالطرف الآخر يردد: ألو.. ألو بصوت عالٍ، إنّه هو، إنه يحيى، لا تحتاج لكلمات أكثر كي تعرف صوته ربما تعرفه من أنفاسه عبر الهاتف، إنه هو، فقالت بصوت حزين ممزوج بوجع عاصف:

ـ ازاي كل الناس كانت شايفة حقيقتك، وأنا بس اللي مش قادرة اشوف؟! ازاي كنت بقنع نفسي طول السنين اللي فاتت إن في شيء كبير بعدك عني وإنك في يوم هترجع، كنت واثقة إنك عايش بس للأسف كنت مصدقة إنك بتحبني!

فجاءها صوته مرتعشًا مندهشًا خافتًا قائلا:

ـ فريدة!

فقالت بغضب عارم:

ـ ماتنطقش اسمي، فريدة اللي حبيتك انتهت، ماتت.. أنا فريدة تاني، مابتكرهش حد في العالم قدك، ماكنتش محتاج تهاجر عشان تنهي اللي كان بينا، الموضوع أبسط من كدا، قولي مابحبكيش، اكتبها في رسالة، أي حل غير إنك تختفي بالشكل دا.

اختنق صوتها من البكاء، فما عاد يسمع إلا صوت بكائها وأنفاسها المتسارعة، وهي لا تسمع له صوتًا ولا نفسًا كأنّه مات على الهاتف أو كأنّها تتحدث إلى صنم أبكم أخرس، فاستفزها صمته القاتل، لو كان أغلق الهاتف في وجهها كان أرحم، لو كان سخر من سذاجتها ورومانسيتها كان أهون، فصاحت بغضب شديد:

ـ انت ساكت ليه؟ انطق.. قول أي حاجة، خلاص الكلام خلص؟!

فما استفزه صراخها ليقول شيئًا، ما زال صامتًا، فقالت بحزن بالغ، وبصوت متقطع:

-اللعبة كلها كانت إني أحبك وأتعلق بيك، صح؟ إنك انت اللي ترفضني مش أنا اللي أرفضك، ولما دا حصل نهيت الحكاية من غير ولا كلمة، من غير ما أفهم قربت ليه وبعدت ليه، ليه عملت كدا.. ليه جرحتني كدا؟! انت مش ممكن تكون إنسان!

وما زال يستمع في صمت قاتل مرعب موجع ربما أكثر من الكلام، بينما هي كل جسدها يرتعش ودموعها تسيل بلا توقف، وألم موجع في قلبها وكأنّه ما عاد يحتمل جراحه الثقيلة ورأتيها تقتنص الهواء بصعوبة كأنّ الأكسجين نفد من حولها، إنّها تختنق من الألم، تحترق بنار عذابها، وما تطفئ دموعها النار، بل ربما تزيدها اشتعالًا، ما عادت قادرة على الكلام ولا العتاب؛ فقالت بصوت متقطع مختنق من البكاء، خافت كأنّه همس:

ـ أنا بكرهك، قد ما حبيتك، قد ما استنيتك، أنا بكرهك.. بكرهك.

أنهت المكالمة وسقط الهاتف من يدها، وسقطت على الفراش، فقدت الوعي مثلما فقدت الحب والثقة في كلِّ شيء.

....

الفصل الثاني والعشرون

الجميع يترقب في المستشفى استقرار حالتها، وما زالت تخضع لبعض الفحوصات الطبية بعد أنْ نجحَ الأطباء في إفاقتها، الجميع ينتظر في قلق بالغ، شريفة وعلياء ورامي، أما دكتور عادل وشريف يطمئنان من زملائهم على حالتها. كانت شريفة في قمة الانزعاج والتوتر، تتذكر كيف دخلت عليها غرفتها فوجدتها ملقاة على الفراش دون حراك كأنّها جثة هامدة، فهرولت للاتصال بالدكتور عادل وأخبرته بالأمر، وهي تصرخ في الهاتف، بالكاد فهم ما حدث وقام على الفور بنقلها إلى المستشفى، ومنذ ساعة وأطباء يدخلون ويخرجون وفريدة بين الوعي واللا وعي، تنظر للجميع كأنها تائهة، لا تتكلم. كانت شريفة لا تعلم ما حدث، ولكن توقعت أنّ يحيى وراء ما أصابها، كل كارثة في حياتها يطل من ورائها هذا الأناني، لا بد أنّه كان وقحًا معها، هذا ما كانت تخشاه شريفة، وكثيرًا ما حذرت ابنتها منه، ولكن فريدة لم تعد تسمع لها نصيحة في هذا الموضوع. ووقفت شريفة تسأل الدكتور عادل وشريف وترجوهما أن يخبروها بكلِّ الحقيقة. طمأنها الدكتور عادل أنها بخير، وأنها في الغد ستكون أفضل كثيرًا، وستبقى هنا إلى أن نطمئن على صحتها تمامًا. وقفت شريفة حائرة، تلعن يحيى وتبكي على حال ابنتها، فقال دكتور عادل:

ـ والله فريدة بخير، ضغطها عالي شوية وأعصابها تعبانة.. إن شاء الله هتبقى زي الفل، أزمة وتعدي.

ـ منه لله، يا ترى قالها إيه!

ـ فريدة قوية وتعدي كل دا، ماتقلقيش.

فانتبهت شريفة إلى رامي، الذي كان يقف متوترًا حائرًا والقلق على فريدة مرسوم على وجهه، فور أنْ علم من شريف بما حدث هرول إليهم، من يرى لهفته عليها يظن أنّها زوجته أو خطيبته أو أغلى من في عائلته على قلبه! تحركت شريفة نحوه وشكرته بشدة وطلبت منه أن يغادر ليرتاح قليلا..

ولكنّه رفض. وتمضي الساعات وفريدة تبدو في تحسن، وقارب الليل على الانتهاء، وانصرف الجميع وبقيت شريفة بجوار ابنتها، وفي العاشرة صباحًا كان رامي أول من عاد إلى المستشفى، حاملا باقة من الزهور الرائعة. استقبلته شريفة بابتسامة وترحاب بالغ، ودخل للاطمئنان على فريدة، التي كانت ترقد في فراشها، وجهها شاحب متعب، وعيونها تحكي حكاية حزن طويلة، فسألها عن صحتها، فابتسمت وأخبرته أنّها في تحسن، وجلس رامي صامتًا بضع دقائق، ولكن عيناه تقول الكثير، عيناه لا تخفي حبَّه لها ولا خوفه عليها، ولا حتى فضوله أنْ يعرفَ ماذا قال لها يحيى، ولكنّه لم يتحدث في شيء؛ خاف عليها من أي سؤال يرهقها ويذكرها بجرح مفتوح، بل خاف حتى أن يثقل عليها بكلمة أحبك، وكأنّه يطلب مشاعرها وحبها مقابل اهتمامه بها وخوفه عليها، يحبها حبًّا بلا شروط، يحبها حتى وإن لم تستطع أنْ تبادله الحب. اطمئن عليها وغادر بعد أنْ وعدها أنْ يعودَ ليلًا قبل تقديم حلقة برنامجه.

انصرف رامي وأقبلت علياء لتجلس مع أختها، بينما عادت شريفة لشقتها لتحضر بعض الأغراض. استطاعت علياء أنْ ترسمَ الابتسامة على وجه أختها، بروحها المرحة والدعابة التي لا تفارق حديثها، ولكن علياء كانت تريد أن تعرف ما حدث؛ فتساءلت:

ـ ممكن أعرف التافه دا قالك إيه عمل فيكِ كدا؟

فذابت ابتسامة فريدة في جراحها من جديد وتنهدت، ثم صمتت، فقالت علياء:

ـ أنا آسفة إني سألت.. بس بصراحة هموت وأعرف.

ـ تموتي عشان إيه بس؟!

ـ يعني قال إيه يخليكِ في الحالة دي، والله ما يستاهل!

ـ مقالش ولا كلمة.

ـ يعني إيه؟!

ـ دا اللي حصل، مقالش غير اسمي لما اتفاجأ بصوتي، وبس مانطقش تاني، أنا متهيألي إنه ساب الموبايل مفتوح وماسمعش أنا قلت إيه.

ـ يا بروده، أنا افتكرت إنه كان وقح في ردوده، أنا عارفة هو قد إيه جريء، بس غريبة إنه مقالش حاجة!

- هو دا اللي حصل، يا ريته كان رد بوقاحة كان أهون، إنما يسيبني أكلم نفسي ولا يسيب الخط مفتوح ومايسمعش كلامي، وجعني قوي يا علياء.

- لا، أعتقد إنه سمع كل كلمة، لو مش عايز يسمع كان قفل السكة في وشك عادي يعني.

ـ أنا قلت كلام كتير، مافيش ولا كلمة استفزته يرد عليا، مش قادرة أصدق إن دا يحيى!

ـ تاني يا فريدة؟! صدقي يا حبيبتي، يحيى دا إنسان أناني وتافه، ومابيحبش إلا نفسه وبعدين كان هيقول إيه؟!

ـ مش عارفة، أي حاجة، أي حاجة.

ـ المشكلة فيكِ يا فريدة، انتِ عايشة جوا فيلم أبيض وأسود إن جراله حاجة وراجع، مش فاهمة جراله إيه يعني! فقد الذاكرة مثلا، ولما ترجعله الذاكرة هيرجعلك، أهو زي القرد مافيهوش حاجة، والحمد لله إنك عرفتِ حقيقته.. الحب قدامك يا فريدة بس انتِ مش عايزة تشوفيه.

ـ عندك حق، المشكلة فيا.

....

تمر الأيام واستقرت حالة فريدة وتحسنت واستعادت عافيتها بما أحيطت به من محبة بالغة ومشاعر صادقة من كل من حولها، وعادت إلى بيتها وعادت إلى عملها ورامي ما زال يحيطها باهتمام وتقدير وحب لم تر مثله، لا يقول أحبك كثيرًا، ولكن تبدو مشاعره لها واضحة في كلِّ تصرف، في كلِّ نظرة، في كلِّ كلمة، في كلِّ لحظة يقضيها معها، وكلما أخلص في حبِّه أكثر كلما شعرت بالذنب نحوه أكثر، كيف لا تقابل كلَّ هذا الحب بحب أكبر، كل هذا العطاء والإخلاص والعشق بعشق أكبر،

بعدما أيقنت أنّها خدعت وعاشت وهمًا كبيرًا مع يحيى. حاولت أن تفكر في رامي، حاولت أن تحبه، هو من أجبرها على هذه المحاولة بكلّ ما يفعله من أجلها، ولكن يبدو أنّ قلبها ما عاد قادرًا على الحب وحكاياته ولا الشوق وآهاته، ما زال الجرح ينزف ولم يلتئم بعد، إنه جرح عميق لن يشفى بسهولة، وربما لن يشفى أبدًا..!

وتمضي الأيام، وتمضي ثلاثة أشهر على مكالمتها مع يحيى، ما خف فيها جرح الماضي، ولا دق قلبها لحب رامي، ولكن ما زالت علاقتها برامي وطيدة، يحدثها هاتفيًّا كل يوم رغم أنهما يتقابلان يوميًّا في العمل، علاقة وطيدة تراها هي صداقة ويراها هو حبًّا، وكلاهما لا يحاول أن يوصف ما بينهما أمام الآخر حتى لا يفقده. اعتادت فريدة على وجوده في حياتها، ولكن ما زالت لا تراه حبيبًا، ولا ترى غيره وتشعر أنّ الحبَّ أصبح محرّمًا على قلبها، بينما هو ما زال متعلّقًا بأمل أنْ تحبّه بعدما تتخلص من جرحها القديم، كانا يتحدثان كثيرًا، ويحكيان طويلًا في كلِّ شيء إلا في مصير ما بينهما، هو يخشى أن تبتعد إن ألحَّ عليها في الارتباط، وهي تخشى أنْ تفقد أعز صديق وأصدق إنسان قابلته إن صرّحت له بأنّها لم تحبه بعد، أما شريفة فكانت ترى هذه العلاقة هي المنقذ لابنتها من الاكتئاب، وتثق بأن فريدة ستحبه بمرور الوقت، وفي إحدى المحادثات الهاتفية بينهما، أخبرها بأفكار هامة في حلقات برنامجه القادمة، وتجاوبت مع أفكاره وأضافت أفكارًا أخرى بحماس بالغ، وهو سعيد جدًّا باهتمامها وحماسها، فسألها:

ـ قد كدا نجاحي يهمك؟!

ـ طبعا يا رامي، انت ماتعرفش انت بالنسبالي إيه.

ـ أنا بالنسبالك إيه؟

فصمتت قليلا، ثم قالت:

ـ انتَ أصدق إنسان قابلته، وأكتر حد حاول يسعدني.

ـ بحبك يا فريدة، أوعدك إني عمري ما هحرجك أبدًا.

- رامي، أنا عارفة إنك صبرت عليا كتير، لكن يوم ما ألبس دبلتك لازم أكون ليك بكل قلبي ومشاعري،

أنا للأسف لسه قلبي موجوع، بحاول أفوق من اللي أنا فيه لكن صدقني مش بإيدي، وخايفة أكمل باقي عمري كدا.

ـ لا، هتنسي كل اللي فات وهتبدئي عمر جديد.

ـ مش خايف تستنى كتير؟!

-هاستنى عمري كله عشان تحبيني ولو يوم واحد.

- مش معقول، يا ترى أنا أستاهل كل الحب دا؟!

- كل الحب اللي في قلوب الناس لو حبتهولك بردو شوية عليكِ.

....

للمرة الخامسة يزعجها رنين هاتفها من رقم غريب لا تعرفه وما اعتادت الرد على أرقام لا تعرفها. همت أنْ تحظرَ الرقم، ولكن شيئًا من الفضول دفعها أنْ ترد، فقالت بضيق بالغ:

- ألو.

ـ أستاذة فريدة عبد الرحمن؟

- أيوه.. مين معايا؟

- مساء الخير حضرتك، أنا دكتور شادي حسين سيف الدين...

صمتت، المفاجأة شلت تفكيرها، حتى ما استطاعت أن تسأل لماذا يطلبها، صمتت، والذكريات تفيق من جديد، وعيناه تطل عليها من عالم الذكرى البعيد، فقطع الصمت قائلًا:

ـ أنا آسف على الإزعاج، أنا هنا في مصر، وكنت أتمنى لو اقابل حضرتك، في حاجات كتير أحب أوضحهالك بخصوص يحيى.

ـ لو في حاجة تستحق التوضيح كان وضحها لما كلمته، الحكاية خلصت ومبقاش يهمني أعرف أي شيء عنه، ويا ريت تبلغه كدا.

- الحقيقة هو مايعرفش خالص إني هكلمك، على العموم أنا لسه موجود في مصر يومين كمان، لو غيرتِ رأيك كلميني على الرقم دا.. أنا آسف كمان مرة.

أنهى المكالمة، ويا لها من مكالمة! كل ما قطعته من مسافات في طريق النسيان ذهب هباء، فعادت في دقيقة إلى خطوة البداية، كل الذكريات التي حاولت دفنها في زحام الأيام بعثت من جديد، بكلِّ قوتها.. بكلِّ حلاوتها، بكلِّ مرارتها، كأنّ كل لحظة قضتها معه، وكل لحظة عاشتها له تمر أمام عينيها بكل تفاصيلها، لقد ظنت أنّها برفض مقابلة الدكتور شادي أغلقت باب الماضي، ولكن الحقيقة أنّ الماضي لم يمت بعد، ما زال ينبض رغم كل محاولاتها لنزع الحياة منه، كيف للماضي بكلِّ عذاباته وغموضه أنْ يصبحَ أقوى من الحاضر بكلِّ حلاوته ووضوحه؟!

بدأت تشعر بالاضطراب والارتباك والحيرة، ربما في قلبها صوت الحنين الخافت بدأ يتسلل في خبث ودهاء، ويعزف لحنَ الاشتياق المرير، ويوقظ رغبتها في كشف سر الاختفاء الرهيب، فإذا بصوت كرامتها الغاضب يعلو بإجابته المقنعة بأنْ ليس هناك سرًّا في الاختفاء، في اختفائه خيانة للعهد، غدر لا يمكن أنْ يمحوه اعتذار أو ندم، وعاد صراع المشاعر المنقسمة في قلبها يشتعل ويلتهب إلى أنْ شعرت أنّها تحترق، أعصابها تحترق، وقلبها يحترق، وقوتها تذوب، دب الوهن في كلِّ جسدها، فحاولت أنْ تلملمَ كلَّ قوتها للتوجه إلى غرفة والدتها ارتاحت في حضنها لتستمد منها القوة، وحكت لها ما حدث ودموعها تظلل آهات كلامها، انقبض قلب شريفة من جديد وتغيّرت ملامح وجهها، وقالت بانفعال:

ـ اوعي تقابليه ولا تفتحي قلبك ليحيى تاني، دا عايز يدمر حياتك بأي طريقة.

ـ وليه يا ماما؟! ليه يكرهني كدا.. أنا حبيبته بكلِّ صدق وماخدتش منه غير الوجع!

ـ فريدة، اسمعي كلامي، اتجوزي رامي وابدئي حياة جديدة، ماحدش هيحبك قد رامي، صدقيني.

ـ تفتكري شادي كان هيقول إيه؟!

ـ تاني! انتِ مش خلاص رفضتِ تقابليه، بتفكري في إيه تاني؟!

ـ عندك حق يا ماما، أنا مش هقابله، مش ممكن أقابله.

وانقضت الليلة وهي في حضن والدتها لتتحصن بها من نفسها وضعفها وأفكارها وما كان اليوم التالي إلا ظلًا لليوم الذي سبقه بنفس أفكاره وأوجاعه وهواجسه، ولكن هناك اختلاف واحد، صوت الحنين صار أقوى، والذكريات كأنّها أشخاص تهمس في أذنيها وترجوها أنْ تقابل «شادي» ولو لدقائق معدودة، حتى سارت قدماها بها إلى اللوحة التي رسمها لها يحيى، فأخرجتها من حيث خبأتها ووقفت أمامها كأنّها تعلم سره، ربما تدلها ألوانه وفن يديه على حقيقته، فغابت صورتها ورأت وجهه أمامها بابتسامته الرقيقة ونظراته الجريئة، فتراجعت للوراء وتساءلت بقلق هل جننت؟!

فجلست تبكي من جديد، ولكن الدموع ما حلت مشكلة، ولا أراحت قلبها، فإذا بها تطلب شادي هاتفيًا وتحدد موعد ومكان اللقاء، واستعدت لتلك المقابلة سريعًا وعندما سألتها والدتها أين ذاهبة؟ أخبرتها أنّها ستجوب بسيارتها قليلًا، ثم تعود وربما تمر على علياء وتجلس معها بعض الوقت، أخفت الحقيقة عن والدتها حتى لا تعارضها وتمنعها، لن يمنعها أحد أنْ تعرفَ الحقيقة التي بحثت عنها طويلًا وانتظرتها سنوات مريرة.

الفصل الثالث والعشرون

قابلته، وبمجرد أنْ رأته تذكرت يحيى، فيه الكثير من ملامحه، لكن تبدو شخصية شادي مختلفة عن ابن عمه، شخصية أكثر وقارًا، أكثر انضباطًا، نظراته خجولة يبدو أكثر وضوحًا، وأكثر نضجًا وأكثر هدوءًا.
رحب بها بابتسامة هادئة، وقال:

ـ أنا بشكرك جدًّا إنك جيت، أنا هقولك إيه اللي حصل بالضبط ليحيى، من حقك تعرفي كل حاجة.. متهيألي الوضوح أفضل واريح بكتير.

- هو انتهى من حياتي، أنا جاية فضول مش أكتر.

- يحيى كان راجع مصر فعلًا لكن.....

فقاطعته قائلة باستهزاء وسخرية:

ـ قابل ملكة جمال إنجلترا وطبعا ماينفعش يسيبها.

فقبض جبينه، وقال بمنتهى الجدية:

ـ يا ريت.

فقالت بعصبية بالغة:

ـ واضح إن مافيش حاجة تتقال.

ـ يحيى عمل حادثة كبيرة، حادثة موت، فعلا كونه لسه عايش دي معجزة.

فتغيرت ملامحها، وبدأت تتحدث بجدية واهتمام:

ـ حادثة! طيب وبعدين، ما هو بقا كويس بعدها ليه ماكلمنيش، ليه مارجعش؟!

ـ أنا قلت إن كونه لسه عايش دي معجزة، ماقلتش إنه كويس!

فتساءلت بلهفة، وترقب قائلة:

ـ يعني إيه، هو جرى له إيه؟!

ـ كانت حادثة كبيرة، غيبوبة ونزيف وكسور، كل دا عدى، لكن كان في مشكلة أو نقدر نقول عاهه مستديمة، بتر رجله الشمال.. يعني لغاية الركبة عشان تكون الصورة واضحة قدامك، كمان نوبات صرع، الحمد لله هو حاليًا ركب طرف صناعي ومتعايش مع الوضع الجديد، والصرع تحت السيطرة بالعلاج.

شعرت في لحظةٍ أنّ كلَّ ما حولها يدور، هل هذا معقول؟!

بعد كلِّ هذا يكون قلبها على صواب؟!

كانت ترى بقلبها الحقيقة التي لم ترَها عيناها، ولم تلمسها في واقعها. كم انتظرت وكم ظنّت أنّ هناك سرًّا كبيرًا يمنعه من العودة، وأنّه يومًا سيعود، ولكنّه كان مجرد إحساس تكذبه كل الحقائق وتنكره الأيام، حتى هو لو يقل أي شيء حينما حدثته وكأنّه وقف مع الأيام ضد قلبها، اندفعت دموعها تشكو ألمها فأدرك الدكتور شادي كل هذا، وقال بعطف:

ـ أنا مش جاي أضايقك ولا حتى عشان أخليكِ تتعاطفي مع يحيى، لأنه مش محتاج عطف ولا شفقة، هو مر بفترة من الاكتئاب وعدم التوازن ودا طبيعي، لكن في النهاية اتغلب على ظروفه وركز في الرسم وناجح جدًّا فيه وبقت له حياة هناك، وله معارف وأصحاب منبهرين بموهبته، ولكن عمره ما نسيكِ لحظة، ويمكن كل يوم بيحبك أكثر من اليوم اللي قبله.

ـ ليه بعد عني، ليه ماكلمنيش بعد الحادثة وهو عارف أنا قد إيه بحبه؟!

- عشان عارف قد إيه بتحبيه خاف عليكِ وخاف على نفسه.

ـ مش فاهمة.

ـ خاف إن مشاعرك تخليكِ تكملي معاه حياتك وبعد فترة تندمي على ارتباطك بيه ودا شيء صعب عليه جدًّا، خاف على حبك يتحول شفقة وعطف، وخاف على حبه ليكِ يموت لو شاف دا لحظة في عنيكِ، عشان كدا كان رافض إنك تعرفي أي حاجة، اختار إنه يبعد ويسيب الأيام تنسيكِ، ومش مهم تفكيرك ياخدك لفين، مش مهم تفتكري إنه خانك أو كان بيتسلى وعمره ما حبك، المهم إنك تبدئي حياة جديدة مع إنسان يقدر يسعدك.

-مش ممكن! يحيى فنان ازاي تصور سيناريو عمره ما هيحصل، ازاي قدر مايكلمنيش أكتر من سنتين؟!

- هو متابع كل أخبارك، في واحد بس من أصحابه هنا اللي يعرف بموضوع الحادثة، هو اللي بيطمنه عليكِ، عارف إنك بتشتغلي، وعارف إن رامي بيحبك، وهو شايف إن رامي إنسان ناجح وممتاز، ولو قارن نفسه برامي رامي أفضل.

فقالت بانفعال:

- مين قاله يقارن نفسه بحد، انا بحبه هو، أنا لما سمعت أغنيته ووصلت لتليفونه وكلمته كنت هموت ويقولي عذر واحد مقنع، سبب واحد يبعده عني، وعلى فكرة انا كنت هصدق أي سبب لأني عايزة أصدقه لأني بحبه، لأني معرفتش انساه ولا لحظة، بس ماقالش حاجه خالص، جنني، وجعني قوي وخلاني اقول كلام يوجعه قوي وأنا مش عارفة قد إيه أنا بعذبه.

وانهارت مرّةً أخرى بالبكاء، فقال:

ـ ممكن تهدي شوية؟ ماتنسيش إننا في مكان عام.

نظرت حولها ورأت العيون تلاحقها، فجففت دموعها وحاولت أنْ تتماسك وسرحت دقائق تتخيل كيف حال يحيى الآن، تحاول أنْ تتصور كيف مرت عليه كل هذه الظروف وهو وحيد، كم تألم وكم تعذب دون أن يحاول أنْ يشاركها شيئًا من عذابه وهو يظن أنّه يضحي من أجل سعادتها وهو لا يعلم

أنّ سعادتها بين يديه، بين يديه وحده! وكيف ظنّ أنّ النسيان يأتي طوعًا؟! وكأنّه شيء يباع ويشترى في المتاجر، كأنّ حبَّه تطبيقٌ على هاتفها تمحوه بلمسة بإصبعها! ألا يعلم أنّها حينما أحبته أصبح النظرة في عينيها، والنبض في عروقها، والهواء في وجودها، وكل العالم بالنسبة لها؟!

زرع العذاب في قلبها وهو يظن أنه يحميها، ويا لها من ظنون قتلتنا معًا أيها الحبيب!

وعادت من أفكارها على صوت شادي وهو يقول:

ـ ماتتخيليش مكالمتك عملت فيه إيه، دخل في حالة نفسية صعبة، خاصة لما عرف إنك دخلتِ المستشفى، كان هيتجنن من القلق عليكِ، حتى نوبات الصرع اتكررت معاه كذا مرة في الفترة دي، يمكن لما اتحسنتِ بدأ يهدأ ويرتاح شوية.

ـ بردو ماحاولش يكلمني.

- هو لسه مصمم إنه مابقاش الشخص الأفضل ليكِ، انا سمعت كلامك له لأنه سجل المكالمة وسمعهاني وهو متأثر جدًّا، لما قلتِ له بكرهك كانت قاسية عليه قوي، وبعدها قررت إنك لازم تعرفي كل حاجة، وانتِ اللي تاخدي القرار بنفسك.

ـ وليه دلوقتي بس قررت إنك تتدخل؟!

ـ لما سمعت كلامك في المكالمة، اتأكدت إنك عمرك ما نسيتيه، حتى كلمة بكرهك وانتِ بتقوليها مافيهاش كره قد ما فيها وجع، قلت لنفسي وليه العذاب دا كله ليكِ وله، كنت هكلمك لكن ربنا أراد إني أنزل مصر، أنا هنا في مصر بخطب أخت واحد زميلي بيشتغل معايا في إنجلترا، هي طبيبة بردو، اتعرفت عليها لما كانت في زيارة لأخوها وأعجبت بيها، وتكلمنا نت كتير وقررنا نتجوز، أنا راجع تاني بعد شهر أتجوز ويحيى هييجي معايا.

ـ شهر! لسه شهر؟!

ـ لازم تاخدي وقتك في التفكير وتقرري، وأسرتك تعرف ظروف يحيى الجديدة، أنا مش هقول ليحيى أي حاجة غير لما أعرف قرارك النهائي وهبعتلك صور ليحيى وبعض الفيديوهات ليه مع أصحابنا هناك، لازم وانتِ بتاخدي قرارك تكوني متخيلة يحيى وحياة يحيى الجديدة.

....

لم تتردد فريدة في أنْ تلقي بالخبر القنبلة أمام والدتها، حكت لها تفاصيل المقابلة، أخبرتها بسرِّ اختفائه، وصوتها مذبذب بين السعادة والألم والحزن تبتسم وتبكي في آن واحد. كانت والدتها تستمع إلى ما تقوله بذهول شديد تركتها تتحدث دون كلمة واحدة، اكتفت بنظرات الدهشة والاستغراب. قالت فريدة كل ما عندها، ثم صمتت وهي منتظرة رأي والدتها، منتظرة منها أنْ تفرح لها أنّ حبها لم ينته، ان حكايتها ما زالت حيّةً وستحيا طوال العمر، ولكن والدتها ما زالت لم تفق بعد من هذه الحكاية المدهشة، وبعد صمت طويل لامتها بغضبٍ بالغ أنّها قابلت الدكتور شادي دون علمها، اعتذرت فريدة، وقبلت رأسها، وطلبت منها أنْ تقدر موقفها، وتقبل اعتذارها، فصمتت الأم من جديد، بينما فريدة تنتظر مباركتها لها وموافقتها على ارتباطها بيحيى، ولكن كان لوالدتها رد فعل مختلف، إذ إنها قامت وتوجهت إلى غرفتها، قائلة:

ـ أنا داخلة أنام.

أدركت فريدة أنّ والدتها غير مرحبة بزواجها من يحيى، وإن لم تقلها صريحة ولكنّها فهمت هذا من نظرتها وتعبيرات وجهها التي لا تحتاج شرح، ولكن هي غير قلقة، إنّها تعلم كيف ستقنعها؛ ما زال أمامها وقت.

دخلت فريدة غرفتها، وخطرت على بالها السلسلة، السلسلة التي أهداها لها يحيى التي تحمل اسمه، فأخرجتها ولفتها حول عنقها، وظلّتْ تنظر لها طويلًا في المرآة، ثم جلست على فراشها والهاتف إلى جوارها، تترقب الصور التي سيرسلها لها شادي، ولم يطل انتظارها، وصلتها الصور والفيديوهات كما وعدها شادي. أخذت تشاهدها بكلِّ تركيز، كانت تراه بعينيها وتحضنه بقلبها، كم تشتاق إليه!

لم يتغير فيه شيء بالنسبة لها إلا حزن عينيه العميقتين، حتى ابتسامته تبدو زائفة ليست من القلب كما هي ابتسامتها بدونه، تبدو حياته بدونها كما هي حياتها بدونه بلا معنى، بلا روح، بلا هدف. قضت ليلتها كلها حتى الصباح تشاهد الصور والفيديوهات، تبكي وتضحك وتلومه وتعاتبه وتسانده وتقول له «أحبك» وكأنّه سيسمعها. ظلت هكذا إلى أنْ أرهقها السهر وغلبها النوم، فنامت والهاتف في يدها وصورته آخر ما رأت عيناها.

....

أفاقت من نومها على صوت علياء في الواحدة ظهرًا، تخبرها أنّ الدكتور عادل يريد أن يقابلها، ثم خرجت وتركتها تفيق. أدركت أنّ والدتها اشتكت له وجاءت به ليقنعها بأن تتزوّجَ رامي وتنسي يحيى. الجميع يرى النسيان أمرًا يسيرًا، ولا يعلمون أنّه أصعب ما تمنت، لا يعلمون أنّ طريق النسيان طويل قد ينتهي العمر قبل أنْ نظفرَ به. بدأت تستعد لمقابلة دكتور عادل، ولحوار متعب وجلسة نقاش شاقة جدًّا، ولكي تستمد طاقتها للدفاع عن حبِّها وحبيبها، أمسكت هاتفها لتنظر إلى صورته، لتقول له: أحبك كثيرًا، ويوم أنْ تعود ستعرف كم أحبك، يا من عذبتني دون أسباب، وقتلتني بالغياب!

تحدثت إلى صورته دقائق، ثم انتبهت إلى اتصالات كثيرة من رامي على هاتفها منذ الصباح، رامي الذي ينشغل بها عن نفسه، لا بد أنّه يريد الاطمئنان عليها لأنّها لم تذهب إلى العمل اليوم، لم تستطع أنْ تردَّ عليه، ماذا ستقول له؟ كيف تخبره بما علمت عن يحيى وأنّها لن تتخلى عنه؟

كيف تعامله بكلِّ هذه القسوة وهو الذي منحها كلَّ الحب، ولكن ماذا تملك له؟ قلبها ملك يحيي وما استطاعت أن تثنيه عن حبِّه في أصعب أيام البعد، اليوم تحب يحيى أكثرَ من أيِّ يوم مضى، يا لها من حيرة! كيف تقول له كل هذا دون أنْ تجرحه؟! سرحت طويلًا إلى أنْ انتبهت إلى والدتها تناديها، فخرجت للجلوس معهم، وفي عينيها تحدٍّ لا يقبل الهزيمة.

قابلها الدكتور عادل بابتسامة هادئة ونظرة حانية، بينما والدتها وعلياء كانتا تجلسان بجوار بعضهما، على ملامحهما الضيق نفسه، وفي عينيهما نظرة السخط نفسها، يجلسان الجلسة المتحفزة نفسها للهجوم والرفض، فجلست فريدة بهدوء وترقب، واستعداد لاستقبال اسهم النقد اللاذعة.

بدأت والدتها الحديث وطلبت منها أنْ تخبرَ دكتور عادل بما حدث، فابتسمت فريدة ونظرت إلى الدكتور عادل، قائلة:

ـ أنا عارفة إن حضرتك عرفت كل حاجة من ماما، انا من حقي أختار حياتي.. مش قادرة أكذب على نفسي، أنا بحب يحيى وعمري ما عرفت انساه.

- مش هتندمي يا بنتي؟! قرار زي دا محتاج تفكير، جايز يكون في مشاكل صحية تانية ومخبيين علينا.

- أنا واثقة إن الدكتور شادي قالي الحقيقة كاملة، حقيقة تخليني أحب يحيى أكتر وأتأكد إنه حبني أكتر من نفسه، يحيى مايعرفش إن ابن عمه كلمني لغاية دلوقتي.

ـ ورامي؟!

ـ بحترمه جدًّا، وله عندي مكانة كبيرة جدًّا، لو ليا أخ مش هحبه أكتر من رامي، لكن أنا عمري ما قدرت أحبه، ولا اشوفه زوج، رامي إنسان ممتاز وجايز من وجهة نظركم هو أفضل من يحيى ألف مرة، بس أنا مش بحسبها كدا، القلب وما يريد يا عمي.

فنظر الدكتور عادل إلى شريفة، وقال مبتسما:

ـ ربنا يسعدها يا شريفة مع الإنسان اللي بتحبه.

فقالت شريفة بانفعال:

ـ يعني إيه؟!

فردت فريدة بثقة:

ـ دا قراري يا ماما، أنا متمسكة بيحيى.

فقالت والدتها بانفعال:

ـ طب على الأقل ماتقوليش أي حاجة لرامي لحد ما نشوف حكاية يحيى، يمكن مايرجعش، يمكن في

حاجة تانية مانعرفهاش، يمكن لما تتكلمي معاه تلاقي شخصيته اتغيرت وتحسي إنك مش بتحبيه، حرام تخسري رامي، رامي إنسان واضح وماشفناش منه غير كل خير، حرام عليكِ يا بنتي.

واندمجت شريفة في بكاء شديد، فانتفض قلب فريدة وحاولت تهدئتها، ولكنّها شريفة غاضبة منها، وغير متقبلة منها أي كلام، فاغتاظت فريدة ودخلت غرفتها تشكو حالها لحالها.

لا أحدَ يفهمها، ولا أحد يدرك أنّ قلبها ليس بيدها، ولا من حقها أنْ تتلاعبَ بقلبِ غيرها، لا بد أنْ تخبر رامي بكلِّ ما حدث، وبقرارها النهائي، لقد ظلَّ ينتظر ويتقرب لها في غياب يحيى رغم أنّها كانت صريحة معه طوال الوقت، ولم تعده بقلبها وحبِّها، واليوم أصبح مستحيلًا أنْ تخفي الحقيقة عن رامي، ستخبره بكلِّ شيء وسيبقى صديقًا عزيزًا لا ينقص شيئًا من مكانته في قلبها وفي حياتها، المهم أنْ يستطعَ هو تجاوز كلّ هذا، وأنْ يقبَلَها في حياته مجرد صديقة أو على الأقل أن يسامحها ويتفهم مشاعرها.

فإذا بها تطلب رامي هاتفيًّا، كعادته ردَّ عليها بحنان بالغ فطلبت لقاءه، وتقابلا في مساء اليوم التالي، وأخبرته بكلِّ ما علمته عن يحيى. كان ينظر إليها باندهاش وكأنّه لا يصدق ما تقول، كيف يعودُ يحيى بعدَ كلِّ هذا الغيابِ؟! يتأملها وهي تحكي عنه فرأى السعادةَ تتراقصُ في عينيها وهي تخبره بعودةِ يحيى، كأنّ العالم بكلِّ ما فيه أصبح ملك يديها، وشفتيها تزداد احمرارًا وإثارة، وهي تنطق حروف اسمه، كل تفصيله في ملامحها تعزف لحن السعادة، فتبدلت دهشته إلى خيبة أمل لم يعد يتأملها ولا ينظر لها، اكتفى بالاستماع، كان يستمع إلى كلماتها المجاملة الرقيقة له، وهي تؤكد له أنّه أكثر من أخٍ، وأعز صديق، كلمات تحاول بها أنْ تخفف عنه شعوره بفقدان الأمل وضياع الحب، ولكن في الجلسة نفسها اعترف لقلبه أنّه هو من ظلَّ يلهث طويلًا خلفَ حبٍّ يائس، حب من طرف واحد، ابتسم ابتسامة رزينة حزينة، وتمنى لها التوفيق والسعادة مع من تحب، وانهى المقابلة فما عاد هناك ما يقال.

....

الفصل الرابع والعشرون

الوحدة قاسية ولم يكن يؤنسه فيها إلا ذكرياته معها، ما زالت كل أيامهما معا حاضرة في قلبه، وعقله كأنّها كانت بالأمس، لا يكف عن رسمها بألوان أشواقه وحنانه، كلما استبد به الحنين رسم لها لوحة، كلما استقوى عليه الشوق عزف لها لحنًا من أشواقه الثائرة وحبه العنيد، كلما اشتاق أكثر ردّدَ اسمها بين شفتيه، وقال: أحبك. هي لن تسمعها، ولكنّه يسمعها لقلبه المعذب، يسمعها لروحه الحائرة، فحبها العذاب الذي لا يمله والطريق الذي لا يضله، والنور الذي يحيا عليه في أيامه المظلمة، لقد وعدها أنْ ينجحَ لهذا أصرَّ على النجاح، استطاع أنْ ينجحَ هنا، ولكن لا قيمة للنجاح وهي بعيدة عنه، لا قيمة لحياة هي ليست فيها إلى جواره، لا شيء يسعده، كان يرى نجاحه في عينيها وحياته بين يديها، منذ أن عرفها وكل شيء في حياته صار معلقًا بها، فلم يبقَ له الآن إلا الذكريات، لهذا يرويها بعشقه وفنّه لتظل حيّة في قلبه ما دام ينبض، سيظل قلبه ملكها لآخر يوم في عمره كما وعدها، فلن يخلف وعده معها أبدًا.

تلقى يحيى اتصالًا هاتفيًّا من رقم لا يعرفه، إنه من مصر، هل تكون هي؟! هل فريدة تريد أنْ تقول له مرة أخرى أكرهك؟

ربما تكون هي وهو غير قادر على تحمل تلك الكلمة منها مرة أخرى، ولا يظن أنّه أنْ سمعَ صوتها مرّة أخرى سيظل صامتًا، هي لا تعلم كم قتله صمته قبل أن يقتلها هي لا تعلم شيئًا ولا يريدها أن تعلم شيئًا، لا يريد لها إلا حياة جديدة بحب جديد ولكن ما زال الهاتف يضج بإصرار وإلحاح، ترى من؟

فاضطر أن يرد، فتح المكالمة دون أنْ يتكلّم وانتظر الطرف الآخر يبدأ المحادثة ليعلم من معه، فإذا بصوت رخيم لشخصية رزينة يسأل مستفسرًا:

ـ السلام عليكم أستاذ يحيى.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ـ أنا رامي، يا ترى حضرتك فاكرني؟

اضطربت أفكاره وارتعشت يده، وقال بارتباك:

ـ متأسف، لو ممكن حضرتك تفكرني؟

ـ أستاذ يحيى، أنا مش هطول على حضرتك، أنا متأكد إنك فاكرني، عايز أقولك إن فريدة بتحبك، وبعد ما عرفت كل حاجة عنك وعن غيابك بتحبك أكثر، أنا مش هنكر إني حبيتها ولسه بحبها، لكن هي عمرها ما حبتني، يا ريت تقدر الحب دا وترجع.

كانت كلمات رامي مفاجأة غير متوقعة، كان يستمع له وقلبه يخفق وعقله يتساءل ومشاعره تشتعل، فقال باهتمام:

ـ عرفت إيه وازاي؟

ـ الدكتور شادي قابلها وحكى لها كل حاجة، متهيألي مابقاش في سبب ولا معنى لغربتك، هي محتاجالك وانت كمان محتاجلها.

- غريب قوي إنك مهتم برجوعي، مع إنك بتقول إنك بتحبها!

ـ بالعكس، حبي ليها يخليني أدور على سعادتها وأنا عارف إنّها هتكون سعيدة معاك.. خلي بالك منها، مع السلامة.

....

لم تتردد فريدة أنْ تكتبَ ردَّها النهائي في رسالة هاتفية للدكتور شادي، إنّها لن تنتظر ولن تحتاج إلى تفكير، لقد اتخذت قرارها منذ أول دقيقة علمت بها الحقيقة، ولن تسمح لحبيبها أنْ يهرب منها مرّةً أخرى، فكتبت للدكتور شادي رسالتها:

تحياتي إليك..

أظنك تنتظر قراري النهائي، ولكن في الحقيقة أنا من ينتظر ويعد الأيام لحظة بلحظة في انتظار عودة يحيى، لو بيدي لطويت الأيام كلَّها في لحظة واحدة ليعود. قراري أنت تعرفه وهو أيضًا يعرفه، ولكن ما زال حبيبي مجنونًا، نعم مجنون، وأقولها له يوم أنْ ألقاه، مجنون في أفكاره، مجنون في قراره ومستبد في رأيه إلى درجة القهر، ولكنّه قلبي الذي ينبض، وروحي التي تحيا وعالمي الذي لا أرضى عنه بديلًا، أحبه بكلِّ جنونه وحنانه واستبداده، وأنا على عهد حبنا ما حييت.. أنتظر منك أنْ تبلغني بموعد العودة.

كتبت الرسالة وأرسلتها، ثم دخلت إلى والدتها الغاضبة في حجرتها تحاول إقناعها بموقفها وهى على يقين أنّ شريفة في النهاية ستوافق؛ لأنّها لا تبحث إلا عن سعادتها، فكانت والدتها أكثر هدوءًا من ذي قبل، ربما سمعتها بالقلب ولم تحسب الأمر بعقلها كثيرًا كما اعتادت. ابتسمت والدتها وتمنّت لها أن يريح الله قلبها ويجمعها بمن تحب.

....

جاء الدكتور شادي لزيارةِ ابنِ عمّهِ بعد أنْ استقبلَ منه مكالمةً انفعاليّةً غاضبة يوبّخه فيها؛ لأنّه تصرف في حياته الشخصية بدون استئذان. جلس شادي بجوار يحيى وتركه ينفعل ويقول ما يريد، ظلَّ شادي يستمع إليه وهو يرمقه بنظرة هادئة، ويرسم على شفتيه ابتسامة باردة كانت تثير عصبية يحيى أكثر، ولما طالت وصلة التوبيخ، قال شادي بملل:

ـ أنا هعمل قهوة.. أعملك معايا؟

فنظر إليه يحيى بغضب، وقال:

ـ أحسن حاجة تعملها حالًا إنك تمشي من وشي.

- طيب، أمشي؟

فهم أنْ يغادر فاستوقفه يحيى قائلًا بانفعال:

ـ استنى هنا ،انت لازم تقولي على كلِّ كلمة قلتها لفريدة وتقولي هي قالتلك إيه بالضبط.

ـ مش انت مضايق إني قابلتها وتدخلت في حياتك؟ أنا آسف واعتبر إني ماقلتش حاجة.. أنا هبعتلها رسالة أخلصلك الموضوع دا.

فصمت يحيى قليلا، ثم قال:

ـ هتقولها إيه؟

- طالما مش عايز ترجعلها، أقولها إني رجعت إنجلترا لقيته اتجوز، وكدا نبقا قفلنا الباب دا.

ـ انت مجنون؟! اوعى تعمل كدا.

ـ أنا بردو المجنون؟! انت اللي مجنون وستين مجنون!

فقال يحيى بحزن بالغ وانكسار:

ـ أنا مش عايز اظلمها وخايف، خايف تندم على ارتباطها بيا.

فابتسم شادي، وقال:

- أنا قلت لها كل حكايتك بكل أمانة، وبعتلها صور ليك عشان تشوف يحيى دلوقتي بقا ازاي، وقلت لها هستنى موقفها النهائي بعد شهر، دا اللي كان المفروض يتعمل من زمان، وبكل صراحة أنا ندمان إني ماعملتش كدا من يوم الحادثة، وأقولك على حاجة كمان لو زعلان ازعل براحتك اتفلق.

فنظر إليه يحيى وحيرته تغلب عليه، ومشاعره ممزقة وأفكاره منقسمة بين العودة والهروب، لا يعلم أيفر منها أم إليها!

أدرك شادي حيرته، فقال له بإشفاق وهدوء:

ـ أنا هروح أعمل اتنين قهوة وأرجع أقولك على كل كلمة قلناها وأقولك كمان هي بعتت رسالة النهاردا بتقولي إيه.

....

مرّ على رسالتها لشادي عشرون يومًا، ولم يرد عليها بشيء، ما زالت تنتظر وكأنّ الزمن توقف عند هذا الموعد، موعد عودة يحيى، ليس هناك ما يشغلها عنه أبدًا حتى عملها، تقدمت بإجازة شهرًا؛ أرادت أنْ تبعد عن رامي قليلًا وتمنحه فرصة النسيان، وربما لأنّها لا تقوى على تحمل تلك النظرة الحانية التي في عينيه، ما كانت أبدًا نظرته معاتبة ولا لائمة، لا يملك لها إلا الحب والحنان، ولا تملك له إلا احترامًا فائقًا وتقديرًا بالغًا، هو أيضًا يحاول أنْ ينسى، كف عن الاتصالات والرسائل، لقد احترم موقفها وقرارها ولم يحاول قطُّ أنْ يتصدى له ولو بنظرة عتاب، إنه شخص مثالي إلى درجة لا تصدق ويومًا ما سيرزقه الله بمن تستحق كل هذه المثالية والرومانسية.

أرهقها الانتظار، وأتعبتها الأفكار والأيام تمضي متباطئة، وما زال البعد يخنقها بلا رحمة، إلى أنْ جاءها اتصال هاتفي من الدكتور عادل، وطلب منها أنْ تمرَّ عليه في منزله لأمر ضروري، وطلب منها ألا تخبر والدتها. استعدت فريدة، وقالت لوالدتها إنّها ستشتري بعض الأغراض ثم تعود.. وذهبت إلى منزل الدكتور عادل وهي تفكر فيما يريد، وما الأمر الهام الذي سيحدثها عنه، وبعد تفكير طول الطريق وجدت أنّ الأمر الهام لن يخرج عن موضوعين لا ثالث لهما، إما زواجه من والدتها، أو يكون الأمر له علاقة برامي، ترى ماذا أصاب رامي؟ انتابها بعض القلق عليه، ودعت الله أنْ يكونَ الموضوع الأول هو موضوع الحوار. وصلت إليه، استقبلها بابتسامة عريضة كان متفائلًا مشرقًا، فارتاح قلبها بعض الشيء، وابتسمت وقالت:

-خير يا عمي؟ انت جايبني كدا من غير ما تفهمني في إيه، قلقتني عليك!

-أنا كويس جدًّا ماتقلقيش.

-طب في إيه، وليه قلت لي ما أقولش لماما إني جاية؟!

-عشان عصبية وهي قافلة شوية من الموضوع دا.

ابتسمت وقالت مازحة:

ـ سيبها عليّ، إن شاء الله هجوزهالك، هي دماغها ناشفة شوية بس مش هنلاقي لبنتنا عريس أحسن منك.

ـ إن شاء الله بس بعد ما أفرح بيكِ انتِ الأول، المهم.. تشربي قهوة؟

- أشرب قهوة.

دخل الدكتور عادل لتحضير مشروب القهوة، وجلست هي تقلب في هاتفها إلى أنْ دقَّ جرس الباب، فنادى عليها الدكتور عادل، وطلب منها أنْ تفتح الباب.. فتوجهت إلى باب الشقة وفتحت الباب، فاحتبست أنفاسها وتسمرت قدماها وشلت المفاجأة تفكيرها، عيناها تبكي وشفتاها تبتسم، فوقفت مكانها وتوقف معها الزمن عند تلك اللحظة، أهي يقظة أم يخيل إليها؟!

فتقدم الطارق نحوها بخطى بطيئة ثقيلة متأرجحة بين ساقه اليمنى وطرف صناعي، خطى تكشف معاناته مع الواقع الجديد، وعيناه تعزفها لحن الحب الذي لا يموت ونظراته العاشقة تحكي ألف كلمة عشق رغم السكوت، اقترب حتى تلاشت بينهما المسافات، وراح بكفِّه يمسح دموعها، وقال بهمس:

ـ مش عارف أقولك وحشتيني، ولا بحبك، ولا أنا آسف، أنا جوايا كلام كتير ومتلخبط.

- احضني يا يحيى.

ارتاحت في حضنه في استسلام، لعلّها تريد التأكد أنها تراه في الحقيقة، سنوات الفراق انتهت بلا رجعة، فذابت في حضنه وكلاهما صامت، وذابت بينهما الكلمات، واختلطت دقات قلبيهما فأصبحا في هذه اللحظة يشعران أنّهما قلب واحد وروح واحدة. مرت دقائق، وهي مرتاحة في حضنه، ودموعها تجري على كتفه، فقال برقة وحنان:

ـ بلاش دموع تاني.. أرجوكِ.

فرفعت رأسها ونظرت إليه معاتبة:

ـ في دموع كتير ماشفتهاش يا يحيى!

-بس حسيتها.

-لو كنت حسيتها كنت رجعت.

-خفت ارجع، خفت حبك يبقى شفقة، خفت أظلمك معايا.

-يا ريت كل الظلم إني أكون معاك.

-يعني أنا في عينيكِ زي ما أنا؟

-بحبك يا يحيى.

فأقبل الدكتور عادل، و قال مبتهجًا:

ـ حمد لله على السلامة يا يحيى، فرحتي بيكم النهاردا ما تتوصفش، اقعدوا يا ولاد واقفين ليه، انا هعملكم أحلى عصير وهتتغدوا معايا النهاردا.

جلسا معًا بجوار بعضهما، وفي العيون أشواق لا توصف، وابتسامات تضمد جراح الفراق القاسية، كل منهما يتأمل الآخر، ويحضن ملامحه بنظرات عاشقة....

حكى لها بعضًا من معاناته بعد الحادثة، بعضًا من آلامه في رحلة العلاج والتعامل مع ظروفه الجديدة، وواقعه الصعب. لم يسرد أيام عذابه طويلًا، كان ألمه فيها أكبر من أنْ يوصف بكلمات، وربما لأنّه نسيها كلها حينما نظر في عينيها وارتاح دقائق في حضنها، فقُرْبُها دقائق معدودة كافيًا ليمحو أوجاع سنين طويلة، ثم ابتسم وأخبرها كيف أنّها هي من أنقذته من الضياع والإحباط بعد بتر ساقه، لقد تذكر وعده لها بأن ينجح؛ فقرر أنْ ينجحَ، وانكب على لوحاته وألوانه يرسم ليلًا ونهارًا بعزيمة وإصرار، وشادي يسانده ويدله على طريق النجاح إلى أنْ تحققَ الأمل وأصبحت لوحاته تباع بمبالغ كبيرة هناك، ولكن هذا النجاح لم يمح عذابه، ولم يعوضه حرمانه منها قطُّ؛ فمضت أيامه متشابهة، وحياته باردة وقلبه حزينًا رغم هذا النجاح، ثم أخبرها بلحظة التحول في حياته، أخبرها يحيى بمكالمة رامي له، وكيف استقبلها بغضب ورضا، بحزن وسعادة، بمشاعر متضاربة لا توصف بكلمات، وكيف كان سجينًا بين حبّه وخوفه، ولكن في النهاية اتخذ القرار، وعاد إلى حبّه، واستطرد في حديثه لها عن أحواله بعد العودة، كيف قضى ليلته الأولى في الفيلا، واستعاد كل ذكرياته مع والده وليالي حبه الطويلة هنا بين لقاء وهجر وعناد. حكى لها أنّه حينما عاد إلى مصر لم يعرف كيف يقابلها، هل يزورها في بيتهم؟ هل يحدد معها موعد لقاء في أي مكان؟ وفي وسط كل تلك الحيرة كانت تتملكه مشاعر الرهبة، إن شدة الاشتياق إلى لحظة معينة في العمر تمنحها صبغة من الرهبة والمهابة، لحظة لقائها هي اللحظة الأروع في عمره، وأراد أنْ يستشعرها بكلِّ جمالها وجلالها وحلاوتها وخطرت على باله فكرة غريبة، أن يذهب على الفور إلى الدكتور عادل، ويطلب منه أنْ يساعده، أن يسانده أمام والدتها، وكانت فكرة اللقاء هنا في بيت الدكتور هي فكرة دكتور عادل البديعة.

استمعت إليه وعيناها تتأملانه بانبهار ولهفة وتدقيق في كلِّ التفاصيل، في كل ملامحه، في نبرة صوته، في ابتسامته، في لهفته، في حركة يديه، من شدة التركيز في التفاصيل لم تعد تشاركه الحديث، مستمعة فقط كأنّها تستمع إلى معزوفة موسيقية بديعة، أو أغنية حالمة ذابت كل أحاسيسها بين كلماتها!

فتساءل بلهفة:

ـ حبيبتي، انا عمال اتكلم أتكلم وانتي بتسمعيني، احكيلي عنك، أنا عايز أسمعك.

- مافيش حاجة أحكيها عني، شادي قالي إنك عارف كل أخباري، في الوقت اللي كنت هموت وأعرف أي حاجة عنك!

- فريدة، أنا بعد الحادثة أخدت فترة كبيرة في حالة عدم توازن نفسي، مش مستوعب اللي انا فيه، والله جت عليّ أوقات كتير كنت حاسس إني لو مت كان افضل ليا، عارفة يا فريدة.. دايمًا شايفك كتير عليّ، لما حصل اللي حصل بقا جوايا يقين إنه ماينفعش أرجعلك ولا أتجوزك خصوصا إني لما ابتديت أتصالح مع ظروفي، كان رامي بيقرب منك، خفت تكوني بدأتِ تحبيه وأظهر فجأة أقلب كل حياتك، فريدة عارف إنك صعب تفهمي حالتي ولخبطتي دي بس والله دا اللي حصل، وفي كل اللي جرالي دا اتغيرت ظروفي وأحوالي وصحتي، لكن اللي ماتغيرش فيا إني بحبك.

- بحبك، عمري ما نسيتك ثانية، ولا عرفت أحس بحد غيرك، ولا عرفت أشوف الدنيا إلا بعنيك، من يوم ما قابلت شادي وأنا حاسة إن روحي رجعتلي لكن بردو كنت خايفة، خايفة ماترجعش مصر، خايفة ماتجيش فرح ابن عمك.. كنت خايفة تعرف إن شادي كلمني تهرب منه ومني، كنت خايفة ان فراقنا يبقى مالوش آخر، ياه على الخوف وعذابه! خوفي إنك تضيع مني تاني مايقلش عن عذابي وانت بعيد، ومش عارفه إيه جرالك، أنا لغاية دلوقتي مش مصدقة إنك هنا معايا!

- لما رامي كلمني وقالي إن عمرك ما حبتيه وشادي حكالي كل اللي حصل بينكم وقالي آخر رسالة بعتيها له وفيها قرارك، لقيتني مش قادر أفضل بعيد ثانية، كان لازم أرجع، مش بس عشان أرجعلك، عشان أرجعلي وارجع أعيش وأحس الأيام والدنيا، من غيرك كل حياتي مالهاش معنى، ولا فيها روح.

ـ ازاي كنت أقوى من حبك ليّ المدة الطويلة دي؟!

ازاي قدرت ماتردش عليّ لما كلمتك؟! أنا اتهيألي إنك سِبت التليفون وماسمعتش ولا كلمة، جبت القوة دي منين؟!

- مش قوة، دا منتهى الضعف ومنتهى الخوف، كنت أضعف من إني أقولك بحبك ومحتاجلك، لما كلمتيني حسيت قد إيه أنا عذبتك وعذبت نفسي، بس بردو إحساسي بعجزي كان أقوى من إني أقولك الحقيقة، أنا قلبي كان هيقف وأنا بسمعك، سكوتي ماكانش قوة، أنا ما أعرفتش أقولك إيه، أقولك الحقيقة ولا أمثل إني نسيتك، لا قدرت أقولك بحبك ولا قدرت أمثل إني نسيتك، سكت، بس كنت بموت وأنا بسمعك.

أقبل الدكتور عادل بالعصير، وقال:

ـ تحبوا نتغدى إيه؟

فقالت فريدة:

أنا اتأخرت على ماما، ولازم أرجع ومش عارفة أقولها ولا لأ يا عمو.

ـ قوليلها وأنا جاي بالليل أتكلم معاها، ونحدد معاد يحيى ييجي البيت.

ـ طيب.. أنا مضطرة أمشي.

فقال الدكتور عادل:

ـ خلاص يا حبيبتي، يبقى يحيى يقعد نتغدى سوا ونتكلم شوية.

وقفت فريدة وعلقت حقيبتها، فقام يحيى وقال:

لما توصلي تطمنيني عليكِ، وأكلمك بالليل.

-أنا مش معايا رقمك يا يحيى.

-أرن عليكِ حالا، على الرقم القديم ولا الرقم بتاع أنا بكرهك؟

-الرقم القديم بتاع بحبك.

وسارا معًا نحو باب الشقة، وقبل أنْ تغادر نظرت في عينيه طويلًا، ثم قالت:

ـ يحيى، أنا خايفة.

ـ من إيه؟!

ـ مابقاش في حاجة بتخوفني إلا الفراق.

ـ أوعدك مش هنفترق تاني أبدًا.

الفصل الخامس والعشرون

عادت إلى البيت بوجهٍ مشرق، وروح مرحة مبتهجة، وقلب يضم كلّ سعادة الوجود بين دقاته... صوتها يشدو كلَّ ألحان السعادة مع كلِّ حرفٍ تنطقه، وتساءلت والدتها عن سرِّ فرحتها، فأخبرتها فريدة بأنها قابلت يحيى، قابلته وجهًا لوجه، لقد عاد وعادت معه الحياة والسعادة والحب، ووالدتها تستمع في صمت رهيب، المفاجأة واضحة على ملامحها. سرحت «شريفة» في حياة ابنتها مع يحيى، وفكرت في حياتها بدونه، وسرحت بخيالها أكثر وتخيلت لو كانت «فريدة» أحبت «رامي» الصحفي الإعلامي الناجح، الشخصية الواضحة المنضبطة في كلِّ تصرفاتها.. الشاب المهذب المخلص العاشق، لكن لا فائدة؛ فريدة لن تتخلى عن يحيى ولا عن حبها له، ظلت تستمع إلى ابنتها في صمت شديد، أمَّا فريدة كانت تترقب ردّها، فصمتت لتستمع منها كيف ستشاركها الفرحة، ولكنّها لم تتكلم؛ فقالت فريدة:

ـ مالك يا ماما.. مش فرحانة لي؟!

- لما أقعد معاه وأشوف ظروفه إيه وناوي علي إيه، ولا هو فاكر إنه هيتجوزك من غير شبكة ومهر وفرح!

- عشان خاطري يا ماما ماتزعلهوش، أرجوكِ.. أنا مش عايزة حاجة غير حبه.. دا عندي بالدنيا.

فنظرت إليها باستياء وقالت ساخرة:

ـ صحيح والله.. مراية الحب عمياء.

....

في المساء زار الدكتور عادل شريفة، وأخبرها بما دار في جلسته مع يحيى، شعر الدكتور عادل أنّها غير متفائلة، وغير راضية؛ فسألها باستغراب:

- مش مبسوطة، ولا أنا متهيألي؟!

- أنا مش مطمنة، يا ترى هو هيقدر كل الحب دا؟! احنا لغاية دلوقتي ماشوفناش منه غير وجع القلب.

- اطمني.. هو بيحبها قد ما بتحبه وأكثر، لو تشوفي فرحتهم ببعض كانت ازاي النهاردا.. أنا فرحان ليهم.

- طيب هو هيشتغل إيه يعني؟

- رسام وملحن، ما شاء الله دا ملحن عظيم بيفكرني بالملحنين الكبار، وان شاء الله هيبقى ملحن مصر الأول.

- ولو مابقاش؟!

- يا الله! إيه التشاؤم دا، بكرة لما تقابليه هتطمني خالص.

وانقضت الليلة، وجاء موعد المقابلة بين يحيى وعائلة فريدة في حضور دكتور عادل. استقبلته شريفة باهتمام وترحاب، ولم تستطع أنْ تمنع نفسها بين الحين والآخر من النظر إلى الطرف الصناعي، ولاحظ ذلك يحيى وما استطاع أن يحدد إن كانت نظرة شفقة أم استياء، ولكن تلك النظرة انتقصت من بهجة قلبه وقلصت ابتسامته منذ أول دقائق في الجلسة. بدأ الدكتور عادل يدير الجلسة ويضفي روح المرح والبهجة على الحوار، بينما يحيى تحدث بجديّةٍ شديدة موجّهًا حديثه إلى والدة فريدة.. عن مستقبله، وعن تحضيره للعديد من الألحان الجديدة التي اتفق عليها مع بعض شركات الإنتاج، التي يتوقع أنْ يكون لها تأثير كبير في مستقبله الفني، وأنه لن ينسى الرسم ولن يهمله، وسيكمل مشواره فيه جنبًا إلى جنب مع الألحان، وأبدى منتهى سعادته لو وافقت على ارتباطه بحبيبة العمر فريدة. بدأت ملامح شريفة يبدو عليها شيء من الارتياح، وبدأت تتحدث في التفاصيل.. عن المهر والشبكة وعش الزوجية، وبدأ يتدخل في الحوار الدكتور عادل، واتفقوا على كلِّ شيء، وفريدة تراقب من بعيد كيف

تدار الجلسة، وكيف يسير الحوار، وقرأت الفاتحة، وبعدها بدأ الخلاف، والدة فريدة تريد حفلًا كبيرًا في الخطبة وحفل أكبر في الزفاف، أما يحيى مصمم على أنْ تكونَ الخطبة عائلية، بينما الحفل الكبير في الزفاف الذي يريده سريعًا جدًّا، فانضم الدكتور عادل إلى رأي يحيى، وطالب أن نحتكم إلى رأي العروس، فكان رأي فريدة متفقًا مع رأي الدكتور عادل ويحيى، فاضطرت شريفة أنْ توافق على مضد، ثم قامت لتحضير العشاء، بينما قام الدكتور عادل لإجراء مكالمة تليفونية هامة، وجلست فريدة إلى جوار يحيى الذي كان سارحًا بعض الشيء مما أثار قلقها، فتسائلت باهتمام بالغ:

ـ مالك يا يحيى.. انتَ مش مبسوط ولا إيه؟!

فابتسم قائلًا:

ـ طبعا مبسوط يا حبيبتي، ليه بتقولي كدا؟

ـ حسيت كدا؟

ـ انتِ مبسوطة يا فريدة؟

ـ أكيد يا يحيى.

ـ والدتك مش موافقة.. مش كدا؟

ـ ماما موافقة يا يحيى.. انتَ اتفقت على كلِّ حاجة معاها .. ليه بتقول كدا؟!

ـ يعني ... عنيها كانت في اتجاه واحد أغلب الوقت.. تقريبا مش شايفة فيا غير رجلي المقطوعة.

ـ يحيى، انتَ حساس يا حبيبي شوية، أكيد ماما ماتقصدش، في النهاية انتَ هتتجوزني أنا.

ـ أنا كان ليا طلب، ويا ريت متضايقيش.

متهيألي ماينفعش تشتغلي في الجريدة تاني ولا إيه؟

ـ حاضر يا حبيبي.

فتهلل وجهه، وقال:

ـ حاضر كدا من غير نقاش، يعني مش مضايقة؟

- أنا كنت هسيب الشغل دا من غير ما تطلب.

- عارفة يا فريدة.. انتِ وجودك في حياتي أكبر نعمة.

....

وتمت الخطبة العائلية كما أراد يحيى، وقدّم لها شبكة ثمينة أبهرت الجميع، وبدأ علي الفور في تجهيز الفيلا وإضافة لمسات جمالية عليها وتغيير بعض الأثاث، وكانت فريدة صاحبة القرار والاختيار في كلِّ هذه التجهيزات، كانا يتقابلان يوميًّا إلى أنْ عاد الدكتور «شادي» وبدأ يحيى ينشغل مع ابن عمه بعض الشيء، وجاء موعد حفل زفاف الدكتور شادي. كان حفلًا كبيرًا مكتظًّا بالحضور. هنّأ يحيى وخطيبته العروسين وجلسا معًا. كانت فريدة تتابع الحفل وهي مرحة سعيدة، بينما يحيى سارح يبدو مهمومًا بعض الشيء، كلما تحدثت إليه تشعر أنّه ليس معها، يرد عليها بإيماء الرأس أو نظرة تائهة وهي لا تفهم ماذا أصابه، فسألته بقلق:

ـ في إيه يا يحيى؟ انتَ مش معايا خالص!

- مفيش.

- لا، في حاجة مضايقاك.

فردَّ عليها بانفعال بالغ:

ـ قلت مافيش.. ليه الأسئلة الكتير؟!

تفاجأت من هذه العصبية الزائدة، فنظرت إليه باستغراب ثم صمتت.

عادت تتابع الحفل بعقلٍ شاردٍ وقلب منقبض، فانتبهت إليه يقول بصوت هامس:

ـ أنا آسف، أنا بقالي كتير مش واخد على الدوشة والتجمعات والناس، مش قادر أكمل.. أنا عايز أمشي.

غادرًا معًا الحفل، وكلاهما شارد. عادت فريدة إلى البيت حائرة، وكعادتها التزمت حجرتها تفكر وحدها، وتتذكر كلَّ موقفٍ مرّ عليهما في الحفل، كلَّ تصرف فعلته لعلّها تعرف ما يضايقه...

وبينما هي تفكر فيه ومنشغلة عن نفسها به، إذا به يطلبها، فقال لها بصوت مختنق:

ـ أنا آسف يا حبيبتي.

ـ خلاص يا يحيى.. ماحصلش حاجة.

ـ مش زعلانة؟

ـ لا.

ـ بس أنا زعلان من نفسي أوي إني كنت سخيف وعصبي ومسيبتكش تنبسطي.

ـ بالعكس.. أنا كمان ماليش خالص في الحفلات.

ـ طيب يا روحي تصبحي على خير.

ـ مش عايز تقولي حاجة يا يحيى؟

ـ أنا...... بحبك قوي يا فريدة.

....

وتمر الأيام وكلما اقترب موعد الزفاف ازداد يحيى عصبية وتوترًا وانفعالًا على أتفه الأسباب وربما بدون أسباب! أصبح الأمر أكبر من تحملها، وما عادت تستطيع تخطي كلّ هذا دون أنْ تفهم، كل مرة ينفعل ويغضب ويعتذر بشدة كأنّه يخشى أنْ يفقدها، وهي لا تفهم شيئًا، ما الذي يثير انفعاله وغضبه، كل

مرة تقبل اعتذاره وتغمض عينيها عن سبب انفعاله، ولكن الأمر أصبح يتكرر في المكالمة مرات ومرات وفي اللقاء مرات ومرات، ربما حتى أثناء الاعتذار يثور ويغضب ويعاود الاعتذار وهي ما زالت في حالة ذهول، إلى أنْ قرّرَت أنْ تواجهه فطلبت منه أنْ يتقابلا، وجاء موعد اللقاء، وفي عينيه قلق، وعلى ملامحه توتر إذ كانت عيناها لا تخفي ضيقها وحيرتها... لم تطل حيرته، فقالت:

ـ يحيى، أنا عايزة أفهم في إيه، انتَ مش انت!

- ازاي؟

ـ على طول منفعل وعصبي مع إن المفروض إنك تكون سعيد إن فرحنا بيقرب وفاضل أيام ونكون في بيت واحد.. أنا مش لاقية تفسير نهائي لعصبيتك ومزاجك اللي بيتغير من النقيض للنقيض في أقل من ثانية، غير حاجة من اتنين إن في حاجة في حياتك أنا ما أعرفهاش أو إنك.....

ثم صمتت، فتسائل:

ـ إني إيه؟!

ـ يحيى، لو في حاجة أنا عملتها ضايقتك قل لي.. عاتبني، حتى لو مش عايز تتجوزني بردو قولي.

- معقول يا فريدة تفكري كدا.. أنا مش عايز أتجوزك؟! انتِ الأمل الوحيد اللي مخليني ماسك في الدنيا لغايه دلوقتي.. أنا عايز أتجوزك امبارح، امبارح إيه.. دا من كام سنة، ماتقوليش الكلمة دي أبدًا، ليه الأفكار الغريبة دي.

ـ طيب في إيه؟!

ـ فريدة، أنا هتكلم معاكِ بصراحة، موضوع الفرح والناس قلقني شوية، انا حاسس إن كل الناس هتبصلك ويبصولي في الفرح ويقولوا يا حرام.. ازاي القمر دي تتجوز واحد زي دا؟!

- أوعى تقول كدا تاني.. يا يحيى، كل الناس هتبقى فرحانة بينا.

- بس أنا شفت نظرات الناس لما كنا في فرح شادي، ومن يومها بفكر في يوم فرحنا.

ـ خلاص، أنا مش عايزة فرح.

ـ لا يا حبيبتي، مش ممكن أحرمك من الفرحة.

- أنا مش هفرح وانتَ متضايق يا يحيى، نعمل حفلة عائلية زي الخطوبة وألبس فستان فرح.

ـ مش ممكن، طنط شريفة ممكن تفسخ الخطوبة لو طلبنا طلب زي دا.

ـ سيب ماما عليّ.

ـ لا يا فريدة.. هنعمل فرح وأنا خلاص حجزت وهيبقى فرح زي ما بتحلمي وإن شاء الله على يوم الفرح هكون حليت المشكلة مع نفسي، أنا ماكنتش هقولك حاجة زي كدا، بس لما تفكيرك راح لبعيد أجبرتيني إني أفضفض معاكِ.. مجرد فضفضة والله.. أنا كل اللي عايزه منك تتحمليني شوية، وأرجوكِ ماتشكيش في حبي ليكِ ولا ثانية.

....

تواصلت فريدة مع الدكتور عادل، وطلبت منه أنْ يقنعَ والدتها بالتنازل عن حفل الزفاف. استغرب الدكتور عادل من طلبها، وطلب منها أنْ تتأكّدَ أنّها حقًّا تريد ذلك فأخبرته أنّها كان لها حفل زفاف كبير في الزواج الأول، وإن كان هناك من سيظلم بإلغاء الحفل هو يحيى؛ لأنّه لم يتزوج من قبل. اقتنع الدكتور عادل برأيها ووعدها بأن يحاول إقناع والدتها، وأدركت فريدة أنّ أمامها تحديًا جديد وصعب، ولكنّها ستفعل ما فيه راحة حبيبها.

تواصل الدكتور عادل مع شريفة ليعرض عليها طلب العروسين.. انفجرت غضبًا، وأنهت المكالمة سريعًا، وذهبت إلى حجرة فريدة. لامتها بانفعال شديد على تخليها عن ليلة العمر بهذه السهولة. حاولت فريدة أنْ تقنعَها وأن تشرحَ لها ظروف يحيى، فقالت بانفعال:

ـ ظروفه دي اللي هتخليه دايمًا ينكد عليكِ.. دلوقتي مش عايز فرح، بعدين مش عايزك تشتغلي،

بعدين هيحبسك في قمقم، قمقم عقده وإحساسه بالنقص، أنا حذرتك كتير وانتِ مافيش فايدة فيكِ، مش عايزة تفهمي إن يحيى اللي خطبك مش هو يحيى اللي كان قبل ما يسافر ويعمل الحادثة، الحادثة أكيد سابت عقد نفسية كتير جواه بدل ما تفكري تلغي الفرح، فكري في الموضوع كله يمكن تفهمي وتعرفي إن الجواز دا نسبة فشله أكبر من نسبة نجاحه.

ألقت شريفة كلماتها الصادمة في وجه فريدة، ولم تمنحها فرصة للنقاش. انصرفت وتركتها في حالة ذهول؛ إنّ والدتها في ثوانٍ رسمت لها حياة كئيبة محبطة، مليئة بالمشكلات، وحكمت على زواجها من يحيى بالفشل بمنتهى السهولة. هل هذا يعقل؟ ما هذا التشاؤم؟! ما هذا الحكم المميت على حبِّ عمرها؟

إنّها تحب يحيى، ولن تتخلى عن هذا الحب، ولن تترك يحيى ليأسه، سيعود كما كان يوما ما.. سينجح ويتألق، وموسيقاه ولوحاته ستملأ الدنيا فنًّا وإبداعًا، عندها ستعود له ثقته بنفسه، سيعود أقوى.. هكذا ثقتها فيه لا تتزحزح حتى لو هو شخصيًّا لا يثق في نفسه.

وتمر الأيام، وهي ووالدتها في نقاش وشد وجذب لا يهدأ، والدكتور عادل يؤيد موقف فريدة ، حتى علياء أيضًا تؤيد موقف فريدة وكانت تجادل والدتها وتقول:

ـ سيبيها يا ماما تتجوز يحيى.. بفرح من غير فرح المهم إنها تتجوز اللي بتحبه.. أنا متأكدة إن فريدة مش تتحمل إن الجواز مايتمش.

بينما ظلت فريدة على موقفها إلى أن انتزعت فريدة الموافقة من والدتها، وتم الزواج في حضور المقربين. العروسان في سعادة بالغة، وفريدة تبدو أميرة من الأساطير فرحتها أضفت عليها جمالًا خاصًّا، وسحرًا فاق الوصف، أما يحيى إلى جوارها وكأنّه امتلك الكونَ كلَّه في هذه اللحظة، بينما شريفة كانت سعيدة بسعادة ابنتها، ولكن في قلبها بعض من القلق والخوف على ابنتها من زواج ربما تطارده الأزمات. دعت شريفة الله أنْ تسعد فريدة مع زوجها، وتكون كل مخاوفها مجرد ظنون ، وهمست شريفة في أذن يحيى توصيه خيرًا بابنتها، فقال لها:

ـ فريدة في قلبي وعنيا.

طار العروسان لقضاء شهر العسل في رحلة خارج البلاد، أيام من السعادة المتصلة يغمرها يحيى بالحب والحنان الذي اشتاقت إليه، يعوضها عن سنوات الحرمان والضياع، في كل لحظة يدللها ويردد أنشودة عشقه بكلمات الهوى الساحرة، كأنّه تحرر خارج مصر من كلِّ مشاكله وكلِّ أفكاره السوداء.. لا يرى إلا حبهما، هي في عينيه كلِّ الناس وكل الوجود. وفي دنيا الهوى السعيدة لم تنسَ فريدة أنْ تتحدث إلى والدتها يوميًّا لتطمئنها أنّها بخير وأنّها في سعادة بالغة.

في أثناء سفر فريدة ويحيى كان الدكتور عادل يتحدث إلى شريفة يوميًّا وبإلحاح ليقنعها بالزواج منه، لقد اطمئنت على بنتيْها، وما عاد هناك أي سبب لرفضها الزواج، ولكنّها ما زالت تخاف من ردِّ فعل ابنتيها خاصة علياء، ففاتح الدكتور عادل علياء، وطلب منها أنْ توافق على زواجه من والدتها، وعلى عكس ما توقعت شريفة رحّبت علياء بهذا الزواج، كانت تخاف على والدتها من الوحدة بعد زواج فريدة، بل لم تهدأ علياء إلا بعدما استطاعت أن تقنع والدتها بالزواج وأزالت من قلبها أيّ خوف أو تردد، واتفقوا أنْ يتمَّ الزواج فور عودة فريدة ويحيى.

وعادا العروسان إلى القاهرة، وتم زواج الدكتور عادل من والدة البنات في أجواء عائلية مرحة جدًّا، وأخيرا تحقق حلم الدكتور عادل بعد صبر سنوات طويلة، وبدأت شريفة حياة جديدة وسعيدة مع حبيب ظلّت تحلم به سنوات، وما ظنت أنّ القدر سيجمعها به يومًا.

بدأ يحيى يستمد من فريدة ثقته بنفسه، وقرر أنْ يتحدى الظروف وينجح من أجلها لقد تمسكت به، وحاربت الوجود كلَّه من أجلِ الارتباط به، لهذا يجب عليه أنْ ينجحَ وينجح، لن يخذلها أبدًا. عاد يتابع أعماله الفنية وألحانه ويبدع لوحاته، وفي كلِّ هذا العمل المتواصل لا يكف عن إسعادها وتدليلها؛ فهي دائمًا وأبدًا أهم ما في أيامه وقبل أيِّ أحد، وأهم من أي أحد، حتى أهم من نفسه، وأغلى من روحه عليه، وانشغلت هي أيضًا عن نفسها به، تحلم معه أحلامه، وترسم معه أيامه، كل وقتها له وحده، لا تنشغل عنه ثانية واحدة، كانت تبذل كلَّ جهدِها لتوفر له أجواء رومانسية هادئة ليبدع أكثر وأكثر....

كان يقضي ساعات متواصلة في إبداع الألحان، وهي تشاركه في كلِّ هذا العناء وتتابع معه صدى أغنياته ومدى نجاحها، وتقبل الناس لأعماله، وأراءهم في مواقع التواصل، وكان كلّ عمل يقدمه يكتسب نجاحًا أكثر مما سبقه.

وبدأت تتوالى عليه العروض للقاءات الصحفية أو البرامج التليفزيونية، في البداية كان يرفض ويريد أنْ يكتفي بالعمل في صمت دون ضجيج إعلامي، ولكنّها لم تهدأ إلى أنْ أقنعته بأهمية هذا التواجد الإعلامي للوصول إلى الشهرة الطاغية، فاستجاب لنصائحها، وأجرى لقاءً والآخر حتى اعتاد الظهور الإعلامي، فأصبح بالنسبة له شيئًا عاديًّا. تمر الأيام وبدأت أعماله الفنية وألحانه تتفوق في سباق المعروض من الأغنيات علي الساحة الفنية، وبعد عامين من العمل الجاد أصبح اسمه يقترن بنجوم الطرب من الصف الأول في مصر والوطن العربي، ثم استبد به شوقه إلى الرسم مرة أخرى؛ فقرّرَ أنْ يُعِدّ معرِضًا جديدًا.

وفي وسط كلِّ هذا التألق والنجاح تبقى فريدة هي نجمة أيامه وحبيبة عمره.. وأخيرًا ستكون أم ابنه أو ابنته.. كان خبرًا سارًّا، غمر يحيى بسعادة بالغة، أمّا شريفة اكتملت سعادتها بهذا الخبر السعيد، لقد كانت شريفه لا تكف عن سؤال فريدة عن سرِّ تأخر الإنجاب، وتلح عليها أنْ تطمئن من الطبيب أنه ليس هناك ما يعوق الإنجاب، ولكن فريدة لم تبحث هذا الأمر، ولم يشغلها كثيرًا، ما أرادت أنْ تستعجل شيئًا، تركت كلَّ شيء يأتي في حينه.

انفرد يحيى بالقرار في اختيار اسم الجنين، لقد قرّرَ أنْ الجنين سيكون اسمه «فريد» إنْ كان ولدًا، أو «فريدة» إنْ كانت بنتًا، كانت فريدة تستمع إلى هذه الأسماء وتضحك كثيرًا، وتقول:

ـ فريدة تاني يا يحيى؟!

ـ آه فريدة تاني.. أنا عايز بنت واسمها فريدة.

ـ كفاية فريدة واحدة.

ـ لا، أنا عايز أقول فريدة على طول، وبعدين أنا كل أسماء البنات بالنسبالي فريدة ولا اسم تاني يعجبني.

- خلاص.. لو ولد اختار اسم تاني.

ـ إن شاء الله بنت، إنما لو ولد بردو فريد.

....

الفصل السادس والعشرون

وبدأت فريدة معاناتها مع أشهر الحمل الأولى، ومتاعبها في تنفيذ تعليمات الطبيب الصارمة بالراحة والنوم على ظهرها، لم تعد تسهر مع يحيى أثناء عمله في الطابق الأول من الفيلا، صارت حبيسة حجرتها أغلب يومها خوفًا على الجنين، بينما يحيى يقضي أغلب وقته في العمل سواء بين الألوان أو الألحان في المنزل أو خارجه، لم تعد فريدة تزور والدتها، بل كانت والدتها هي التي تزورها بين الحين والآخر، وتسلل إليها الشعور بالضيق من هذه القيود، بدأت تضج من تلك التعليمات التي تحرمها من مشاركة زوجها ليالي فنه كما كانت تفعل سابقًا، ولكن ليس أمامها إلا الامتثال إلى تعليمات الطبيب وتحمل تلك الفترة الصعبة.

وجاءها يحيى ذات يوم وهو منتشيًا بخبر سار، خطوة هامة كان يترقبها بشغف في مشواره الفني، أخيرًا جاءت الفرصة التي انتظرها طويلًا، العمل مع المطربة «نيرة»، هذا الصوت البديع الذي يعشقه الملايين من الخليج إلى المحيط، تعاونه الفني معها سيضيف له الكثيرَ، ويكتبُ اسمَه بين الكبارِ لفترةٍ طويلةٍ. كانت سعادة فريدة بهذا الخبر كبيرة، وبدأت تسمع الألحان والأغنيات التي سيعرضها يحيى على «نيرة» لتختار من بينها لحنًا بتمعن شديد وتركيز بالغ. كان يحيى أعدّ لها خمس أغنيات، انبهرت فريدة بكلِّ ما أعدَّ زوجها من أغنيات، وأكدت له أنّ الألحانَ كلَّها بديعة، بل وتثق أنَّ كلَّ الألحانِ ستنال إعجاب «نيرة» وربما تختارها جميعا لتكون ضمن أغنيات ألبومها القادم.

وجاء اليوم الذي يترقبه يحيى. التقى بها ويا له من لقاء! حقًّا إنّها شخصية راقية مثقفة مبهرة، صوتها في الكلام يعزف سيمفونية بديعة كأنها تشدو بأعذب الألحان، جميلة الملامح إلى أبعدِ حد، في عينيها سحر لا يقل عن السحر الكامن في صوتها.. في حديثها سحر خاص مليء بالثقافة والرقي والرقة، في شخصيتها سحر أكبر وأكبر، متواضعة وبسيطة بشكل غريب، تواضعها وبساطتها أزالا رهبة يحيى من هذا اللقاء، ربما شعر أنّه التقاها سابقًا مرات ومرات.

قدم لها ما أعدَّ من أغنيات وهو في ترقب بالغ لرأيها، وكما اندهش هو بشخصيتها، اندهشت هي بألحانه وقررت أن تأخذ منه الأغنيات الخمس لتضم بعضها إلى ألبومها الجديد وتؤجل البعض إلى الألبوم القادم، وهو ما لم يتوقعه قطُّ؛ لقد كان أقصى طموحه أنْ تختار أغنية أو أغنيتين. أشادت كثيرًا بالأغنيات وألحانها المبتكرة وأفكارها الجديدة، وبدأت «نيرة» تتعرف عليه أكثر وأكثر، وتسأله عن مشواره الفني وأحلامه القادمة في الموسيقى. امتد لقاءه بها إلى ساعتين، مرَّ الوقت سريعًا وغادر يحيى بعد الاتفاق على موعد قادم لبروفات على الألحان.

عاد يحيى إلى بيته وهو في سعادة غامرة، ظلَّ وقتًا طويلًا يحكي لفريدة عنها، عن بساطتها، عن رقتها، عن صوتها، عن انبهارها بألحانه. كانت فريدة تستمع بإنصات شديد، عيونها تراقب ملامحه بتركيز بالغ لدرجة أرهقتها نفسيًّا وبدنيًّا، ونظراتها تندهش مع تغير نبرة صوته وهو يتحدث عنها، كأنّها ملاك من السماء، أو ملكة نزلت من على عرشها العظيم لتقابل أحد عامة الشعب. بينما هو لا يكف عن الحديث عنها ولا ينتظر من زوجته أي تعليق، إنه لم يفق بعد من انبهاره بها ولا يحتاج منها إلا أنْ تسمعَ صوت فرحته بأنْ تغني «نيرة» ألحانه بصوتها الذهبي.

استمعت فريدة طويلًا إلى أنْ أرهقها الاستماع، وأتعبها إعجابه البالغ بسيدة الطرب فقالت:

ـ ربنا يوفقك يا يحيى.

وبدأ ينشغل في البروفات مع نيرة، ويبدو أنّها هي أيضًا صارت منشغلة بألحانه، فلا تكف عن الحديث معه هاتفيًّا أو عبر رسائل مكتوبة، كان يحيى يتحدث مع نيرة وزوجته بجواره، ويقرأ رسائلها ويرد عليها وهي بجواره، كلها كانت أحاديث في العمل، ولكن الشك بدأ يتسلل إلى قلب فريدة، لقد تعامل يحيى مع مطربات من قبل ولكن هذه المرة كل شيء مختلف، إنّ ألحانه لها تشغل كل تفكيره، وهي لا تكف عن التواصل معه.. هل هذا حرص على العمل أم شيء آخر؟!

لأوّلِ مرة بعد زواجهما تتمكن الغيرة من قلب فريدة، أهي الحاسة السادسة ورادار المرأة الذكي الذي يحدثها بالخيانة قبل أنْ تحدث؟!

أم أنّ غيرتها عليه تحمل الأمر أكثر مما يحتمل؟

بدأت الحيرة ترهقها، والشك يؤرقها، والغيرة تعذبها، وكم هي مريرة الغيرة!

وكيف لا تغار عليه وهو حبيب العمر، وروح الروح، ونبض القلب، هو لها كل الوجود، عالمها الذي لا تقبل أنْ يشاركها فيه أحد، وكيف لها أنْ ترتاح من غيرتها.. كيف تعلم الحقيقة؟!

جلست إلى جواره تسأله عن ألحانه لها، فقال بسعادة بالغة:

ـ الحمد لله، دي فرصة عمري يا فريدة، بصراحة الشغل معاها ممتع بشكل كبير.. آه نسيت أقولك...

ـ خير؟!

- خبر بمليون جنيه.. نيرة بتحضر فيلم غنائي كبير، وطلبت مني إني ألحن كل أغاني الفيلم، وهنمضي عقد قريب.

أحست أنّ كلَّ شيء يدور حولها، وضعت يدها على رأسها لعلّها تستعيد توازنها. انتبه يحيى إلى رد فعلها، فقال بقلق:

ـ مالك يا فريدة؟!

-لا، مافيش.. دايخة شوية.

- أنا هطلب الدكتور ييجي حالًا يطمني عليكِ.

- لا، أنا كويسة.. دا عادي مع الحمل.

- متأكده؟!

- آه.

صمتت مرّةً أخرى، وعقلها مشغول بالفيلم الغنائي، وهو يراقب سكونها فعاد يسألها باهتمام:

ـ في حاجة يا فريدة؟ أنا حاسس إنك تعبانة!

ـ شوية تعب بسيط.. أنا هنام.

دخلت إلى غرفة النوم، كان عليها أنْ تهرب بتوترها من أسئلته الكثيرة.

استرخت على فراشها، ولكنّها لم تسترح، قلبها تتقاذفه المخاوف والشكوك، كأنّه كرة تائهة بين الأقدام. حاولت أن تطمئن نفسها، راحت تذكر قلبها بأنّها حبيبته.. أنّها حياته كلها، ولن تقدر أي أخرى أنْ تقتلعها من على عرش قلبه ومشاعره فعاد عقلها يقول لها: إنّها ليست أي أخرى، إنّها نيرة!

فأمسكت هاتفها وراحت تتأمل صور نيرة، تتأمل عينيها وسحرها، تتأمل أناقتها ملامحها الجميلة.. حقًّا إنّها امرأة جميلة وجذابة، ثم وقفت أمام مرآتها وراحت تقارن بين ملامحها وملامح نيرة، العينين، الشفتين، الخدين، الأنف، الشعر.. القوام، وراح عقلها يستفزها ويذكرها بصوت نيرة، من أين لها بهذا الصوت البديع؟!

فملت المرآة، وملت المقارنة؛ فأطفأت الأنوار، وعادت تجلس في فراشها، وسالت دموعها. لقد استبد بها القلق، وأنهكتها الحيرة، ومزّقَ الشك قلبها فاستسلمت لدموعها لعلّها تخفف عنها شيئًا مما تعاني.

لم تشعر به وهو يدخل الغرفة في هدوء، تفاجأت به يجلس إلى جوارها ويسألها برفق:

ـ مالك.. في إيه.. انتِ حاسة بإيه؟!

وقبل أن ترد أضاء النور في الغرفة، فرأى دموعها التي تحاول أنْ تخفيها سريعًا، فقال بانزعاج:

- في إيه؟! احنا نروح مستشفى حالا، أنا قلت إنك تعبانة من بدري، وانتِ صممتِ إن الموضوع بسيط وعادي، دا أول حمل وممكن تكوني مش عارفة إن كان اللي انتِ حاساه حاجة بسيطة أو تستاهل ناخد رأي دكتور.

ـ انا كويسة يا يحيى.

ـ كويسة ازاي وانتِ بتبكي من الألم!

ـ لا، أنا مش حاسة بألم دلوقتي.. أنا حلمت حلم مش حلو.

ـ انتِ بتتكلمي بجد؟!

ـ آه.

- حلم! دموعك دي من حلم؟! ويا ترى حلمتِ إيه، احكيلي.

- حلمت إنك بتحب واحدة غيري.

فضحك بصوت عالٍ، وهي تنظر إليه بترقب، ثم قالت:

ـ هو أنا قلت حاجة تضحك؟!

ـ يا حبيبتي، مجرد حلم.. مالوش أي معني يخليكِ تقعدي تبكي كده!

ـ ساعات في أحلام بتقول حاجة من المستقبل.

ـ أنا بحبك النهاردا، وبكرة ولآخر يوم في حياتي، مجرد حلم مايستاهلش إنك تفتكريه.

ما قرأت في عينيه شيئًا ينسيها شكها ولا شيئًا يريح قلبها! هل الشك حجب عنها كلام عينيه؟! إنها لا تعلم الآن أيّ شيء، إنها مضطربة مرتبكة.

انقضت الليلة وتتوالى الأيام وغيرتها تتضخم وتتعاظم؛ لأنّه صار يقابل نيرة يوميًّا إما للتحضير لأغاني الألبوم أو أغاني الفيلم. انقضى شهر ويحيى لا يعد أي عمل لأيّ مطرب آخر أو مطربة أخرى، صارت نيرة هي كل أعماله واستحوذت على كلِّ ألحانه في هذه الفترة، وما زالت فريدة حائرة خائفة، لا تجرؤ على أن تواجهه بشكها، فما تغيرت معاملته لها، لكن عمله مع نيرة يؤرقها ويرهقها، ويجعلها طوال الوقت تحمل جمرة نار بين ضلوعها، إلى أنْ استيقظت على خبر تضج به الصفحات على كلِّ مواقع التواصل الاجتماعي، قصة حب بين نيرة والملحن يحيى طاهر، بعدما نشرت المطربة على صفحتها صورة لها رسمها لها يحيى، وعلّقت عليها قائلة: «أجمل هدية من أعظم فنان ».

وانتشرت التغريدة لتتناقلها كل الصفحات وكل المواقع، وكل صفحة تضيف إلى الخبر بضعة سطور من قصة العشق المزعومة!

جن جنون فريدة، وكأنّ كل شكوكها صارت حقيقة، هل صارت نيرة حكايته الجديدة، لم يخبرها أنّه يرسم لها لوحة، متى رسمها، وأين؟ هل في الاستديو؟ هل هنا في الفيلا؟!

لم تعد تسهر بجواره، ولم تدخل إلى معبد الرسم الخاص به منذ بداية الحمل. هرولت إلى الحجرة الخاصة بالرسم واللوحات بالطابق الأول ولم تجد أيّ لوحات لنيرة.. أفكارها مشلولة، أنفاسها متسارعة، دموعها منهمرة، وانتابها شعور بالفقد، لقد ضاع منها يحيى من جديد، ولكن هذه المرة لن يعود! لقد غرق في عشق جديد وما أصبح أمامها إلا أن تتركه يغرق أينما يشاء.

أعدت حقيبتها وتركت له رسالة مكتوبة في غرفة النوم من كلمة واحدة (طلقني)..

لن تعاتبه، لن تلومه، كل هذا لن يفيد، لقد سمح لقلبه أنْ يعشقَ أخرى، لقد خانها وأعلن خيانته، وكيف تغفر له الخيانة؟! إنها الخطيئة التي لا تغفر أبدًا، لقد ضاع كل شيء..!

ذهبت إلى بيت والدها واتصلت بوالدتها هاتفيًّا وأبلغتها ما حدث، فأسرعت إليها والدتها.

وجدت شريفة ابنتها في حالة نفسية سيئة، وهستيريا بكاء متواصل، فقالت بهدوء:

ـ يا فريدة، دا كلام، جوزك بقا شخصية مشهورة ويا ما هتتطلع عليه إشاعات.. ماكانش يصح تسيبي البيت.. طيب حتى اسمعي منه الأول!

- ما أقدرش اسمعها منه يا ماما، ازاي أسمع منه إنه بيحبها؟!

- مين قال إنه بيحبها، هو اتغير معاكِ؟!

- أبدًا.

- أمال بيحبها ازاي؟! لو بيحبها كنتِ انتِ أول حد هيحس.

- مشغول بيها وبشغله معاها.. دا مابقاش يشتغل لحد غيرها، متفرغ ليها، وكمان بيرسمها!

- طيب ما هو رسام من قبل ما يشتغل في المزيكا، كل ما يرسم واحدة يبقى بيحبها..

معقول الكلام دا؟! ارجعي بيتك يا فريدة قبل ما جوزك يرجع.

- لا يا ماما.. أنا مش هستنى لما يسيبني، أنا اللي هسيبه.

....

عاد يحيى إلى الفيلا بعد يوم شاق في الإعداد لأغاني الفيلم، كان معتكفًا ساعات في الاستديو، ليجد نفسه أمام مفاجأة كبيرة، زوجته رحلت عن الفيلا وتطلب الطلاق، وهو لا يستوعب ما حدث. فتح هاتفه المغلق منذ الصباح واتصل بها وهو في نوبة غضب بالغة، ولكن هاتفها مغلق.. اتصل بوالدتها فأخبرته أنّها في بيت والدها. استفسر يحيى من الأم عن سبب ما فعلته فريدة، فطلبت منه شريفة أنْ يأتي إليها ليتحدث معها ويزيل سوء التفاهم.

ذهب يحيى إليها على الفور، استقبلته شريفة بترحاب، فسأل عن زوجته، فطلبت منه أنْ يدخلَ لها في غرفتها وأنْ يتحدّثَ معها بهدوء، ولم تخبره شريفة بشيء... دخل يحيى إليها وهو يحاول أنْ يكتمَ غضبه ويتمالك أعصابه لأبعد مدى، وجدها تجلس في فراشها حزينة وعيونها متورمة من البكاء، وهو ما زال لا يفهم ماذا حدث؛ فأخرج من جيبه رسالتها التي وجدها في غرفة النوم وألقاها على فراشها وتساءل بغضب:

ـ سبتِ البيت ليه.. وإيه اللي انتِ كاتباه دا؟!

ـ عايزة أطلق.

ـ تاني! بتقوليها بمنتهى السهولة ؟! إيه اللي حصل.. فجأة كدا.. دا حلم بردو!

- كفاية تمثيل يا يحيى.. انتَ عارف إيه اللي حصل، مصر كلها عارفة إيه اللي حصل!

ـ فقال بانفعال بالغ:

- مصر كلها عارفة مراتي عايزة تتطلق ليه وأنا معرفش؟!

- أخبارك انت ونيرة هانم، وقصة حبكم مكتوبة في كل المواقع، اتفضل روح لها أنا مش عايزة منك أي مبررات ولا اعتذارات.. طلقني يا يحيى، خلاص أنا مش فارق معايا تحب ولا تتجوز.. انتَ حر.

ـ انتِ اتجننتِ! تسيبي بيتك عشان كلام تافه من أشخاص حقيرة كل هدفهم خبر حراق يجيب لايكات وكومنتات، أنا موبايلي مقفول من الصبح ومادخلتش نت خالص النهاردا، وأنا مش هسيب اللي كتب الأخبار دي، كل واحد كتب كلمة هيتحاسب.

- واللوحة اللي الهانم نزلتها تويتر وانستجرام وخلتها بروفايل.. دي كمان كدب وافتراء؟!

- أيوه أنا رسمتها.. إيه المشكلة إني أرسمها؟!

ـ وليه أعرف من المواقع معرفش منك.. ليه بتخبي عليّ إلا لو في حاجة بينك وبينها؟

ـ اللي بيني وبينها شغل وبس.

ـ ما فيش دخان من غير نار يا يحيى.

حاول أنْ يكتمَ غضبَه وانفعاله من جديد. صمت دقائق، وصمتت هي أيضا وعيونها تراقبه....

أمسك هاتفه وتصفح السوشيال ميديا دقائق قليلة، وألقى نظرة على صفحة نيرة ليعلم ماذا كتبت عنه، تصفح المواقع سريعًا واستفزه المكتوب كثيرًا، وربما التمس بعض العذر لزوجته، فقال بهدوء:

ـ أوعي تجيبي سيرة الطلاق دي أبدًا، معقول تشكي في يحيى حبيبك؟! قومي يلا نرجع بيتنا ونتفاهم براحتنا.

ـ لما أعرف إيه اللي بينك وبينها.

فقال بانفعال بالغ وثورة عارمة:

ـ قولتلك مافيش حاجة بيني وبينها إلا الشغل.

ـ للأسف مش قادرة أصدقك.

ـ لكن تصدقي المواقع، يعني لو المواقع كتبت إنها بتحب واحد تاني أبقا أنا براءة ولو ماكتبتش أفضل أنا خاين في نظرك، مش كدا؟!

صمتت، ولم يعد لديها شيء تقوله، هي حقًّا لا تعلم كيف تثق فيما يقول. وقف أمامها حائرًا والغضب يعصف به، فقرر أنْ ينصرفَ قبل أنْ ينفجرَ بركان غضبه في وجهها. كانت شريفة تجلس في الصالون ومع ذلك سمعت أغلب الحوار، لقد كان صوتهما عاليًا، اتجه يحيى إلى شريفة ونظر إليها، وقال:

ـ أنا هبقى أكلم حضرتك أطمن عليها.

ـ ما تزعلش يا يحيى، انت عارف هي بتحبك قد إيه.

هز رأسه وغادر، بينما فريدة عادت إلى دموعها التي كتمتها طيلة حوارها مع زوجها؛ لا تصدق أنّ ما بينهما ينهار، ما تخيلت يومًا أنْ تطلب منه الطلاق وتختار الانفصال، ويا له من قرار مميت! ولكن ليس أمامها طريق آخر لتحفظ كرامتها وتصون كبرياءها.

حاولت والدتها أنْ تقنعَها أنّ يحيى مظلوم وبريء من كل هذه الشائعات، وأكّدت لها أنّ الأيام ستنصف يحيى، ولكن فريدة فقدت الثقة به، وفي نفسها، ما عادت تعرف أين الحقيقة!

....

انقضى أسبوع، وهو لا يتواصل معها، وسألت نفسها لو كان ما زال يحبها ما استطاع أنْ ينقطعَ عنها كلَّ هذه الأيام، وتذكرت الماضي أيام أن كانت تبتعد عنه بالشهور وهو لا يكف عن ملاحقتها برسائل العشق وأغنيات الهوى، لقد تغير.. تناقص عشقه لها، بل مات واستبدله بعشق جديد، ربما يكون سعيدًا ببعدها عنه.. ربما يكون سعيدًا لأنّها تحرره وتمنحه الفرصة ليبدأ حياة جديدة.

كان يحيى يتواصل مع والدتها يوميًّا ليطمئن عليها، ولكنّه لم يحاول أن يتواصل مع زوجته؛

اختار أنْ يتركَها تهدأ قليلا ليستطيع التحاور معها ومع قلبها الغائر، كان غاضبًا منفعلًا، لهذا لم يتواصل معها؛ خاف أنْ يقولَ في ثورة غضبه ما لا يسامح نفسه عليه أبدًا، وخاف أنْ يسمعَ منها ما لا يسامحها عليه أبدًا، لهذا فضل الابتعاد، ولكنّه لم يهدأ وربما لن يهدأ، لن يهدأ إلا إذا عادت إلى البيت وتناست تلك الأوهام. اشتاق إليها ولا يدري إنْ أعلنَ أشواقه كيف سيكون ردها، أتعبه كثيرًا بُعْدُها، الأيام تمضي ثقيلةً كأنّها سنوات، فقرر أنْ يتواصلَ معها هاتفيًّا وعاهد نفسه أنْ يتحمّلَ منها أيّ كلام انفعالي، اتصل بها وتوقع ألا ترد عليه ولكنّها ردت، فقال بلهفة:

ـ وحشتيني يا حبيبتي، مش كفاية كدا؟!

صمتت طويلًا، فقال:

ـ يا فريدة، أنا بحبك.. ارجعي بيتك بقا.

ـ الغي شغلك مع نيرة.

ـ ما أقدرش يا فريدة.

ـ علشان بتحبها، صح؟

ـ علشان في عقود يا فريدة، علشان دي فرصة كبيرة مش تتكرر.

ـ يا أنا يا شغلك معاها، اختار يا يحيى.

ـ معقول تفكري بالطريقة دي؟! أنا مش قادر أصدق!

ـ متهيألي إن شغلك معاها أهم مني، عشان كدا بقولك طلقني.

أنهت المكالمة وأغلقت الهاتف!

بينما هو يكاد أنْ يجن من طريقة تفكيرها وغيرتها التي تسير بهما إلى طريق مسدود. إنّ ما تطلبه لا يستطيع فعله، وما يجب عليها أنْ تضع ما بينهما في كفة ومستقبله في كفّةٍ. قضى يومه بفكر مشتت،

ومزاج مكتئب، إلى أنْ جاءه اتصال هاتفي من نيرة، ظلّت تحكي معه نصف ساعة عن الألحان الخاصة بالفيلم، ثم تساءلت في اهتمام:

ـ مالك يا يحيى؟ انت باين عليك متضايق أو مش فايق! أنا اتصلت في وقت مش مناسب؟!

ـ أبدًا، حضرتك تتصلي في أي وقت.

ـ إيه حضرتك دي! انت ممكن تقول نيرة.. احنا بقينا أصدقاء.

ـ دا شرف ليّ يا فنانة.

- أنا عامله حفلة صغيرة كدا الليلة، يا ريت تكون موجود.

- كل سنة وحضرتك طيبة، ما أخدتش بالي إن النهاردا عيد ميلادك!

ـ عيد ميلادي إيه بس، دي مصر كلها عارفة عيد ميلادي امتى، لا، دي حفلة صغيرة للأصدقاء.

ـ إن شاء الله هحاول آجي.

أنهى المكالمة وهو يقول لنفسه:

ـ إيه حكاية مصر كلها عارفة.. هو أنا مش عايش في مصر ولا إيه؟!

جاء المساء، وبسط القمر نوره في السماء، وتلألأت النجوم حول قمرها تعزف ألحان السحر والجمال وتحيي العشق في القلوب المشتاقة. استعد يحيى للخروج، وتأهب للقائه الهام في كامل أناقته، اختار باقة زهور رائعة، وخاتمًا ذهبيًّا أنيقًا ومضى لليلةٍ رسمها في خياله ذات إحساس خاص.

....

استبد الضيق بها، هل ضيقها منه أم من نفسها، أم من نيرة؟

إنّ ضيقها الأعظم من نيرة، هي سبب كل عذابها بعد أنْ ظنّت أنّ السعادة صارت بيتها،

نيرة يعشقها الكثيرون، لماذا تختار يحيى من بين كلِّ من حولها؟ لماذا تأخذ منها كلَّ ما تملك؟ ومثلها يملك كل شيء الشهرة والمال والجمال، بينما هي لا تملك من هذا العالم إلا حبّ يحيى، به وله تحيا. جلست سارحة حزينة تلعن تلك المرأة آلاف المرات، ولكنّها ما استطاعت قطُّ أنْ تلعنه، ما استطاعت قطُّ أنْ تكرهه، تحبه ولا تملك إلا أنْ تحبه، حتى ولو خانها ما زالت تحبه، حقًّا غريب أمر قلبها! ربما تكره نفسها وتلوم قلبها أنّها تحبه رغم خيانته، ولكنّها أبدًا لا تملك إلا أنْ تحبه، ولا تملك من أمرِ قلبها شيئًا مذ عرفته.

ما زالت تفكر وتتخيل ما بين حبيبها ونيرة، ماذا يقول لها؟ أيقول لها نفس كلمات الهوى التي كانت بينهما؟

كيف يعشقها؟

كيف يصفها؟

كيف ينشغل بها؟

أين هو الآن؟

ربما يكون معها، إنها اللعنة التي أصابت حياتها وحياته، ولن تترك شيئًا على حاله!

جلست في فراشها في يأس واستسلام، وماذا بيدها أن تفعل، لا تملك إلا أنْ تدافع عن كرامتها وتتركه يحب كيفما يشاء، ويعشق كيفما يشاء إلى أنْ يرهقه العشق ويمزقه الندم يومَ لن ينفع ندمه في شيء. جلست تائهة ممزقة بين مشاعر مجروحة وآهات مكتومة، إلى أنْ انتبهت إلى طرقات على باب غرفتها، فقالت بصوتٍ خافت:

ـ ادخلي يا ماما، الباب مفتوح.

انفتح الباب، ولكن لم تكن والدتها، إنه هو! تقدّم نحوها بتردد وبطء يحمل باقة زهور رائعة وعلى شفتيه ابتسامة حانية، وفي عينيه تلك النظرة العاشقة المشتاقة التي اعتادت عليها. نظرت إليه باندهاش، وابتسامة فرحة بقدومه، ثم قامت من فراشها وسارت نحوه خطوتين ثم توقفت، فوقف

أمامها ووضع الزهور جانبًا وعيناه تحيطها بمشاعر فياضة، وقال بهمس:

ـ وحشتيني قوي.

ـ لو كنت وحشتك كنت كلمتني كل ساعة لغاية ما أرد عليك، كنت عملت المستحيل عشان ترضيني، لكن انتَ مابقتش تحبني.

ـ عارفة انتِ لو مراتي بس ولا كنت سألت فيكِ؛ لأنك سِبت البيت من غير ما تسمعيني، وكمان بمنتهى البساطة بتطلبي الطلاق، بس انتِ مش مراتي بس.. انتِ حبيبتي وروحي وقلبي، أنا فعلًا مش عارف أعيش من غيرك، كل حياتي واقفة.

ـ أنا بالنسبالك كل دا!

ـ وأكتر يا فريدة، انتِ عندي العالم كله، ازاي أهون عليكِ، وازاي تشكي فيّ كدا؟!

ـ طب نيرة إيه؟!

ـ نجمة، والنجوم كتير، إنما في فريدة واحدة بس.

ـ عمرك ما حبيتها؟

ـ وحياة فريدة الكبيرة وفريدة الصغيرة عمري ما حبيت، ولا هحب غيرك، مين قالك إن عايز مراتي نجمة، أنا عايز فريدة اللي أنا كل دنيتها وهي كل دنيتي، فريدة اللي لولاها ماكنش يبقى في يحيى الناجح اللي بيلحن للنجوم والمشاهير، فاكرة لما قلت لك إن عمر ما قلبي هيعشق غيرك، دا عهد ووعد بينا من سنين.

ابتسمت ولمعت في عينيها السعادة، فاقترب منها أكثر واحتضنها بحنان بالغ وشوق كبير، قائلًا:

انتِ الحياة بالنسبالي، اللي بيني وبينك مش ممكن أحسه مع حد تاني أبدًا؛ لأن مافيش غير فريدة واحدة، يلا نرجع بيتنا، وحشني بيتنا وحياتنا سوا.

فنظرت إليه باستغراب، وقالت:

- البيت واحشك؟!

ـ أنا ما أقدرتش أعيش في الفيلا وانتِ مش فيها، ما أقدرتش أبات فيها ولا ليلة رحت قعدت في فندق، يا روحي انتِ الوحيدة في العالم اللي المفروض ماتغيريش.. أنا قلبي معاكِ للأبد.

ـ أنا بحبك قوي يا يحيى.

ـ أوعدك يا فريدة إن عمري ما أخونك وأفضل أحبك لآخر يوم في عمري وتوعديني إنك عمرك ما تسيبي بيتك تاني ولا تفكري في الطلاق حتى بينك وبين نفسك، توعديني؟

ـ أوعدك يا يحيى.. أنا آسفة.. أنا بغير عليك قوي عشان بحبك قوي.

ـ وأنا بحبك، بحبك أكتر من روحي، وهعمل أغنية ليكِ وباسمك عشان مصر كلها تعرف إني بعشقك، طالما عرفوا الإشاعات يعرفوا الحقيقة.

تعالت الضحكات الصادقة، وانطفئت نار الشك بكلمات العشق...

اصطحب يحيى زوجته إلى جنة حبهما بعدما مرت السحابة العابرة وانتصر حبهما، حبهما أقوى من كلِّ الظروف، من ليالي الخوف، حب لا تصفه حروف، حب من نوع خاص، نغم من لحن العشق الخالد الذي ما مرَّ على عشاق قبلهما، لوحة من الإحساس بألوان الوفاء الذي لا يتبدل، والصدق الذي لا يتبدد، والهوى الذي يتجدد مع كلِّ إشراقة شمس.

ومرّت شهور الحمل سريعًا وجاءت فريدة الصغيرة، وكانت ملامحها طبق الأصل من ملامح والدتها، وبدأت أيامهما تأخذ شكلًا جديدًا في وجود فريدة الصغيرة، أصبحت الأيام أكثرَ جمالًا.. أكثر سعادة، أضفت الصغيرة روحًا مختلفةً على شكلِ الحياةِ، وزادت دوافع يحيى أكثر في النجاح بعد أنْ أصبحَ أبًا، ولكن يبقى كل نجاح يحققه بنغم عشقه لحبيبته، وكل لوحة يرسمها بلون حبِّها الذي يزداد توهجًا في كلِّ يوم جديد في رحلة الأيام الممتدة، وتبقى فريدة ملكة في قلبه إلى الأبد.

كم لديك من السطور الجميلة التى اخذت
منك الكثير من المجهود و الاعتناء
لكى تكون افضل ما يمكن
لكى تعبر بها عن شعور داخلى
لم تستطيع ان تشاركه مع احد غيرك
مهما كانت سطورك
قصص .. روايات .. اشعار .. مقالات
باللغة
العربية او الإنجليزية او الفرنسية

تواصل معنا لتشارك سطورك مع العالم

SCAN ME

شارك سطورك مع العالم